الهوية الإسلامية



الشَّيخُ الدُّكْتُورُ

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ المُهَلْهَلِ الْيَاسِينِ

الهـويـة
الإسـلاميـة

الطبعة الأولى
١٤٣٣ هـ
٢٠١٢م

الموضوع: سلسلة بيت الدعوة.
اسم الكتاب: الهوية الإسلامية.
المؤلف: الشيخ د. جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
عدد الصفحات: ٣١٠ - عدد الملازم: ١٩ ملزمة
قياس الصفحة: ١٧×٢٤
رقم الإيداع: ٢٠١٠/٢٣١٢٤

الصف والاخراج
مركز بدور للثقافة والترجمة

شركة السماحة
للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت

الهوية الإسلامية

تأليف

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

الناشر

مؤسسة السماحة للنشر والتوزيع - الكويت

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

تطلب منشوراتنا

فى الكويت من: شركة السماحة ـ الكويت.

الرمز البريدي: ٤٣٧٥٦ ص. ب: ٦٦٥٢٠ بيان.

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

فى مصر من: مؤسسة شروق للنشر والتوزيع.

المنصورة. شارع جيهان. أمام مستشفى الطوارئ. ت: ٠٥٠/٢٢٥٢٨٦٠

سلسلة بيت الدعوة

رقم السلسلة (١١) الرقم الفني (١١)

الإهْدَاءُ نَثْراً

إلَى وَالِدَتِي مُنِيرَةَ، الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي أرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإحْسَانَ إلَى الآخَرِينَ وإنْ أسَاؤُوا، وأرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي الْمُجَلَّدَاتِ وَكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَى الإنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدِهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَى الآخَرِينَ.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَى فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنَّ مَعَ كَثْرَةِ أمْرَاضِهَا.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِهَا - رَحِمَهَا اللهُ - بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإنِّي لأذْكُرُ قَوْلَ أحَدِ الأصْدِقَاءِ عَنْ أمِّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وَإنِّي لأقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمِّي فِي حَيَاتِهَا، فَإنِّي أتَنَعَّمُ بالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ، فَإنِّي أتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ.

وَلَسْتُ أعْرِفُ لإنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ - فِيمَا أنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ - خَيْراً يُعَادِلُ أوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي - رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى. وَأسْأَلُ اللهَ - سُبْحَانَهُ - أنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّى بالإيذَاءِ، فَكَانَتْ لاَ تُؤْذِي أحَداً وَلا شَيْئاً، حَتَّى الأرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي

عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحِّي بِصِحَّتِها وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي أعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلاَ يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إنْ شَاءَ اللهُ.

إِلَى وَالِدَتِي أُهْدِي ثَوَابَ هَذِهِ الرَّسَائِلِ، لَعَلِّي أُؤَدِّي زَفْرَةً مِنْ زَفرَاتِهَا فِي وِلادَتِي.

وَأهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إلَى وَالِدِي – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَأهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إلَى رَفِيقَةَ الدَّرْبِ أُمّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْناً فِي صَبْرِهَا عَلَى سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إلَى أوْلادِي جَمِيعاً، ذُكُوراً وَإِنَاثاً.

وَأهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إلَى كُلّ مَنْ أسْهَمَ فِي إخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إذْ أكْتُبُ هَذَا الإهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَذَا الْكِتَابُ ألاَّ يَنْسُونَا جَمِيعاً مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

الشَّيخُ الدّكتُور
جَاسِمُ بْنُ مُحَمدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين

الإهْدَاءُ شعْراً

أمَّاهُ كُنْتِ مُنِيرَةً وَمَنَارَةً عُلْيَا وَصَرْحاً ثابتَ الأَرْكَانِ
قَدْ كُنْتِ مَدْرَسَةً تُعِدُّ نُفُوسَنَا لِصَنَائِعِ المَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ
قَدْ كُنْتِ لِلأَيْتَامِ أُمّاً بَرَّةً وَالجَارِ وَالمِسْكِينِ أَرْأَفَ حَانِ
أَرْضَعْتِنَا الأَخْلاقِ شَهْداً سَلْسَلاً تَدْنُو ثِمَارُ قُطُوفِهَا لِلْجَانِي
عَلَّمْتِنَا الصَّبْرَ الجَمِيلَ خَلِيقَةً وَالقَوْلَ لِلحُسْنَى وَكَفَّ لِسَانِ

* * *

أَبَتَاهُ قَدْ رَبَّيْتَنِي وَأَحَطْتَنِي بِرِعَايَةٍ فِي غِبْطَةٍ وَأَمَانِ
وَفَّرْتَ أَسْبَابَ السَّعَادَةِ وَالهَنَا فَجَعَلْتَنِي أَسْمُو عَلَى الأَقْرَانِ
فَجَزَاكَ رَبُّ العَرْشِ خَيْرَ جَزَائِهِ وَأُسْكِنْتَ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَانِ

* * *

نَوَّرْتَ يَا بَدْرَ الدُّجَا سُبُلَ العُلا بِالفَضْلِ لاَ فَظٌّ وَلاَ مَنَّانِ
كَمْ ذَا تُقَابِلُ بِالسُّرورِ تَدَلُّلِي بِمَحَبَّةٍ وَبِرَأْفَةٍ وَحَنَانِ
أَحْبَبْتَنِي قَرَّبْتَنِي رَبَّيْتَنِي بِالعِزِّ فِي ثِقَةٍ وَفِي اطْمِئْنَانِ

* * *

أَرفِيقَتِي كُنْتِ الشُّعَاعَ إذا دَجَا لَيْلُ الحَيَاةِ بِمُظْلِمِ الحِدْثَانِ
قَدْ كُنْتِ خَيْرَ شَرِيكَةٍ وَمُعِينَةٍ فِي البِرِّ عِنْدَ تَقَاعُسِ الأَعْوَانِ
الصَّبْرُ فِيكِ مَعَ الوَفَاءِ سَجِيَّةٌ بِتَعَاقُبِ الأَفْرَاحِ وَالأَحْزَانِ

* * *

يَا حَبَّذَا أفْلاذ أكْبَادٍ بِهَا ... كَمُلَ المُرَادُ وَقَرَّتِ العَيْنَانِ

فَاحْفَظْ مُعَاذاً وَاحْفَظَنَّ مُهَلْهِلاً ... أَمَدَ الزَّمَانِ وَعَابِدَ الرَّحْمَنِ

لاَ زَالَ عَبْدُ اللهِ فِي حِفْظٍ وَلاَ ... زَالُوا جَمِيعاً غُرَّةَ الفِتْيَانِ

وَلْتَحْظَ عَائِشَةٌ وَفَاطِمَةٌ بِمَا ... قَدْ شَاءَتَا مِنْ بُغْيَةٍ وَأَمَانِ

وَاحْفَظْ هَيَا وَمُنِيرَةً يَا رَبَّنَا ... مِنْ مُبْطِنِ البَغْضَاءِ وَالشَّنَآنِ

❊ ❊ ❊

يَا رَبِّ لاَ زَالَ الجَمِيعُ بِنِعْمَةٍ ... وَقِهِمْ شُرُورَ الحَاسِدِ المِعْيَانِ

صَلَّى الإلهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... وَالآلِ وَالأَصْحَابِ كُلَّ أَوَانِ

الشيخ الدكتور
جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

مقدمة

الحديث عن (الهوية) في الواقع المعاصر، ليس من قبيل الترف الفكري، أو الفراغ الوقتي الذي يُقْضَى كيفما اتفق؛ بل إنه أصبح منَ الأساسيات التي ينبغي أن يتوفر عليه جُهد النخْبة الواعية المثقَّفة مِنْ أبناء الأمة.

وذلك لأن الأمم لا تحيا بدون هوية؛ إذ الهوية بالنسبة للأمة بمثابة البصمة التي تُميزها عن غيرها، وهي أيضًا: الثوابت التي تتجدَّد، ولكنَّها لا تتغيَّر، ولا يمكن لأمة تريد لنفسها البقاء والتميُّز أن تتخلَّى عن هُويتها، فإذا حدث ذلك فمعناه: أن الأمة فقدت استقلالها وتميُّزها، وأصبحتْ بدون محتوى فكري، أو رصيدٍ حضاري، ومن ثَمَّ تَتَفَكَّك أواصرُ الولاء بين أفرادها، وتتلاشى شبكة العلاقات الاجتماعية فيها.

والنتيجة المحتَّمَة هي السقوط الحضاري المدوِّي؛ بل وتداعي الأمم عليها كما تتداعى الأكَلة إلى قصعتها، فتأكل خيرها، وتغزو فكرها، وتطمس معالم وجودها، وتمحو أثرها من ذاكرة التاريخ.

تعريف الهوية وأهميتها:

الهوية مأخوذة من (هُوَ . . هُوَ) بمعنى أنها جوهر الشيء، وحقيقته؛ لذا نجد أن الجرجاني في كتابه ذائع الصيت (التعريفات) يقول عنها: إنها الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب[1].

فهوية الإنسان . . أو الثقافة . . أو الحضارة، هي جوهره وحقيقته، ولما كان في كل شيء من الأشياء -إنساناً أو ثقافة أو حضارة- الثوابت

(١) انظر: التعريفات، الشريف الجرجاني، ص ٣١٤، دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

والمتغيرات . . فإن هوية الشيء هي ثوابته ، التي تتجدد ولا تتغير ، تتجلى وتفصح عن ذاتها ، دون أن تخلي مكانها لنقيضها ، طالما بقيت الذات على قيد الحياة[١] .

وهوية أية أمة هي صفاتها التي تميزها من باقي الأمم لتعبر عن شخصيتها الحضارية .

والهوية دائماً جماع ثلاثة عناصر:

العقيدة التي توفر رؤية للوجود .

واللسان الذي يجري التعبير به .

والتراث الثقافي الطويل المدى .

اللغة هي التي تلي الدين ، كعامل مميز لشعب ثقافة ما عن شعب ثقافة أخرى .

ثم يأتي التاريخ وعناصر الثقافة المختلفة في صنع الهوية .

وأهم عناصر الهوية هو الدين ؛ حيث في الحروب تذوب الهويات متعددة العناصر ، وتصبح الهوية الأكثر معنى بالنسبة للصراع هي السائدة ، وغالباً ما تتحدد هذه الهوية دائماً بالدين[٢] .

والهوية في غاية الأهمية ؛ منها تنطلق المصالح ، حيث إن الناس لا يمكنهم أن يفكروا أو يتصرفوا بعقل في متابعة مصالحهم الخاصة إلا إذا عرفوا أنفسهم ، فسياسة المصالح تفترض وجود الهوية .

---

(١) انظر: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية ، د . محمد عمارة ، ص ٦ ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، فبراير ١٩٩٩م .

(٢) صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي ، تأليف صامويل هتنجتون ، ترجمة طلعت الشايب ، ص١١٦ ، الطبعة الثانية ١٩٩٩م .

وإذا كانت هذه هي الهوية وهذه أهميتها لكل أحد ، فإن الهوية عند المسلمين أكثر أهمية ، والإسلام بعقيدته وشريعته وتاريخه وحضارته ولغته هو هوية مشتركة لكل مسلم ، كما أن اللغة التي نتكلم بها ليست مجرد أداة تعبير ووسيلة تخاطب ، وإنما هي: الفكر والذات والعنوان ، بل ولها قداسة المقدس ، التي أصبحت لسانه بعد أن نزل بها نبأ السماء العظيم .

كما أن العقيدة التي نتدين بها ليست مجرد أيديولوجية وإنما هي: العلم الكلي والشامل والمحيط ، ووحي السماء ، والميزان المستقيم ، والحق المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهي منظومة القيم التي تمثل مرجعيتنا في السلوك ، فهي ليست نسبية ولا مرحلية[١] .

وقد أدرك الأعداء ذلك ؛ حيث إن الصليبية والشيوعية والصهيونية اليوم ترى أن استعادة المسلمين لهويتهم الإسلامية وانتمائهم القرآني هو أكبر الأخطار ، ومن ثم فإن كل قوى التغريب والغزو الثقافي ستطلق في هذا الاتجاه ، ويقوم الاستشراق والتنصير بدور كبير[٢] .

كما أن الغرب أحرص ما يكون على هوياتهم ، وعلى ذوبان المسلمين المهاجرين في مجتمعاتهم ، بل إن هناك مؤسسات ووزارات خاصة للاندماج وتذويب الهويات .

وأوروبا ترفض تركيا بسبب الهوية ليس إلا ، وكما قال الرئيس أوزال في سنة ١٩٩٢م: سجل تركيا بالنسبة لحقوق الإنسان سبب ملفق لعدم قبول طلب

---

(١) السابق ، ص ١٠٣ .

(٢) انظر : مخاطر العولمة على الهوية الثقافية ، د . محمد عمارة ، ص٤٦ .

انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي ، السبب الرئيسي هو أننا مسلمون وهم مسيحيون[١] .

إنها حرب هويات كما يقول هنتجنتون حيث نجد تركيا تعيد تأكيد دورها كحامية للبلقان وتدعم البوسنة ، في يوغوسلافيا السابقة ، وروسيا تساند الصرب الأرثوذوكسية ، وألمانيا تساعد كرواتيا الكاثوليكية ، والدول الإسلامية تهرع لمساعدة الحكومة البوسنية ، والصرب يحاربون الكروات ومسلمي البوسنة ومسلمي ألبانيا[٢] .

ونجد أن الغرب لا يسعى لنشر قيمه الاجتماعية فحسب رغم عدم الاقتناع الواسع بها كقيم ، بل إنه يفرضها عبر المؤتمرات الدولية والضغط على الدول التي لا تستجيب ، حيث توالت مؤتمرات المنظمات الدولية بهذا الخصوص ، مثل مؤتمر نيروبي عام ١٩٨٥م ، مؤتمر القاهرة عام ١٩٩٤م ، ومؤتمر بكين عام ١٩٩٥م ، ومؤتمر اسطنبول عام ١٩٩٦م ، ثم مؤتمر نيويورك عام ١٩٩٩م ، ثم مؤتمر بكين ، ثم نيويورك أيضاً عام ٢٠٠٠م .

ومحور هذه المؤتمرات يدور حول الأسرة والمرأة والطفل ، مركزاً على الحقوق الجنسية ، والحق في الإنجاب والإجهاض ، والشذوذ ، وقضية المساواة بين الرجال والنساء ، والمساواة في الميراث .. إلخ .

وفي الفصل السابع من وثيقة مؤتمر السكان يتحدث عن الإباحية الجنسية ، فيقول:

---

(١) انظر : حتى لا تضيع الهوية الإسلامية والانتماء القرآني ، أنور الجندي ، ص ٧ ، دار الاعتصام ، سلسلة الرسائل الجامعة .

(٢) صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي ، تأليف صامويل هنتنجتون ، ترجمة طلعت الشايب ، ص ٤٣٣ .

إنها حالة الرفاهية البدنية والعقلية والاجتماعية الكاملة، المنطوية على أن يكون الأفراد (لاحظ تعبير الأفراد) من جميع الأعمار أزواجاً وأفراداً (كذا) فتياناً وفتيات، مراهقين ومراهقات، قادرين على التمتع بحياة جنسية مرضية ومأمونة (لاحظ عدم اشتراط الحلال والشرعية) هي كالغذاء، حق للجميع، ينبغي أن تسعى جميع البلدان لتوفيره في أسرع وقت ممكن، في موعد لا يتجاوز عام ٢٠١٥م. أي أنه أكثر من مباح.

فالسعي لتحقيقه بجميع البلدان في أسرع وقت ممكن، وقبل سنة ٢٠١٥م، واجب على جميع البلدان بل ولا تكتفي هذه الوثيقة بذلك، وإنما تتجاوز إباحة هذه الإباحية إلى حيث تدعو للتدريب والترويج والتعزيز لهذا السلوك الجنسي المأمون والمسئول[1].

---

(١) انظر: وثيقة برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية المنعقد بالقاهرة ٥-١٥/ ٩/ ١٩٩٤م، الترجمة العربية الرسمية، الفصل الثامن الفقرات ٣١-٣٥. نقلاً عن مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، د. محمد عمارة، ص ٢٧.

تمهيد

سعى الأعداء لطمس معالم هويتنا الإسلامية، ذات الصبغة المتميِّزة عن سائر الهويات في مخبرها ومظهرها، ولإدراكهم قوة الإسلام علموا أنَّ السبيلَ للقضاء على قوة المسلمين ليس في مُواجهتهم بالسلاح، وإنما في استخدام المكر والحيلة، فأخذوا يتظاهرون بالإسلام، ومن خلال هذا التظاهُر أخذوا ينشرون أفكارَهم القديمة، وآراءهم التي تفرق وحدة المسلمين، وتضعف قوتهم.

وقد اتَّخذ هذا الأسلوب بعضُ اليهود وبعض النصارى الذين أكل الحقدُ قلوبَهم؛ بسبب انتصار الإسلام عليهم، وإجلاء الرسول ﷺ لهم من المدينة، ووصيته في آخر كلام له بإخراج يهود الحجاز ونصارى نجران من اليمن من جزيرة العرب، وقد تم إخراجهم في عهد عمر رضي الله عنه واختار لهم أرضًا جديدة بين الشام والعراق.

وكان ممن أكل الحقدُ قلبه كذلك، ولم يستطعْ أن ينتقمَ لدولته التي قوَّض الإسلام أركانها: بعضُ أهل الفرس، وبعض أهل الروم، وبالأخص وهم كانوا ينظرون إلى العرب بعين الازدراء والاحتقار، ولعلَّ مما يلفت النَّظر لمدى هذا الاحتقار تلك الكلمة الخبيثة، التي قالها ملك الفرس لما وصله كتابُ رسول الله ﷺ فقال: «عبدي يكتب إليَّ»، وما كتبه يزدجرد إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قائد معركة القادسية، يقول له: «إنَّ العرب مع شرب ألبان الإبل وأكل الضب بلغ بهم الحال إلى أن تمنَّوا دولة العجم، فأفٌّ لك أيها الدهر الدائر».

بدأ هؤلاء الأعداء المتسترون في الإسلام يضعون الخطط؛ للتخلُّص من هذا الدين القوي، الذي قوَّض أركان دولتهم، والذي لا يُمكنهم مواجهته بالسِّلاح، وإنَّما عليهم أن يواجهوه بتدبير خبيث يتم في السرِّ وفي مأمن من ملاحقة الدَّولة الإسلامية اليقظة، **وإليك بعضَ نماذج هذا الكيد المستتر:**

أولاً: الحركات الباطنية أولى حلقات المؤامرة على الهوية الإسلامية:

بدأت هذه الحركات في وقت مُبكر ، وفي تستر كامل ؛ نظرًا لضعفها ، وإدراكًا منها لوعي المجتمع ، وقوة إحساسه بأي أمر دخيل يُخالف هويَّته وعقيدته .

وكانت حركة السبئيِّين ، بقيادة عبدالله بن سبأ اليهودي هي أولى هذه الحركات ، التي بدأت محاولات تشويه الهوية الإسلامية ، من خلال المبادئ التي أخذ ابن سبأ ينشرها ، وهي أنه وجد في التوراة أن لكل نبي وصيًّا ، وأن عليًّا ﷺ وصيُّ محمد ، وأنه خير الأوصياء ، كما أن محمدًا خير الأنبياء ، ثم إن محمدًا سيرجع إلى الحياة الدنيا ، ويقول: عجبت لمن يقول برجعة المسيح ، ولا يقول برجعة محمد ، ثم تدرج إلى القول بألوهية علي ﷺ .

ولقد همَّ سيدنا عليٌّ ﷺ بقتله ، فنهاه عن ذلك عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - فنفاه إلى المدائن ، ولما استشهد سيدنا علي استغلَّ ابن سبأ ألَمَ الناس لفقده ، وعاد إلى أباطيله ، مدعيًا أن المقتول ليس عليًّا ، وإنَّما هو شيطان تصوَّر صورته . . . إلى غير ذلك[1] .

ثم على منهاج ابن سبأ تتابعت الحركات الباطنية ، التي رأت أنَّ خير وسيلة للقضاء على الإسلام هي تشويهه في نفوس أتباعه ، تحت ستار من المكر والدَّهاء .

وكان من هذه الحركات كذلك:

الراوندية: التي نسبت إلى مدينة راوند ، التي اتَّخذها أتباع الحركة مقرًّا لهم .

---

(١) ينظر: تاريخ المذاهب الإسلامية ، الشيخ محمد أبو زهرة ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، طبعة دار الفكر العربي .

وقد بدأ أتباع الحركة أعمالَهم بالترويج للمُعتقدات الفارسية ، وقد مكن الله - عزَّ وجلَّ - أبا جعفر المنصور أن يقضي عليهم .

ثم ظهرت **(الخرَّمية)** ، وهي حركة أخذت اسمها من زوجة مزدك زعيم الإباحية القديم عند الفرس ، واسمها (خُرَّما) .

وقد استطاع الخليفةُ المعتصم أن يقضيَ عليهم بعد قتل زعيمهم (بابك الخرمي) .

• وكذلك ظهرت حركة الزنج (٢٥٦ هـ) ، وحركة القرامطة (٢٧٧ هـ) ، وسار على نهج هذه الحركات (إخوان الصفا) ، و(الإسماعيلية) ، تلك الحركات التي أرادت أن تقضيَ على مفهوم الإسلام الصحيح ، بدعوى أنَّ القرآن له ظاهر وباطن ، ومُحاولة نشر عقائد المجوس والزرادشتية بين المسلمين ؛ سعيًا لبث الفرقة بين المسلمين ، ومن ثم يتخلصون من الإسلام دون مُواجهة بالسلاح .

وبالرغم من خطورة هذه الحركات ، إلا أن يقظة المجتمع الإسلامي - حُكامًا ومحكومين - لم تُمكّنها من الوصول إلى هدفها الخبيث .

وكما كان الحكام يواجهون أتباعها بالسَّيف ، فقد كان العلماء يواجهونهم فكريًا ، ويظهرون للمسلمين ضلالَهم وأهدافهم ، ولعلَّ كتابَ الإمام الغزالي (فضائح الباطنية) كان حلقة من حلقات المواجهات الفكرية ، التي أظهرت زيفَهم وخطورتهم على الإسلام والمسلمين .

ثانيًا: ترجمة كتب الفلسفة الإلهية عند اليونان:

من المعروف أنَّ السلفَ الصالح - رضوان الله عليهم - لما انفتحوا على حضارات ما قبل الإسلام ، أخذوا منها النافع المفيد ، وتركوا ما يتعلق بعقائدهم ووثنياتهم وفلسفاتهم الجدلية العقيمة ، التي لا نفعَ يُرجى من ورائها .

لقد اجتهدوا في أخذ ما يتعلَّق بالعلوم المادية من طبّ، ورياضيات، وفلك، وكيمياء؛ وذلك سيرًا على منهجِ القرآن في الأمر بالنَّظر في الأشياء؛ ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

ظل الأمر على ذلك حتى أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، ثم بدأت تتوارد على العقل المسلم الفلسفة الهندية، والفلسفة اليونانية، ولما كان الكثير من الطوائف المجوسية واليهودية والنصرانية قد دخلت في الإسلام، وكان الكثير يتظاهر بالإسلام، ويبطن دينه، فقد بدأ كل هؤلاء ينشرون بين المسلمين ما يشككهم في عقائدهم، وكانت فرقة المعتزلة قد ظهرت، وبدأت تنهج النهج العقلاني في الردِّ على هذه الفرق، ومن ثم رأوا - المعتزلة - أنه لابد من دراسة الفلسفة اليونانية؛ حتى يتمكنوا من الرد عليها، ولما طَمَّ سيل الإلحاد والزندقة في العصر العباسي، ووجد الخلفاء العباسيون أَثر المعتزلة في مُواجهة هذه الطوائف، وقوة تفنيدهم لحجج الزندقة، فقد قاموا بتشجيعهم، بل لقد وصل الأمرُ بالمأمون أنه كان يعدُّ نفسه من علماء المعتزلة.

وكان ينهج نهجهم في هذا الاتِّجاه العقلاني، الذي جعلوا العقل فيه أساس بَحثهم، بل وحكموه في كل شيء، حتى أوَّلوا النص؛ كي يتَّفق مع العقل، بل يُمكننا أن نقول: لقد وصلوا إلى درجة تقديس العقل، ولا يستطيعُ أحد أن ينكر فضلَ المعتزلة في دفاعهم عن الإسلام، وتفنيدهم للأسس التي ترتكز عليها الفرق الضَّالة التي كانت تستتر في زيِّ الإسلام، وتُحاول أن تقوض بنيانه بتلك الفلسفات الملحدة.

ولكن مما يؤسف له أنَّ المعتزلة لم يلبثوا أن وصلوا إلى درجة الغُلُو في نظرتهم للعقل، وكان ذلك إيذانًا بتلاشيهم من ميدان البقاء؛ لأنهم أصبحوا لا

---

(١) يونس: ١٠١.

يُمثلون (الهوية الإسلامية) القائمة على السهولة واليُسر ؛ حيث أخرجوا الإسلام من حالته الفطريَّة إلى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية(١) .

وكان هذا الوضع من تدبير أعداء الإسلام ، وإن كنت تَعْجَب من هذه العبارة الأخيرة ، فانظر إلى هذه الحادثة التي ذكرها العلاَّمة مُحب الدين الخطيب- رحمه الله - يقول: «إنَّ قصة المسلمين مع الفلسفة اليُونانية قصة مَليئة بالفواجع والنَّكبات ، والغريب جدًّا أنه لا يزال الكثير من مُثقفينا يعتقد أن سبب نهضة المسلمين يعود إلى هذه الفلسفة ، مع أنَّها كانت من أعظم أسباب نزاعهم وبُعدهم عن دينهم ، وضياع مجدهم ، وقد تَحقَّق فيهم خبرُ أحد الأحبار ، وتفصيل ذلك - كما رواه العلاَّمة الشيخ محمد السفاريني: «قال العلماء: إنَّ المأمون لما هادن بعضَ ملوك النصارى - أظنُّه صاحب جزيرة قبرص - طلب منه خزانة كتب اليونان ، وكانت عندهم مجموعة في بيتٍ لا يظهر عليه أحد ، فجمع الملك خواصَّه من ذوي الرأي ، واستشارهم في ذلك ، فكلهم أشاروا بعدم تجهيزها إليه إلا واحد ، فإنه قال: جهِّزها إليهم ، فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلاَّ أفسدتها ، وأوقعت بين علمائها» .

ومن الجدير بالذِّكر أن أولئك النصارى قد طمروا هذه الفلسفة تحت الأرض تخلُّصًا من شرها ؛ لما لمسوه من فسادها ، وهدمها للدين والفضيلة .

أجل ، قد تَحقق في المسلمين تنبؤ الحبر ، فما كاد علماء المسلمين - بعد أن بلغ مجد الإسلام ذِرْوَته في القوة والفتح والعلم - يشتغلون بفلسفة اليونان ، حتى راحوا يؤوِّلون نصوص الشريعة الإسلامية ؛ حتى تتَّفق مع هذه الفلسفة ، فمسخوا الإسلام ، وأخذوا يزعمون أنَّ للإسلام ظاهرًا وباطنًا ، وظاهره

(١) ينظر: أخطاء المنهج الغربي الوافد ، أ/ أنور الجندي ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، طبعة دار الكتاب اللبناني ، بيروت .

للعامة ، وباطنه للعلماء والحكماء ، وأخذوا يشتغلون بعلم الكلام يسمونه ظلمًا وعدوانًا بـ(علم التوحيد) ، ولا يكاد يكون فيه من التوحيد إلا الاسم ، أما محتواه ، فهو الفلسفة نفسها»(١) .

ولقد كان لإعلاء المعتزلة شأن العقل ، ورفعه إلى درجة التقديس ؛ إيذانًا بخروجهم عن روح الهوية الإسلامية القائمة على السهولة واليُسر ، والخالية من التعقيدات الفلسفية أعظمُ الأثر في مواجهة العلماء لهم ، واجتهاد أئمة الإسلام أمثال مالك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم في الردّ عليهم ومُواجهة تلك الفلسفات الدَّخيلة على هوية الأمة ، والتي لم يألفها السَّلف الصالح - رضوان الله عليهم .

يقول الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله:

«أين كانت الخلافة العبَّاسية في أثناء الهجوم على الفكر الإسلامي بهذه الطَّريقة الوضيعة؟ لم تكن تكترث بالنَّتائج ، وعندما تحركت الخلافة تَحرَّكت لتنصر انحراف المعتزلة في بعض القضايا الكلامية ، وأمرت بسجنِ وجلد ابن حنبل ، الذي يُعَدُّ زعيمَ المحافظين في ذلك الوقت . . . على أنَّ علماء الإسلام ، ووراءهم السواد الأعظم من الأمة قاوَموا هذا الغشَّ المفروض على ثقافتهم الدينية مُقاومة ناضجة ، وأمكن حصر الإسرائيليَّات ، والنصرانيَّات ، والإغريقيات ، وكل القمامات الفكرية ، التي أرادت الالتصاق بالرِّسالة الخاتمة ، وتم تحذير الناس منها»(٢) .

---

(١) العواصم من القواصم ، تحقيق: الشيخ محب الدين الخطيب ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٢) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، محمد الغزالي ، ص٣٣ ، ط٣ ، مطبعة وهبة ١٩٩٠م .

ثالثاً: الهجوم المسلح (صليبي ووثني تتري):

تعرض العالَمُ الإسلاميُّ على مدى قرون مُتوالية لهجمة صليبيَّة وثنية شرسة، تدفقت على عالمنا الإسلامي ومُتعاونة مُتعاضدة من عدَّة اتجاهات:

من الشمال عن طريق بيزنطة، ومن الشرق بالغزو التَّتري المغولي، الذي تآمر مع الصَّليبيِّين لمدة (١٩٠ عامًا) من سنة ٦١٦ - ٨٠٧ هـ، والتي كان أقواها حملة جنكيز خان، وهولاكو، وتيمورلنك، ومن الغرب عن طريق الأندلس بغزو الفرنجة والإسبان.

وقد كان الغرضُ الأساسيُّ لهذه الهجمة هو القضاء والمحو التَّام لمعالم الإسلام، ولقد تكشفت الأحداثُ والوقائع عن مدى ترصُّد ومراقبة القوى المعادية لأحوال العالم الإسلامي، حتَّى إذا تأكدوا من حدوث أمرين بدؤوا في هجومهم:

الأول: ضعف الجبهة الداخليَّة وتفككها.

والثاني: وجود تناقُض بين قيم الإسلام وأعمال المسلمين وأخلاقهم؛ إذ إنَّ التوافق بين قيم الإسلام وأخلاق المسلمين من أقوى الدِّلالات على القوة المنبعثة من قوة العقيدة والإيمان.

نعم، إذا تَمزَّقت الوحدة، ووقع الصراع بين أجزاء العالم الإسلامي، ثم ضعفت القوة الرادعة - كان ذلك مقدمة لتجمُّع الأعداء للانقضاض، ولكن اللافت للنَّظر في خط سير تاريخنا الإسلامي تلك الظاهرة العجيبة «ظاهرة الانبعاث الداخلي»، سواء في مجال المواجهة المسلحة للغزو الخارجي، أم في مَجال الفكر لمواجهة الانحرافات الطارئة على الدين.

لم يقف عالم الإسلام صامتًا، ولم يستسلم، بل واجه العَدَاء بالمقاومة والوحدة والقتال، واستطاعَ أن يديلَ القوى الصَّليبية الشَّرسة، وأنْ يصهر القوى التَّترية المغولية في بوتقته، حتى أصبحت هذه القوى التي جاءت تريد القضاء على الإسلام من أقوى وأضخم القوى التي حملت راية الإسلام فيما بعد؛ حيث تحولوا إلى مسلمين مُخلصين.

ولقد أصبح هذا الحدث الضَّخم (هجوم التتار على بغداد أولاً، ثم إسلامهم وحملهم راية الإسلام ثانيًا) من أقوى الأمثلة على قُدرة الهوية الإسلامية على إخضاع الهويات الأخرى وصهرها لها، حتى وإن كان المسلمون في حالة ضعف وانهزام.

ثم كان لظهور المماليك والعثمانيِّين، وحملهم راية الإسلام - أعظمُ الأثر في كسر الغرور الصليبي، وبالأخص بعد فتح القسطنطينيَّة على يد القائد الشاب محمد الفاتح، ولكن أنَّى للحقد الصليبي أن ينام أو يقر له قرار؟!

لقد تتابعت الحملات تتدفَّق تريد القضاء على الإسلام، إلاَّ أن الأعداء كانوا يدركون أنَّهم لن يبقوا في هذه البلاد أبدَ الدَّهر، مهما تغلَّبوا على أهلها المسلمين في فترات معينة، طالت هذه الفترات أم قصرت.

لذا فقد عملوا على تسليم مقاليد الحكم في هذه البلاد الإسلامية لشخصيات مُوالية لهم من أبناء هذه البلاد، تعمل هذه الشخصيات - بتوجيه الاستعمار - على إخراج أجيال مفرَّغة من ثقافتها الإسلامية، ومن انتمائها إلى دينها وعقيدتها، ثم ما تلبث أن تتولى هذه النوعيات المفرَّغة مقاليد التوجيه الثقافي والصَّدارة الإعلامية، ومن ثم يتمكَّن الاستعمار من السيطرة على البلاد الإسلامية، وطمس معالم هويتها، فهم وإن كانوا قد رحلوا بأجسامهم وسلاحهم، فقد بقُوا بعقولهم وعملائهم.

ولقد كانت هذه الخطة الخبيثة أقوى أثرًا على الهوية الإسلامية من الهجمات الشرسة المدججة بالسلاح، إنَّها خطة (الغزو الفكري)، تلك المؤامرة الحديثة، التي وضعها الأعداء للقضاء على الهوية الإسلامية.

رابعًا: الغزو الفكري والتغريب ومُحاولات القضاء على الهوية الإسلامية:

كان فشل الصليبيِّين في الحملات التي شنُّوها على عالمنا الإسلامي سببًا في التفكير لتغيير أسلوب الغزو ووسائله؛ حيث أدرك الصليبيُّون أنَّ عقيدة المسلم ودينه يَحملانه على بذل النَّفس والنفيس في سبيل المحافظة على مُقدساته، وأرضه، وعرضه من الغازي المحتل.

وقد كانت بدايات التفكير في تغيير أسلوب الغزو حينما أُسر قائد الحملة الصليبية (لويس التاسع)، وسجنه المصريون في المنصورة، واستطاعَ أن يفدي نفسه بمال كثير.

وحينما كان لويس هذا قابعًا بين جدران سِجْنه، أدرك أنَّ الغزوَ المسلح لن يستطيع الانتصار على المسلمين؛ لذلك فكَّر في طريقة أخرى خلاصتها: إبعاد المسلم عن دينه، وتفريغه من عقيدته، بذلك يُمكن تحويل أحفاد الأسود إلى ظِبَاءٍ جَفُولَةٍ، لا تعتز بدينها ولا تحرص على حفظ عرضها ووطنها من الأعداء، بل إنَّهم يرون التمدُّن والترقي في التشبه بغير المسلمين.

وحينما يُمكَّن لهذه الشخصيَّات من قيادة البلاد الإسلامية، فإنَّهم سوف ينوبون عن أعدائهم في القضاء على الهُوية الإسلامية، والقضاء على حملة الإسلام، تحت مُسمَّيات خادعة مثل: «القضاء على الإرهاب، والتخلص من الرجعية، ومحاربة الجمود... إلخ».

حرص الأعداء على إرسال بعضِ الأفراد (مستشرقين) يدرسون الثقافة الإسلامية دراسة وافية، ثم يقومون بإثارة الشُّبهات ضدها، ولكنَّهم وجدوا أن

الأُمَّة لا تثق فيما يصدر عنهم ولا تتأثر به ، إذًا كان لا بد أمامهم من استقطاب بعض الأفراد من أبناء الأمة ، فهؤلاء لو تَمَّ استقطابهم ، فسيكونون بمثابة الثقوب ، التي يدخل منها الأعداء إلى ثقافة الأمة ، كما تدخل الحشرات إلى جسم الشجرة الوارفة ، وتظل تسعى حتى تصل إلى النَّواة ، فتفسد الشجرة كلها .

حصول الغرب على الشخصيات التي أعدُّوها لتنفيذ الخطة:

لما بدأ الضعف يَدِبُّ في جسم الدولة العثمانية ، التي ظلَّت تحمل راية الإسلام في وجه الأعداء عدة قرون ، وبسبب البُعد عن تعاليم الإسلام ، وعدم الأخذ بالأسباب في جوانب الحياة ، والثِّقة الزائدة بالنفس ، وعدم الاكتراث بالأعداء ، وفي المقابل كان العدو المحيط بالدولة يتربَّص بها الدَّوائر بكلِّ جهده في إعداد نفسه ؛ ليثأر لكرامته بعد تجرع كأسِ الذُّل بفتح القسطنطينية ، وتحويل أكبر كنيسة بها إلى مسجد .

فلما أحس بعضُ سلاطين آل عثمان بالخطر ، وفي مُقدمتهم محمود الثاني ، الذي تُوفي في عام ١٨٣٩م ، حاول أن ينهضَ بالدولة ، وكان يوقن إيقانًا تامًّا - كما يقول باول شمتز - «أنَّ أوربا لا يُمكن أن تُضرَب وتُرَدُّ إلى ديارها إلاَّ بسلاح أوروبي ، وبغير هذا لا يستطيع الشرق أن يقفَ أمامها ويوقف زحفَها .

وبهذا بذل جهده ، وحاول بكلِّ الوسائل أن يُحقق لبلده المستوى الحضاري الأوروبي ؛ كي يستطيع مقابلة هذا الخطر الداهم ، ويكون لديه إمكانية ردعه ، والوقوف أمامه ، وكان ينقص هذا دراسة أحوال وظروف الشَّعب الذي أُريدَ رفعُ مستواه .

فممَّا لا جدالَ فيه حتمية وجود أرض خصبة لبذر هذه الحضارة ، وإلاَّ يبست قبل أن تنبت ، ويَعتريها الذبول إن نبتت بين شعبٍ لا يَملك مقومات

رعاية الحضارة ، وليست لديه رغبة تقبلها ؛ أي: لا بد من وجود عوامل تتناسَب مع إرادة التطوُّر ، وتساعد على دفعها ورعايتها ، فحياة شعوب الشرق اتَّسمت بالجمود ، لا تعرف له بديلاً ، ولم يكن من السهل إثناء الشَّعب عما اعتاده ، أو تغيير هذه العادات ، فمحمود الثاني حاول وضع الحضارة الأوروبية على أرز شرقي يبس وتحجَّر ، وصار غير مستساغ»[1] .

ولقد قام الحكام بعملين يتطلَّعون من ورائهما إلى النهوض بالأمة:

الأول: إرسال بعثات إلى الغرب:

لقد حاول الحكام إرسال بعض الشخصيات ؛ كي تتزود بخبرة الغرب ، وتأتي وهي مزودة بالعلم والحضارة ، ولكن هذه الشخصيَّات ذهبت وهي مفرغة من عقيدتها ، فكان من السَّهل أن تتلقفهم المحافل الماسونية ، ومن ثم فقد وقعوا فريسةً في أيدي أعداء الإسلام ، وقاموا بإعدادهم ؛ كي يقطع الشجرة أحد فروعها ، ومن ثم فقد عادت هذه الشخصيات وهي مُتنكرة لا تحمل لأمتها انتماء .

والثاني: استقدام خبراء من الغرب:

وأمَّا بالنسبة للخبراء الذين قدموا من الغرب ؛ كي يطوروا الدولة العثمانية جاؤوا بامتيازاتٍ تثبِّت أقدامهم ؛ بحيث لم تستطع الدولة أن تتخلص منهم ؛ يقول باول شمتز: «إنَّ العقل الأوروبي الذي استعانت به تركيا ليساعدها على تنفيذ البرامج الإصلاحية ؛ كي تستطيع الدِّفاع عن نفسها ، وتتمكَّن من الوقوف ضِدَّ الهجوم عليها - لا يستطيع أحد التخلص منه أبدًا ، لقد أُعْطِيَ من الامتيازات ،ونال من الفرص ما يُمكِّنه من تثبيت أقدامه فوق هذه الأرض»[2] .

---

(١) الإسلام قوة الغد العالمية ، باول شمتز ، نقله إلى العربية د/ محمد شامة ، ص ٧٦ ، طبعة مكتبة وهبة .

(٢) المرجع السابق ، ص٧٩ .

وقد حدث في كثير من البُلدان الإسلامية مثل ما حدث في تركيا ، إلاَّ أن مصر لمكانتها الثقافية لاقت من عناية الأعداء وحرصِهم على السيطرة عليها -وبالأخص السيطرة الثقافية - ما لم تلقَه دولة أخرى ، وترتب على ذلك فقدان مصر سيادتها ، وسقطت أمام البريطانيِّين عام ١٨٨٢م ، ومنذ أن سيطر الخبراء الغربيُّون وتلاميذهم من التغريبيِّين على مقاليدِ البلاد الإسلامية ، وبالأخصِّ في الناحية الثقافية ، فقد حرصوا على إخراج أجيال لا تعرف دينَها ، ولا تعتزُّ بالانتماء إلى عقيدتِها ولغتها ووطنها ، ولا تعتز بتاريخها وتراثها .


مظاهر التأثر
بالثقافات الوافدة
والاختلاط بالنصارى
الفصل
الأول

المبحث الأول

مظاهر التأثر بالثقافات الوافدة

أولاً: في الثقافة والفكر(١)

إن المتأمل في شئون التقاء أو احتكاك الثقافات المختلفة ببعضها يجد بلا شك أن كلاً منها قد تأثر بغيره وأثر فيه أو في غيره .

والاحتكاك الثقافي يشترط الاتصال المباشر بين ثقافتين على الأقل ، وأن نتائج هذا الاحتكاك ينعكس في سلوك الفرد وفي نتاجه الفكري وفي معتقداته . ولكن الاحتكاك الثقافي ، إذا كان المقصود به تفاعل الثقافات معاً فلابد له من شروط حتى يؤدي إلى تغيرات أو تأثيرات متبادلة بين الثقافات المتفاعلة معاً ، منها:

١- معرفة أبناء إحداها بلغة أبناء الأخرى .

٢- فهمهم لروح الثقافة الأخرى أقصد أساليب التعبير عن الأفكار .

٣- فهمهم للمنهج الفكري الذي تعرض من خلاله الأفكار الخاصة بها .

وتسبق عملية التأثر والتأثير مرحلة يحاول فيها كل طرف من أطراف الاحتكاك الثقافي احتلال مركز التأثير .

نشأة حركة الترجمة وظهورها:

هناك رأيان مختلفان حول نشأة حركة الترجمة في الحضارة الإسلامية .

١- الرأي الأول:

- يرى أن الجذور الأولى لحركة الترجمة إلى العربية في أوائل العصر الأموي حيث ذكر في المصادر أن خالد بن يزيد بن معاوية والملقب بحكيم آل مروان

---

(١) انظر: فجر الإسلام، وضحى الإسلام، للأستاذ/ أحمد أمين .

أرسل إلى الإسكندرية في طلب بعض الكتب في الطب وعلم الصنعة (الكيمياء) لترجمتها إلى العربية وذلك بعدما أقصى عن الخلافة طواعية ويقول عنه:

* **ابن النديم:** وقد ذكر في (الفهرست) أن خالد كان يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلا في نفسه وله محبة في العلوم، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان الذين نزلوا مصر وتفصحوا بالعربية، وكان هذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة.

* **ابن خلكان:** وصف خالد بن يزيد بقوله: إنه كان أعلم قريش بفنون العلم، وله كلام في صنعة الكيمياء والطب، وكان متقنا لهذين العلمين.

* **الجاحظ:** قال عنه: إنه كان أول من أعطى الترجمة والفلاسفة وقرب أهل الحكمة ورؤساء كل صنعة.

- ويقال: إن خالد بن يزيد استقدم من الإسكندرية راهبا بيزنطيا اسمه مريانس وطلب منه أن يعلمه علم الصنعة، ولم يكتف بذلك وإنما طلب من آخر اسمه اصطفن ترجمة ما أتى به مريانس إلى العربية.

- وقد اتجه بعض الباحثين الأوروبيين المحدثين إلى أن يشككوا فيما نسب إلى خالد بن يزيد من جهود في الترجمة إلى العربية، مستهدفين غمز الإسلام وطمس دوره في ظهور أعظم حضارة عرفتها البشرية في العصور الوسطى، وفي ذلك شككوا أيضا في شخصية جابر بن حيان الكوفي (القرن ٢هـ) الذي يعتبر أبا لعلم الكيمياء، وأيضا شككوا في قسطنطين الأفريقي الذي ينسب إليه ترجمة مؤلفات العرب في الطب إلى اللاتينية؛ مما مهد لظهور مدرسة سالرنو الطبية.
وقد ذهب الكاتب لوتسيان كاسيموفتش إلى التشكيك في شخصية محمد في كتابه (لم يكن هناك محمد إطلاقاً).

- ومن الخلفاء الأمويين الذين استكملوا جهود الترجمة بعد خالد بن يزيد، عمر بن عبد العزيز(٩٩- ١٠١ هـ) حيث اصطحب معه عند ذهابه إلى الخلافة في المدينة أحد علماء مدرسة الإسكندرية بعد أن أسلم على يديه ابن أبجر واعتمد عليه في صناعة الطب. وقد قام الخليفة عمر بن عبد العزيز أيضا بنقل علماء مدرسة الإسكندرية إلى مدرسة أنطاكيا سنة ١٠٠هـ، لكن هذا لا يعني أن مدرسة الإسكندرية أغلقت، بل ظلت قائمة في العصر العباسي، ومن أشهر أطبائها:

(أ) بليطان الذي اعتمد عليه هارون الرشيد (١٧٠-١٩٤ هـ) في علاج جارية له.

(ب) سعيد بن توفيل كان طبيب أحمد بن طولون (٢٥٤- ٢٧٠ هـ).

- ومن المدارس التي ازدهرت بالعلوم والترجمة:

(أ) مدرسة الإسكندرية: إلا أن انغماسها في الجدل الديني حول بعض القضايا المسيحية وبعدها نسبيا عن مركز الخلافة خاصة في العصر العباسي، جعل تأثير مدارس الشرق وخاصة جنديسابور يبدو أكثر قوة.

(ب) مدرسة جنديسابور: اشتهرت هذه المدرسة بدراسة الطب، وفيها ترجمت مؤلفات اليونان في الطب إلى السريانية وبعد ذلك نقلت إلى العربية، وينتسب إلى هذه المدرسة أطباء أسرة بختيشوع الذين اشتهر منهم من عالجوا الخلفاء العباسيين الأوائل.

(ج) مدرسة حران: وكانت مركزا للأثينيين الصابئة وهم من السريان الذين اختلطوا باليونانية الوثنيين الفارين من الاضطهاد المسيحي، وينسب إلى هذه المدرسة: ثابت بن قرة الصابئي وله مؤلفات عديدة في الطب وعمل في خدمة الخليفة المعتضد العباسي(٢٧٩-٢٨٩ هـ) وكان من ذريته سنان بن ثابت الذي

حظي برضاء الخليفة القاهر . كما اشتهرت مدرسة حران بالفلك وينسب إليها في هذا المجال:

- عبدالله محمد البتاني .
- أبو جعفر الخازن .

٢- والرأي الأصح في نشأة الترجمة :

- أن حركة الترجمة ترجع إلى صدر الإسلام في عهد الرسول الكريم ﷺ وبتكليف منه ، فنُقل عن الصحابة - رضوان الله عليهم: «من عرف لغة قوم أمن شرهم» . ومن أشهر من تعلم السريانية في عهد الرسول ﷺ هو زيد بن ثابت وقد تعلمها في ستين يوما ، وتعلم كذلك الفارسية والرومية .

- أقدم بردة في الإسلام تعود إلى سنة ٢٢ هـ وعليها نص باسم عمرو بن العاص وبه ثلاثة أسطر باليونانية والترجمة بالعربية تحتها ، وبالتالي الترجمة ظهرت في صدر الإسلام وليس منذ العصر الأموي .

تطور حركة الترجمة وازدهارها:

حركة الترجمة إلى العربية أخذت تتسع وتزداد قوة في العصر العباسي بفضل:

١- تشجيع الخلفاء العباسيين ورعايتهم لهم وقد فتحوا بغداد أمام العلماء وأجزلوا لهم العطاء وأضفوا عليهم ضروب التشريف والتشجيع بصرف النظر عن مللهم وعقائدهم . في حين أن حركة الترجمة في العصر الأموي كانت محاولات فردية لا يلبث أن تذبل بزوال الأفراد .

٢- غدت ركنا من أركان سياسة الدولة فلم تعد جهداً فرديا سرعان ما يزول بزوال الأفراد سواء حكام أو غير ذلك ، بل أصبح أمرا من أمور الدولة وركنا من أركانها .

وفي حين أن الترجمة في العصر الأموي اقتصرت على الكيمياء والفلك والطب ، نجد أنه في العصر العباسي صارت أوسع نطاقا بحيث شملت الفلسفة والمنطق والعلوم التجريبية والكتب الأدبية .

اهتمام الخلفاء العباسيين بالعلماء والمترجمين :

١- **الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨هـ)** : وقد عني بترجمة الكتب إلى العربية سواء من اليونانية أو الفارسية ، وفي تلك المرحلة نقل حنين بن إسحاق بعض كتب ابقراط وجالينوس في الطب ، ونقل ابن المقفع كتاب (كليلة ودمنة) من الفهلوية .

٢- **هارون الرشيد (١٧٠ -١٩٤ هـ)**: عندما كثرت أعداد العلماء في بغداد انشأ لهم دار الحكمة لتكون بمثابة أكاديمية علمية يجتمع في رحابها المعلمون والمتعلمون وحرص على تزويدها بالكتب التي نقلت من آسيا الصغرى والقسطنطينية .

٣- **المأمون (١٩٨-٢١٨ هـ)** : ازداد اهتماما ببيت الحكمة ، فوسع من نشاطها وضاعف العطاء للمترجمين وقام بإرسال البعوث إلى القسطنطينية لاستحضار ما يمكن الحصول عليه من مؤلفات يونانية في شتى ألوان المعرفة ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق فأخذوا مما اختاروا . وقد ذكر ابن النديم أنه كان بين المأمون وإمبراطور القسطنطينية مراسلات بهذا الشأن .

أشهر المترجمين في العصر العباسي:

- ثيوفيل بن توما الرهاوي - جورجيس بن جبرائيل - يوحنا بن ماسويه .
- الحجاج بن يوسف الكوفي - ثابت بن قرة - حنين بن إسحاق .
- إسحاق بن حنين .

ونخص بالذكر حنين بن إسحاق الذي ترجم كتبا عديدة في المنطق والفلسفة والطبيعة لكن أغلب ما نقله كان في الطب وقد ترجم من اليونانية إلى السريانية والعربية فترجم لجالينوس ٩٥ كتابا إلى السريانية نقل منهم إلى العربية ٣٩ كتابا فقط .

لقد تأثرت الحضارة الإسلامية بالثقافات المجاورة لها مثل :

١-الثقافة الفارسية :

وجدت العلوم الإسلامية في عقلية الفرس أرضا خصبة للنمو والنضوج حتى أصبح الفرس سادة العلوم في قلب الدولة الإسلامية ، وتتمثل هذه السيادة نثرا في أسلوب ابن المقفع الرائع فيما ألف وفيما ترجم ، وتظهر كذلك في حكمتها التي لا تخرج إلا عن عقلية جبارة . وتتمثل نحوا وصرفا في سيبويه (ت ١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م) والكسائي (ت ١٨٩ هـ / ٨٠٤ م) والفراء (ت ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م) ، وتتمثل شعرا في شاهنامة الفردوسي التي عارض بها إلياذة هوميرس ، وفي رباعيات عمر الخيام (ت ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م) وفي ديوان الصادح والباغم لابن الهبارية ، وتتمثل في كتاب ألف ليلة وليلة ، وفلسفة وطب ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ/ ١٠٣٦ م) ، وفي فقه أبي حنيفة النعمان ، وهي آثار لا يزال العالم الشرقي والغربي يتأثر بكثير منها إلى اليوم .

لقد ظهرت العقلية الفارسية حتى في العلوم الخالصة للعرب ، وهي علوم القرآن والسنة ، فقد نبغ فيها الموالي وهم من العجم ، ولذا نذكر للقارئ نصا عن ابن خلدون في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم - « من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم من العجم ، ولا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر ، وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته» .

مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي ، والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة ، وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه ، كان الرجال ينقلونها في صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة . . ثم احتيج إلى معرفة وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونوه ، ثم كثر استخراج أحكام الواقعات من الكتاب والسنة ، وفسد مع ذلك اللسان فأصبح في حاجة إلى وضع القوانين النحوية ، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس ، واحتاجت إلى علوم أخرى ، وهي وسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والبعد عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد ، فصارت هذه العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة إلى تعليم ، فاندمجت في جملة الصنائع .

وقد استوعبت اللغة العربية كثيراً من الألفاظ الفارسية ، تمَّ تعريبُ بعضها لتُشابه اللفظ العربي وزناً وخصائص ، وبقي بعضُها على حاله . ومن الألفاظ المعربة التي وردت في القرآن الكريم: سندس وإستبرق ومرجان وسجل وسرادق وسواها . يقول الأزهري في كتاب التهذيب: «ومن كلام الفرس ما لا يحصى ممَّا قد عربته العرب»[١] .

ويقول أدي شير في معجم الألفاظ الفارسية المعربة: «إن اللغة التي حازت قصب السبق في إعارتها اللغة العربية ألفاظاً كثيرة ، هي الفارسية»[٢] .

---

(١) كتاب التهذيب للأزهري ، ١٠/ ٥٨٥ .

(٢) معجم الألفاظ الفارسية المعربة ، أدي شير ، ص٣ .

ولا يخفى أن بعض الشعراء العرب الكبار أدخلوا في شعرهم ألفاظاً فارسية ، ومنهم المتنبي الذي ذكر الشارحون لشعره عشرات منها . وأظن أن استخدام المتنبي وسواه الكلمات الفارسية في شعرهم لا يعود لعجز في اللغة العربية وإنما يؤكد «صلةَ التعاون وصلةَ التبادل وصلة الاقتباس»[1] .

ومن مظاهر الحوار الثقافي بين العرب والإيرانيين ، اهتمام العلماء الأوائل من العرب بالتاريخ والآداب الفارسية القديمة مثل ، المسعودي في مروج الذهب والطبري في تاريخ الرسل والملوك الذي ذكر فيه تاريخ الفرس في أيام الساسانيين . واهتمام الأوائل من علماء الفرس وأدبائهم بتاريخ العرب ولغتهم ، حيث جمعوا ثقافة العرب والعجم وجعلوا من إيران موطناً للأدب العربي منذ دخولهم الإسلام .

وعندما كانت الدولة الإسلامية تمتد في أراض شاسعة ، يسير فيها المسلم بلا جواز سفر أو تأشيرة دخول أو خروج ، شهدت بلاد الشام تبادلاً ثقافياً مهماً بينها وبين بلاد فارس ، تجلى في رحلتين متبادلتين قام بها إلى بلاد فارس في القرن السادس الهجري الشامي الدمشقي ابن عساكر ، والسمعاني الخراساني .

فقد رحل ابن عساكر إلى خراسان في إيران عن طريق أذربيجان ، سعياً إلى لقاء أبي عبد الله الفراوي في نيسابور للإفادة من علمه وفضله . يقول ابن عساكر عن الشيخ الفراوي: «كان مكرماً لموردي عليه ، عارفاً بحق قصدي إليه . ومرض مرضه في مدة مقامي عنده نهاه الطبيب عن التمكين من القراءة عليه فيها ، وعرفه أن ذلك ربَّما كان سبباً لزيادة تألمه ، فقال: لا أستجيز أن أمنعهم

---

(١) انظر: الاتجاهات النقدية عند شراح ديوان المتنبي القدماء ، د . عدنان عبيدات ، ص٢٣١ .

من القراءة ، وربما أكون قد حبست في الدنيا لأجلهم ، فكنت أقرأ عليه في حالة مرضه ، وهو ملقى على فراشه ، ثمَّ عوفي من ذلك المرض»[١] .

وقد ذكر في كتاب (معجم شيوخ ابن عساكر) أسماء شيوخه الذين قرأ عليهم ، وأسماء المشايخ الذين أجازوه في رحلته إلى خراسان . وسجل في معجم خاص أسماء القرى والأمصار التي رآها أو سمع بها ، وهو معجم هام يمد الدارس بأمور كثيرة ، وفوائد جغرافية أكيدة ، منها: العدد الصحيح للقرى التي قرأ بها ابن عساكر ، واللفظ الصحيح لأسماء هذه القرى ، وأسماء الكتب والأجزاء التي قرأها ابن عساكر .

ورحل السمعاني الخراساني إلى بلاد الشام في رحلة استمرت حوالي تسع سنوات زار خلالها بيت المقدس وعكا وعسقلان والرملة وعدداً من المدن المهمة في سوريا مثل: دمشق والرقة ومعرة النعمان وحلب وحمص ، وقرأ على عدد من مشايخ الشام . من هاتين الرحلتين نستدل على أن الثقافة الإسلامية كانت واحدة في بلاد المسلمين ، وحدت مشاعر الناس وأفكارهم وثقافاتهم . وجدير بالذكر أن الشاعر والمفكر الإنساني سعدي الشيرازي ، عاش في بلاد الشام واختلف إلى علمائها ووعظ في مساجدها .

وفي معرض حديثنا عن التأثير المتبادل بين الثقافتين ، لابدَّ من أن نذكرَ ابنَ المقفع الذي «حمل إلى العربية أروع ما أنتجته العبقرية الفارسية قبل الإسلام ، فترجم منه ما اتصل بالأخلاق ، وما اتصل بتاريخ الساسانيين ومن سبقوهم من ملوك إيران ، وكذلك ما اتصل بأنظمة ملكهم وحكمهم للرعية . ولم يكتف بذلك بل نقل أيضاً أجزاء من منطق أرسطو ، كما نقل قصص كليلة ودمنة

(١) التبادل الثقافي ، رياض عبد الحميد مراد ، ص٣٣ .

الشهيرة التي نقلت عن ترجمته إلى السريانية والعبرانية واليونانية والفارسية الحديثة، وإلى اللغات الأوروبية»[١].

ونشير إلى أن ابن المقفع حين قام بنقل الأدب الكبير والأدب الصغير إلى اللغة العربية، لم تستعصِ اللغة عليه، كما يقول طه حسين، بل كانت طيّعة مرنة، فله «عبارات من أجود ما نقرأ في العربية»[٢].

وقد جعل صاحب الفهرست، ابن المقفع من البلغاء العشرة الذين قاموا على رأس أدباء العصر العباسي، وشهد له بالفضل لأنَّه مقدم «في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير»[٣]. ومن هؤلاء الكبار سهل بن هارون، الذي كان مثقفاً بجميع معارف عصره، وترجع أهميته إلى ما صنف وألف. وعبد الحميد الكاتب، الذي كان من أبلغ كتاب الدواوين في عصره وأشهرهم.

يقول أبو هلال العسكري في الصناعتين: «إن عبد الحميد استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي، فحولها إلى اللسان العربي»[٤].

كما نص الجاحظ في (البيان والتبيين)، أن عبد الحميد ترجم بعض الكتب من الفارسية. ويُذكر أن عبد الحميد وجه رسالة إلى الكتّاب ضمنها وصايا

---

(١) بتصرف عن كتاب الفن في النثر العربي، د. شوقي ضيف، ص١٤٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٤١.

(٣) انظر: البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٢٠٨.

(٤) المرجع السابق، ص١١٦.

وانظر: مجلة التراث العربي- مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب- دمشق العددان ٩٩، ١٠٠ - السنة الخامسة والعشرون - تشرين الأول ٢٠٠٥ - رمضان ١٤٢٦هـ.

مختلفة لهم ، بأن يتفقهوا في الدين ويتنافسوا في صنوف العلم والأدب ، ويتعلموا العربية فإنها ثقافة ألسنتهم ، ويجيدوا الخط ، ويرووا الشعر . وربما من أطرف ما نقع عليه في رسالته هذه ، دعوته الكتّاب إلى تأليف ما يشبه النقابة في عصرنا الحديث . وذلك من خلال طلبه من الكتاب العطف على من ينبو به الزمان ، ومواساته حتّى يرجع إليه حاله .

ولو أردنا أن نأتي على ذكر الأدباء ذوي الأصول الإيرانية الذين أثروا التراث العربي بمؤلفاتهم وثقافتهم ، لتطلّب الأمر ندوات وندوات ، فهناك ابن قتيبة والجرجاني وأبو هلال العسكري وبشار وأبو نواس ومهيار وسواهم كثير كثير .

وحين نأتي إلى الشعر ، نرى أن الشعراء العرب تأثروا بالشعر الفارسي فرققوا شعرهم ، وأكثروا من الأوزان القصيرة ، ونزعوا إلى الوصف - وصف القصور والبساتين ومجالس الأنس وسواها .

كما نرى أن الشعراء الفرس تأثروا بأوزان الشعر العربي ونهجوا عليها في أشعارهم ، ففي المتقارب نظم الفردوسي الشاهنامة ، وفي الرمل نظم فريد العطار منطق الطير ، وزادوا عليها ثلاثة بحور ، هي: الغريب والقريب والمشاكل .

وإذا كان الشعر العربي بليغ وجميل في حقائق الحياة من الأخلاق والسجايا والمكارم والمآثر ، فإن الشعر الفارسي بليغ وجميل في دقائق النفس والعواطف الخفية .

والعكوف على ترجمة أعمال حافظ الشيرازي إلى العربية خير معبر عن شغف العرب بالأدب الإيراني ، وعلى وحدة الجذور ووحدة الروح وتشوقهم إلى إعادة التواصل بين هاتين الثقافتين الشرقيتين العريقتين . ويقول المفكر

الإسلامي سيد قطب: إن ترجمة أشعار الشيرازي تزيد في ثروة الأدب العربي، وتزيد رصيد الغناء في الشعر العربي الحديث بعد أن غرق في موجة فكرية فلسفية وأسلوب لفظي يهتم بالمحسنات البديعية، وتثير فيه ألوان جديدة من التفكير وفنون من الشعر الخصب، هذا عدا استرواح عطر الشرق البعيد وبساطته ومرحه وغيبيته وتصوفه.

كان كثير من الفرس على هذا النحو، حذقوا الفارسية والعربية، وتثقفوا الثقافتين، وأنتجوا في الأدب العربي نتاجا جديداً كالفضل بن سهل، وسهل ابن هارون، وابن المقفع، ويقول الجاحظ عن موسى بن سيَّار الأسْوَارى - أحد القصاص «كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فيقعد العرب عن يمينه والفُرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية. فلا يُدرى بأي لسان هو أبين. واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منها الضَّيْمَ على صاحبتها، إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسْواري»[1].

بل نرى قوماً من العرب تعلموا الفارسية، ووجدوا فيها من الغذاء ما لم يجدوه في العربية، فعكفوا على كتبها يتدارسونها ويمعنون في دراستها، ثم يخرجون بعد ذلك أدباً عربياً فيه معاني الفرس، وبلاغة العرب. نذكر مثلا على ذلك (العَتّابي) الشاعر العباسي المشهور. وهو عربي من تَغْلِب اسمه كُلْثُوم بن عمرو بن أيوب، تثقف بالثقافة الفارسية، وأعْجِب بها. يحدثنا طيفور فيقول: «قال يحيى بن الحسن: إني بالرقة بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين على بِرْكة؛ إذ دعوت بغلام له فكلمته بالفارسية، فدخل العَتَّابي -

(١) البيان والتبيين ١/ ١٣٩.

وكان حاضراً في كلامنا - فتكلم معي بالفارسية، فقلت له: أبا عمرو! مالك وهذه الرَّطانة؟ قال فقال لي: قدمت بلدتكم هذه ثلاث قَدَمات، وكتبت كتب العجم التي في الخزانة بِمَرْوَ - وكانت الكتب سقطت إلى ما هناك مع يزدجرد فهي قائمة إلى الساعة - فقال: كتبت منها حاجتي ثم قدمت نيسابور وجُزْتها بعشرة فراسخ إلى قرية يقال لها ذِوَدَرْ، فذكرت كتاباً لم أقض حاجتي منه، فرجعت إلى مرو فأقمت أشهراً، قال: قلت أبا عمرو لِمَ كتبت كتب العجم؟ فقال لي: وهل المعاني إلا في كتب العجم، والبلاغةُ: اللغة لنا والمعاني لهم! ثم كان يذاكِرُني ويحدثني بالفارسية كثيراً»[1].

كان العتابى إذاً مثقفاً ثقافة فارسية، وأنت إذا قرأت شعره ونثره تبيَّنت منه أنه كان أديباً ممتازاً، غزيرَ المعاني، على حين أن كثيراً من الشعراء أشعارهم جَوْفاء. تقرأ له مثلا في العقد الفريد، قطعاً نثرية غَزُرت معانيها، ودقَّ أسلوبها، وتقرأ له شعراً مطبوعا في فنون مختلفة من فنون الشعر - فتشعر بروح غير مألوف، كأن يقول:

فَلوْ كانَ للشكر شخصٌ يَبين ... إذَا مَا تأمّلَه الناظِرُ
لَمَثَّلْتُه لَكَ حتَّى تراه ... لِتَعْلَم أنّى امرُؤ شاكرُ

فيُفْتَن به الناسُ، ويتغنَّوْن به زمناً طويلا[2]، وهو الذي يقول:

ما جَفَّ للعيْنَيْن بعْـ ... ـدَك يا قريرَ العيْن مَجْرَى
إن الصَّبابَةَ لم تَدَعْ ... منّى سِوى عَظمٍ مُبَرَّى
ومدامع عَبْرَى عَلَى ... كَبدٍ عليك الدهرَ حَرَّى

(١) طيفور، الجزء السادس من تاريخ بغداد ص١٥٧، ١٥٨.
(٢) الأغاني ١٢/ ٢.

وله حكم تشبه حِكَم ابن المقفَّع، كأن يقول: «الأقلام مَطايا الفطَن. قَرِيبك مَنْ قَرُبَ منك خَيْرُه، وابنُ عمّك مَنْ عمَّك نفعُه، وعشيرك مَن أحسن عِشرتَك، وأهدى الناسِ إلى مودَّتك مَن أهدى برَّه إليك»، وكتب يوصي بشخص فقال: «موصل كتابي إليك أنا: فكن له أنا!». وعلى الجملة فالعتابي شخصية نادرة، لم تقدّر قَدْرَها اللائقَ بها. قليلُ اللفظ، غزير المعني، يدل نثره وشعرُه على ثقافة واسعة، قد اجتمع له من الإجادة في النظم والنثر ما نَدَر أن يجتمع لغيره، وقد أدركنا سبب ذلك مما علمنا من ثقافته.

هؤلاء الفُرسُ الذين تعرَّبوا، وهؤلاء العرب الذين أخذوا بحظّ من الثقافة الفارسية؛ ملأوا الدنيا في العصر العباسي علماً وحكمة وشعراً ونثراً، فيها العنصر الفارسي واضح جليّ. ومن حظ العربية وقتذاك أنها سادت اللغةَ الفارسيةَ وغلبتها على أمرها، فكان نتاج العقول الفارسية الراجحة؛ إنما هو باللغة العربية لا الفارسية، شِعْرُ الشاعر منهم عربي كبشّار، وأدب الأديب منهم كابن المقفع، وتأليف المؤلف منهم عربي كابن قتَيْبَة والطبري.. إلخ.

أثر الثقافة الفارسية في الأدب العربي:

قد كانت هذه الحياة ذات ألوان متعدّدة، أظهرُ لون فيها اللونُ الفارسي.

وبيان ذلك: أن العاداتِ الفارسية تغلغلت في الناس في ذلك العصر، وكان مظهرُها واضحاً جلياً. فالناس يَتخذون يومَ النَّيْروز عيداً لهم كالفرس قديماً، والقضاة وعظماء الدولة يلبسون القَلَنْسُوَة كالفُرس، ومجالس الغناء واللهو والشراب هي مجالس الفرس. والفضلُ بنُ سَهْل وزيرُ المأمون – وهو فارسي – يحتال حتى يُقْنع المأمونَ بتغيير السّواد بالخُضرة، ويكتب إلى جميع العمال أن يجعلوا أعلامهم وقلانِسَهم خضراً، والخضرة هي لباس كسرى والمجوس[1].

(١) الجهشياري ص ٣٩٦ وما بعدها.

ونظام الحرب وإدارة الدولة، اتّبعت – في أغلب الأحيان – نظامَ الفرس في حروبهم وإدارتهم، إلى كثير من أمثال ذلك.

والفرسُ من قديم ميّالون إلى الإرَاط في الشراب، والإفْراطِ في الغناء. حتى وصفهم (هِيُرودُوت) بالإمعْان في ذلك، والغلوّ فيه وتصريفهم شؤونَ الدولة وهم سكارى.

ويروى حمزة الأصفهاني «أن (بهرام جور) أمر الناس أن يعملوا من كل يوم نصفَه، ثم يستريحوا ويتوافروا على الأكل والشراب واللهو، وأن يشربوا على سماع الغناء، فعزّ المغنون.. ومر بقوم يشربون على غير ملْهِين (مغنّين) فقال: أليس قد نهيتكم عن الغفلة عن الملاهي؟ فقالوا: طلبناه بزيادة على مائة درهم فلم نقدر عليه! فكتبْ إلى ملك الهند يَستدعى منه ملهين، فبعث إليه اثني عشر ألف رجل منهم، ففرقهم على بلدان مملكته فتناسلوا بها».

فما أن قرت الدولة العباسية، حتى عاد الفرس إلى سيرتهم الأولى، فملأوا الجوّ غناء ونبيذاً ولهواً وترفاً، ورأينا رجالهم في كل فنّ من هذه الفنون هم قادة الناس في ذلك. فإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، ينشران اللهوَ الظّريفَ والغناء الحلْوَ، ويعلمان الجواري، ويقدّمان للناس المثُل في حياة السَّرَفِ والإتلاف في تحصيل اللذائذ، وكانا مع حسن صوتهما – وخاصة إسحاق – علَم الموسيقى في الدولة العباسية وألّف فيه وأولع الناسُ بغنائهما وقلدوهما في فنهما ولهوهما، ولما مات إبراهيم رثاه الشعراء بما يدل على أثره فيهم، فمن قائل:

تَولى الْمَوْصليّ فقد توَلّتْ بَشَاشَاتُ المَزَاهِرِ والقِيَانِ
وأيُّ بشاشةٍ بقيَتْ فَتَبقى حياةُ الموصلى على الزّمان!

سَتَبكِيهِ المَزَاهِرُ والمَلاهِـي وتُسْعِـدُهُنَّ عاتِقَةُ الـدِّنَان[1]

ومن قائل:

ستبكيه أشـرافُ المُلـوكِ إذا رأوْا مَحَلّ التَّصابي قد خلا منهُ جانِبُهْ

ويبكيه أهلُ الظَّرْفِ طُرّا كما بَكَى عليـه أمـيرُ المؤمـنيـن وحـاجِبُهْ!

ومن قائل:

أصبَحَ اللَّهْوُ تحت عَفْر التُّرابِ ثاويـاً في مَحِلّة الأحبابِ

إذْ ثَوَى المَوْصليُّ فانْقَرَضَ الْهـــوُ بخيرِ الإخْوَانِ والأصحابِ

بَكتِ المُسْمِعاتُ حُـزناً عـليه وبكاهُ الهَوَى وصَفْوُ الشَّراب

وبكَـت آلةُ المـجالِسِ حــتى رَحِمَ العودُ دَمْعَةَ المِضْرَاب[2]

وبشارُ بن بُرْد الفارسيُّ كان إمامَ الْمُحْدَثين، والفاتحَ لهم بابَ التهَتك علـى مِصْرَاعَيْه، سار شعرهُ في العراق فلا غَزِل ولا غَزِلَةٌ إلا يروى مـن شـعره، ولا نائحة ولا مغَنّيةٌ إلا تَتكَسَّب به، ويأتيه النساءُ في بيته فيأخذن عنه شِعْرَه.

ويقول سَوّار بنُ عبد الله ومالكُ بن دينار: «ما شيءٌ أدْعى لأهل هذه المدينة (البصرة) إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى!» وكان واصل بنُ عطاء يقول: «إن مِن أخدع حبَائل الشيطان وأغواها لكلِماتِ هذا الأعمى الملحـد!»[3]، ويقـول بشار: «عُسْـرُ النّسَـاءِ إلى مُيَاسَرَةٍ» فيشـجِّع الفِتيـان علـى الإمعـان في المغازلـة والإلحاح في الطلب[4]. فلما فَتح هَذا البابَ ولج فيه من أتى على أثره، سـواء في ذلك العربي والعجمي: كمُطِيع بن إياس، وأبي نواس. وكان لنا من هؤلاء

---

(١) تسعد: تعين على البكاء، ويعنى بعاتقة الدنان: الخمر.

(٢) الأغاني ٥/ ٤٧ وما بعدها.

(٣) الأغاني ٣/ ٣١.

(٤) انظر قصته في ذلك في الأغاني ٣/ ٥٣.

جميعاً أدب داعر، لا يتعفَّف عن العبث بالغلمان، ولا يَكْنى عن فحش، إن مَلُح من ناحيته الفنية، فالذّوق النبيل لا يستسيغه.

نعم؛ في الأدب الجاهلي خمرٌ تراه في مثل شعر طَرَفة، وفُحشٌ تراه في مثل امرئ القَيْس «**تَقولُ وقَدْ مَالَ الغَبيطُ بِنَا مَعاً**» و «**ألا عِم صباحاً أيّها الطَّلَلُ البالي**» وكان في الأدب الأموي خمرٌ كالذي في شعر الأخطل. وكان غزل مكشوف كغزل عُمَر بن أبي ربيعة. ولكن أين هذا كله من شعر بشّار وصَريع الغَوَاني ومُطِيع بن إياس، وأبي نواس! قد كان فجور الأوَّلين ساذَجا بسيطاً في ألفاظه ومعانيه كمعيشتهم، وكان فجور الآخرين مركّباً مُمْعِناً في الوصف، شاملا لكل المظاهر، ومشاعر الشهوة، يتخير أقبح اللفظ لأقبح المعنى.

قد تقول: إن هذا نتيجةٌ طبيعيَّة لسير المَدنيّة، فلما تقدَّمت بالناس حياتُهم الاجتماعية، وما يتبعها من تَرَف تقدّم الشعرُ والأدبُ يُسايران عيشة الترف والنعيم. فما للفرس ولهذا ؟

وقد يكون في هذا القول كثير من الصحة، ولكني أظن أن الأمر ما كان يصل إلى هذا الحد لولا الفرس، فهم الذين دفَعوا الناس إلى حياة ترف أَلِفوها وآباؤُهم من عهد الأكاسرة، وعلموهم كيف يكون الإفراط في طلب الملاذ من طريق ساذَج كالذي يعرفه العرب - هل كان يعرف العرب مجالسَ الغناء المتقنة، ومجالسَ الشراب المترفة، وحياةَ النعيم الناعمة لولا الفرس؟ فعظماء الفرس كالبرامكة وأمثالهم أرشدوا الناس إليها، وفنانوهم كإبراهيم الموصلي غنّوهم عليها، وشعراؤهم كبشَّار بن بُرْد كانوا لسانهم الناطق بها، ولو كانت الحياة الأموية امتدَّت وظلت السيادة العربية، ما رأيت تشبيباً بغلمان، ولا هذا السيل الجارف من القيان، ولما رأيت نعيما وترفا وفيراً! ألم تر الشام ومصر والأندلس في هذا العصر نفسه - لم تنغمس في الترَف كما انغمست العراق

وفارس ، ولم يكن أدبها أدباً ناعماً داعراً كالذي كان في العراق . قد تكون كثرة المال الذي يُصَب في حاضرة الخلافة سبباً للترف في الحياة ، والترفِ في الأدب . ولكنَّ المال وحده لا يكفي لولا العنصر الفارسي الذي كان ينظم كيف يستخدم المال في هذه السبيل .

من الحق أن نقول: إن هذه النزعة إلى اللهو والترف لم تكن نزعةً عامّة شاملة للفرس ، بل كانت هناك نزعات أخرى بجانبها ، أظهرها ما كان يقابلها من نزعة الزهد . وكان زعيم هذه النزعة في الأدب أبا العتاهية الفارسي أيضاً .

قد كان قبل أبى العتاهية حياة زهد في الجاهلية وفي العصر الإسلامي ، وكان قبل أبى العتاهية شعر زاهد . ولكنّ أبا العتاهية أتى في هذا الباب بما لم يُسبق إليه ، وزاد في معانيه زيادة بَشّار وأبى نواس في أدب اللهو والمجون . وأصح تعبير في ذلك أن تقول إنّه فَلْسَف الزهدَ ، وملأ الأدب العربي – في عصره – بالموت والتخويف منه ومما بعده ، واحتقار اللذة ، والجد في الهرب منها .

٢- الثقافتان اليونانية والهندية وأثرهما:

ومن ناحية أخرى قام السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية – وخاصة مذهب الأفلاطونية الحديثة – في العراق وما حوله ، وأخذوا ينقلون الكتب اليونانية إلى لغتهم السريانية . وهي إحدى اللغات الآرامية – انتشرت فيما بين النهرين والبلاد المجاورة لها – وكان من أهم مراكزها الرُّها ونصيبين ، وفوق هذا كانت هي لغة الأدب والعلم لجميع كتاب النصرانية في أنطاكية وما حولها ، وللنصارى الخاضعين لدولة الفرس . وأنشئت في هذه الأصقاع مدارس دينية متعددة كانت تعلم فيها اللغة السريانية واليونانية جميعاً في الرها وفي نصيبين وفي جنديسابور .

وقد عاشت الآداب السريانية من القرن الثالث الميلادي إلى القرن الرابع عشر ، ولكن حياتها بعد الفتح الإسلامي كانت حياة ضعيفة لغزو اللغة العربية لها وغلبتها . وبقى لنا من الأدب السرياني مجموعة في مختلف أنواع الكتابة .

وحفظت اللغة السريانية بعض الكتب اليونانية التي فقد أصلها ، وكانت ترجمتهم لكتب الفلسفة اليونانية هي الأساس الذي اعتمد عليه العرب والمسلمون أول أمرهم ، وقد كانت الترجمة السريانية في عهدها الأول ترجمة حرفية تقريباً ، ثم تحرر الكتاب المتأخرون من حرفية الترجمة .

ولما فتح المسلمون هذه البلاد في القرن السابع الميلاد أسلم بعض السريانيين ، وظل بعضهم محافظاً على دينه يدفع الجزية ، ولكن الآداب السريانية على الجملة أخذت في الضعف ، ومع ذلك فقد نبغ كثير منهم في العصرين الأموي والعباسي ، وظلت المدارس السريانية مفتوحة في عهد الدولة الأموية كما كانت . ولم يكن الخلفاء والأمراء يتدخلون في شئونهم إلا عندما يحتدم النزاع الديني بينهم فيلجأ بعضهم إلى الولاة يستنصرهم .

ولما جاء دور نقل الفلسفة والعلوم إلى العربية في العهد العباسي ، كان لهؤلاء السريانيين الفضل الأكبر في الترجمة ، أمثال حنين بن إسحاق ، وابن أخته حبيش .

والثقافة اليونانية – كالثقافة الفارسية – كانت مبثوثة بين المسلمين في البلدان المختلفة ، وكان منالها منهم قريباً ، وأنهم أخذوا يستفيدون منها ويتعلمونها على المثقفين بها – ولو لم يكونوا على دينهم .

من العسير العثور على معان يونانية وردت في شعر العرب ، ونفتش حتى في العصر العباسي عن شاعر أصله يوناني أو روماني تعلم العربية وشعر بها ،

فلا نجد، مع أنا وجدنا كثيراً من أصل فارسي أصبحوا شعراء في العربية، ونجد مؤرخي المسلمين في ذلك العهد تأثروا في طريقة تدوين الحوادث بالنمط الفارسي لا بالنمط اليوناني، ويتجلى ضعف التأثير اليوناني في العرب بضعف معلومات المسلمين عن الحياة الأدبية اليونانية حتى في العصر العباسي، فتاريخ اليونان عندهم يبتدئ بالإسكندر الأكبر أو قبله بقليل - مع امتلائه بالأساطير الخرافية - ولم يسمعوا كثيراً بتوسيديد، وقد سمعوا قليلا عن هوميروس، واستشهدوا منه بشيء قليل مقتضب مضطرب كالذي نراه في الشهرستاني والكشكول لبهاء الدين العاملي.

ويظهر لنا أن الآداب الفارسية كانت أكثر تأثيراً في الأدب العربي من الآداب اليونانية.

وعلة ذلك على ما يبدو لنا - أن الفرس إنما أثروا بشيء من معانيهم وخيالاتهم؛ لأنهم هم الذين انتقلوا للعربية ولم تنتقل العربية إليهم. وإذا كان اليونان والرومان لم ينتقلوا إلى العربية لم يكن أثرهم فيهم كبيراً.

وسبب آخر دعا إلى تأثرهم بالفارسية أكثر من اليونانية؛ ذلك أن دولة الفرس ذابت في المملكة العربية، وكانت حياة الفرس الاجتماعية تحت أعين العرب يعرفون عنها الكثير، فاستطاعوا أن يتذوقوا شيئاً من أدبهم، أما الحياة اليونانية فكانت بعيدة كل البعد عن معيشة العرب، ولم تكن تحت أعينهم لينظروها: آلهة تخالف كل المخالفة تعاليم دينهم، ونظم سياسية واجتماعية لا عهد لهم بها، وأنواع من اللهو لم يألفوها. والأدب كما علمت إنما هو صورة منعكسة للمعيشة الاجتماعية، فكان لزاما ألا يتذوق العرب الأدب اليوناني ويتأثروا به.

ولا يفوتنا – مع هذا – أن نشير إلى أشياء ثلاثة يونانية كان لها أثر في الأدب العربي:

(الأول) كلمات أخذها العرب من اليونانية كالقسطاس (الميزان) والسّجَنْجل (المرآة) والبطاقة (الرقعة) والقسطل (الغبار) والقنطار والبطريق والترياق والنقرس والقولنج (مرضان). ورووا «أن عليا ﷺ سأل شريحا مسألة فأجابه، فقال له: قالون: أصبت بالرومية»[1] إلى غير ذلك من الألفاظ.

(الثاني) ما كان من أثر الشعر لشعراء النصرانية في الإسلام، أمثال الأخطل والقَطَامِي، وحتى هؤلاء أثر النصرانية في شعرهم قليل، حتى يقول (الأب لامانس) نفسه: «إن أثر النصرانية في ديوان الأخطل أثر ضعيف، ونصرانيته نصرانية سطحية، ككل العقائد الدينية بين البدو».

(الثالث) وهو أكثر تأثيراً: الحكم اليونانية، وهذا النوع عُنِيَ به السريانيون من قبل العرب، فنقلوا منه عن اليونانية الشيء الكثير، ثم أخذه العرب لما كان يتفق وذوقهم الأدبي، فنقل إلى العرب حكم نسبت لسقراط وأفلاطون وأرسطو وأمثالهم بعضها تصح نسبتها إليهم، وبعضها ليست من أقوالهم عزيت إليهم. كالذي رووا عن أفلاطون أنه قال: «إذا أقبلت الدولة خدمت الشهوات العقول، وإذا أدبرت خدمت العقول الشهوات» وقال: «من فضيلة العلم أنك لا تستطيع أن يخدمك فيه أحد، كما يخدمك في سائر الأشياء، وإنما تخدمه بنفسك، ولا يستطيع أن يسلبه إياك كما يسلبك غيره من المقتنيات»، وقال: «لا يضبط الكثير من لا يضبط نفسه الواحدة» الخ. وقال أرسطو: «اعلم أنه ليس شيء أصلح للناس من أولى الأمر إذا صلحوا، ولا أفسد لهم ولأنفسهم منهم إذا فسدوا. فالوالي من الرعية بمنزلة الروح من الجسد الذي لا حياة له

(١) الثعالبي في فقه اللغة.

إلا بها»، وقال: «لن يسود من تتبع العيوب الباطنة من إخوانه». وقال سقراط: «النفس الخيرة مجتزئة بالقليل من الأدب. والنفس الشريرة لا ينجح فيها كثير من الأدب، لسوء مغرسها»، وقال: «العقول مواهب والعلوم مكاسب».

وزاد هذا النقل عن حكم اليونان على توالى الأيام حتى أفردت لها الكتب كما فعل (ابن هِندو) في كتابه، ورأيت رسالة طبعت في الجوانب جمعت فيها حكم نسبت لأفلاطون لم يذكر مؤلفها، وذكر أنها نقلت من نسخة مخطوطة سنة ٨٩٣هـ. وكتب الأدب مشحونة بضروب من هذه الأمثال(١) الحديثة مما يخرج بنا عن القصد لو شرحناه.

وهنا مسألة هامة لا بد من الإشارة إليها؛ لأنها خاصَّةٌ من خواص الهند، ولها أثر كبير في المسلمين، تلك هي مسألة (تناسخ الأرواح). وقد قال فيها البيروني بحق: «كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والإسباتَ علامة اليهودية، كذلك التناسخ عَلَمُ النّحلة الهندية، فمن لم ينتحله لم يك منها، ولم يُعدَّ من جملتها!»(٢).

وشرح نظريتهم في التناسخ: أن الأرواح لا تموت، ولا تَفْنى وأنها أبدية الوجود لا سيف يقطعها ولا نار تحرقها، ولا ماء يَغصها ولا ريح تُيبسها ولكنها تنتقل من بدن إلى بدن؛ كما يستبدل البدنُ اللباسَ إذا خَلق، وتترقّى النفسُ في الأبدان المختلفة كما يترقى الإنسان من طفولة إلى شباب، إلى كهولة، إلى شيخوخة. ذلك أن النفس طالبة للكمال، شيّقة إلى العلم بكل شيء، وهذا يحتاج إلى زمن فسيح، وعمر الإنسان وغيره قصير، فلا بد من تنقُّل النفس من

---

(١) انظر: دائرة المعارف البريطانية، مادة (الآداب السريانية).

(٢) البيروني ص٢٤.

بدن إلى بدن وفي كل بدن تستفيد تجاربَ جديدةً ، ومعلومات جديدة . فالأرواح الباقية تتردد في الأبدان البالية ، وهي تتردد من الأرذل إلى الأفضل ، دون عكسه ؛ لتترقى النفس في الكمال ، حتى يتحقق شوقها بعلمها ما لم تعلم ، واستيقانُها شرفَ ذاتها ، واستغناؤها عن المادة فتُعرض عنها «ويتحد العاقل والعقل والمعقول ، ويصير واحداً» .

وقد ربطوا الثوابَ والعقابَ والجنةَ والنار بنظرية التناسخ . فقالوا: إن الغرض من جهنم تمييز الخير من الشر ، والعلم من الجهل ، فالأرواح الشريرة تتردد في النبات ، وخشَاش الطير ، ومَرْذول الهوام ، إلى أن تستحق الثواب فتنجو من الشدة وتتردد فيما هو أرقى . وقال بعضهم: «لو لم أكن صائراً إلى آلهة حكماء سادة أخيار ، ثم من بعدُ إلى أناس ماتوا خير ممن هنا لكان تركي الحزنَ على الموت ظلماً!» ، وقال: «بعض من مال إلى التناسخ من المتكلمين ، إنه على أربع مراتب: هي (النسخ) وهي التوالد بين الناس ، بأن ينسخ من شخص إلى آخر ، وضده (المسخ) ويخص الناسَ بأن يمسخوا قردة وخنازير وفيلة . و(الرسخ) كالنبات ، وهو أشد من النسخ لأنه يرسخ ، ويبقي على الأيام ، ويدوم كالجبا ، وضده (الفسخ) وهو للنبات المقطوف ، والمذبوحات لأنها تتلاشى ولا تُعِقب»[1] .

ولقد لعبت نظرّية التناسخ دوراً هاماً في الفلسفة اليونانية ، وفي الديانة المانوية ، وفي المذاهب الإسلامية ، وفي التصوف ، وفي النصرانية .

فقد قال فيثاغورس بنظرية التناسخ ، ويرجح كثيرون من مؤرخي الفلسفة اليونانية أنها مأخوذة – في الأصل – من الفلسفة الهندية ، ثم أخذها عن فيثاغورس ؛ إمْبِدُ كِليس ، وأفلاطون – فقد كان فيثاغورس يرى تناسخ

---

(١) البيروني ص٣٢ .

الأرواح بين الإنسان والحيوان ، وأن تحرير النفس بترقّيها في دورة الحياة . وذلك بالشعائر الدينية ، وبالفكر والتأمل والفلسفة - وأفلاطون ربط رأيه في عالم المُثل ، ونظريته في تذكر المعلومات قبل حلول الروح في الجسم بنظرية التناسخ ، وإن اختلفت نظريته في التفاصيل عما حكاه بوذا ، من تذكّرِه أشياء كثيرة ، حدثت له في مواليده الأولى ، وقد نقض أرسطو رأي فيثاغورث وأفلاطون في التناسخ ، وخاصّة في حلول روح إنسان في جسم حيوان ، وذهب إلى أن ما كان وظيفة لشيء لا يمكن أن يكون وظيفة لآخر . . إلخ .

وقد حكى البيروني أن ماني نُفِيَ من بلاد فارس فدخل أرضَ الهند ونقلَ التناسخَ إلى نِحْلته وقال: «إن الحواريّين لما علِموا أن النفوس لا تموت ، وأنها متردّدة في صور مختلفة ، سألوا المسيح عن عاقبة النفوس التي لم تقبل الحقّ فقال: أيُّ نفس لم تقبل الحقّ هالكة لا راحة لها وَعنىَ بهلاكها عذابَها لا تلاشيها»[١] .

أما في الإسلام فكان أثر التناسخ في بعض الفِرق الدينية كبيراً ، فقد قال أحمد بن حائط: (وقد كان من المعتزلة ثم تبرؤوا منه) وأبو مسلم الخراساني ، والقرامِطةُ ، ومحمد بن زكريا الرازي: إن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجساد أخرى ، وإن لم تكن من نوع الأجساد التي فارقت . واحتج أحمد بن حائط بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[٢] وبقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾[٣]»[٤] .

---

(١) البيروني ص٢٤ .

(٢) الانفطار: ٦ - ٨ .

(٣) الشورى: ١١ .

(٤) الفصل في الملل والنحل لابن حزم (١/ ٩٠ ، ٩١) . وانظر: فيه الرد عليهم كذلك .

وقد أوضح الشّهرستاني قول أحمد بن حائط في التناسخ فقال: إنه كان يقول إن الله أبدع خلقه أصحاء سالمين عقلاء بالغين في دار سوى هذه الدار التي هم فيها اليوم ، وخلق فيهم معرفَته والعلمَ به ، وأسبغ عليهم نعمه . . فابتدأهم بتكلف شكره ، فأطاعه بعضهم في جميع ما أمرهم به ، وعصاه بعضهم في جميع ذلك ، وأطاعه بعضهم في البعض دون البعض ، فمن أطاعه في الكل أقرّه في دار النعيم التي ابتدأهم فيها ، ومن عصاه في الكل أخرجه من تلك الدار إلى دار العذاب وهى النار ، ومن أطاعه في البعض وعصاه في البعض أخرجه إلى دار الدنيا ، فألبسه هذه الأجسام الكثيفة ، وابتلاه بالبأساء والضرّاء على صُوَر مختلفة من صور الناس ، وسائر الحيوانات على قدر ذنوبهم . . . ثم لا يزال يكون الحيوان في الدنيا كرَّة بعد كرة وصورة بعد أخرى ، مادامت معه ذنوبه))[1] .

وقبل هؤلاء كان السَّبَئِيَّةُ أصحابُ عبد الله بن سَبَأ ، فقد روَوا عنه أنه قال لعليّ: أنت أنت! أي أنت الإله . وتبعته فرقته فقالت بتناسخ الجزء الإلهي في الأئمة بعد عليّ[2] ، وبمثل ذلك قال الغالية من الشيعة[3] .

وبعد هؤلاء كان النصيرية يعتقدون أن مرتكبي الآثام يعودون إلى الدنيا يهوداً أو نصارى ، أو مسلمين سُنيين ، أما من لم يؤمن بعلي فيعودون جمالا أو بغالا أو حميراً أو كلاباً أو نحو ذلك من أصناف الحيوان ، وبمثل ذلك يقول عوام الدروز .

وفي بعض قصص ألف ليلة وليلة ما يشير إلى مذهب التناسخ .

---

(١) الملل والنحل(١/ ٧٧) وما بعدها .

(٢) الشهرستاني على هامش ابن حزم (٢/ ١١) .

(٣) الشهرستاني ٢/ ١٠ .

وقد رأيت قبلُ أن نظرية التناسخ تُسْلِم إلى مذهب الحُلول ، فيتَّحد العقل والعاقل والمعقول وتصير كلها شيئاً واحداً . وهذا النظر كان له أثر كبير في مذهب الصوفية .

ومن مذاهب الهند القائلة بالتناسخ ، مذهب يسمى «السُّمَنِيَّة» نسبة إلى «سومنات» وهو اسم صنم كان في الهند ، أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين سنة ٤١٦هـ كما ذكر الجزري في تاريخه ، وقد ذكر البيروني أنها فرقة شديدة البغض للبراهمة ، وقد كانت خراسان وفارس والعراق والموصل إلى حدود الشام في القدم على دينهم ، إلى أن ظهر زرادشت في أذربيجان ، ودعا ببلخ إلى المجوسية ، وراجت دعوته فانجلت السمنية عنها إلى مشارق بلخ(١) .

وقد عُرف هذا المذهب بين المسلمين ، فيحكي لنا صاحب كتاب الأغاني: «أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام ، عمرو بن عُبَيد ، وواصل ابن عطاء ، وبشّار الأعمى ، وصالح بن عبد القُدُّوس ، وعبد الكريم بن أبى العَوْجاء ، ورجل من الأزد . قال: أبو أحمد يعنى جرير بن حازم فكانوا يجتمعون في منزل الأزدي ، ويختصمون عنده ، فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة ، وأما بشار فبقى متحيراً مخَلّطاً ، وأما الأزدي فمال إلى قول السمَنِية ، وهو مذهب من مذاهب الهند وبقى ظاهره على ما كان عليه»(٢) .

وفي الرياضيات فقد اتصل المسلمون بالهند ، وأخذوا عنهم قبل أن يتصلوا – اتصالا وثيقاً – باليونان . فقد ذكروا: «أن وفداً من الهند وفَد على أبى جعفر

---

(١) ما للهند من مقولة (١٠) .

(٢) الأغاني: ٣/ ٣٤ .

المنصور سنة ١٥٤هـ، وفيهم رجل ماهر في معرفة حركات الكواكب وحسابها، وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته، وخصوصاً على كتاب باللغة السنسكريتية اسمه «برَاهُمَسْبُطَسدْهَانْتْ» ألفه سنة ٦٢٨م أو (٦و٧) هجرية الفلكي الرياضي (برهمكبت) فكلف المنصور ذلك الهندي بإملاء مختصر الكتاب، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية، وباستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلا في حساب حركات الكواكب، وما يتعلق به من الأعمال. فتولى ذلك الفزاري، وعمل منه مزيجاً اشتهر بين علماء العرب، حتى إنهم لم يعملوا إلا به إلى أيام المأمون حيث ابتدأ مذهب بطليموس في الحساب والجداول الفلكية»[١]. وقد اقتصر العرب على الجزء الأخير من الاسم السابق وهو «سِدْهانت» ثم حرفوه قليلا وسموه «السندهند»[٢].

وقد أخذ عن هذا الرجل الهندي الذي وفد على المنصور؛ إبراهيمُ بن حبيب الفزاري، ويعقوب بن طارق[٣].

وكما أخذ المسلمون عن الهند كتاب السند هند، ترجموا كتاباً ثانياً اسمه «الأرْكنْد» وثالثاً اسمه «الأَرْجَبْهر»[٤].

وقد قال الأستاذ «نللينو» بعد بحثه العميق «كفت هذه الملاحظات دليلا على شدة تأثير كتب الهند في أوائل نمو الفلك عند العرب، وسنرى فيما بعد أن العرب أخذوا طرقاً مهمة كثيرة النفع مجهولة لليونان في حل جملة من المسائل

---

(١) الأستاذ نلليو في كتابه القيم علم الفلك، تاريخه عند العرب ص١٤٩ وفيه فصول ممتعة عن علم الفلك عند الهنود، ومبلغ ما أخذه العرب عنهم، وقد اعتمدنا عليه في هذا الموضوع.

(٢) (١٥٠).

(٣) انظر المصدر نفسه (١٥٦) وما بعدها.

(٤) (١٢٣، ١٧٢).

الفلكية المتعلقة بعلم حساب المثلّثات الكروية»[١] . وقال في موضع آخر: «فاتضح مما بينته أن تأثير علماء الهند والفرس في نشأة ميل العرب إلى ذلك العلم الجليل سبق تأثير اليونان ولو بزمان قليل ، ولكن لم تنل العرب ما نالوا من الثقافة والكمال والشهرة في ذلك الفن . . لو قصروا عنايتهم على نقل الكتب الموصوفة إلى الآن ؛ لأنها مصنفات عملية مقتصرة على منطوق القواعد ، وشرْح استعمال الجداول ، خالية عن البراهين وبيان العلل»[٢] .

وكان للثقافة اليونانية أثر كبير في المسلمين ، ومما زاد في أثرها أن اتصال المسلمين بها صاحَبَ عصر تدوين العلوم العربية ، فتسربت الثقافة اليونانية إليها ، وصبغتها صِبغة خاصة ، كان لها تأثير كبير في الشكل ، وفي الموضوع .

أما الشكل فيرجع إلى تأثير المنطق اليوناني ، وقد صبغ العلوم العربية صبغة جديدة صُبّت في قالبه ، ووضعت على منهاجه . إذ كان المنطق كما قال ابن سينا «خادمَ العلوم» – عُنِيَ به المسلمون من أول عهدهم بالفلسفة ، وقد رأينا أن ابن المقفع ترجم كتب المنطق لأرسطو ، وتتابع المترجمون بعده يترجمون الكتب المنطقية ، وكان المنطق الذي وصل إلى العرب هو منطق أرسطو معدلاً ومضافاً إليه ، ومشروحاً بمنطق الرّواقيين والإسكندرانيين ، ولم يزد العرب فيه شيئاً يذكر . فكل المنطق الذي بين أيدينا هو منطق اليونان ، لم يزد عليه إلا بعض الشروح . وقد نقل نقلا صحيحاً ، لم يدخله نقص ولا تهويش ؛ كالذي كان في الإلهيات اليونانية .

وقد كان منطق أرسطو وشروحه الغربية أوسع وأعمق مما بين أيدينا من كتب المنطق اليوم ؛ فكان القياس يشغل فيه حيّزاً كبيراً . وفيه كتاب واسع في

---

(١) (١٨٠) .

(٢) (٢١٤) .

البرهان، وآخر في الجدل وكيف يكون، وكيف تسلك في إفحام الخصم، وكان فيه باب للسفسطة، وباب في الخطابة، وباب في الشعر، وكانت الأبواب الخمسة الأخيرة وهى اليونان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة تُبحث فيه بحثاً وافياً[1]. ولكن المتأخرين حذفوا هذه الأبواب أو ألموا بها إلماماً يسيراً، واقتصروا على الكلام في الكليات الخمس والقضايا والقياس؛ مع أن الذي حذفوا أهم من الذي أثبتوا[2]، وبذلك أفقدوا المنطق روحه.

على كل حال كان للمنطق سلطان كبير على العقول في العصر العباسي، وكان من جرّاء ذلك أن اصطبغت طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل صبغة غير التي كانت تعرف من قبل. فإن أنت قارنت بين أسلوب القرآن الكريم وأسلوب المتكلمين: وجدت فرقاً كبيراً يمكنك أن تلخصه في أن أساليب المتكلمين جارية على أساليب منطق أرسطو، وليس كذلك أسلوب القرآن. وبحق وضع محمد بن إبراهيم الحسني اليمني الصنعاني كتابه المسمى «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان»[3]. فأسلوب القرآن في إثبات وجود الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ

---

(١) انظر في ذلك: منطق أرسطو باللغة الإنجليزية، وقد اتبع العرب الأولون شراح أرسطو من اليونان بإضافة الخطابة والشعر.

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون ٤١٠.

(٣) الكتاب طبع في مصر بمطبعة المعاهد.

(٤) يونس: ٣١.

﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾[١] إلى كثير من أمثال ذلك أما أسلوب المتكلمين فمثل: «العالم حادث ؛ وكل حادث لا بد له من محدث ، فالعالم لا بد له من محدِث ، إلى أمثال ذلك ، وما يستتبعه من الجوهر والعَرَض ، والكيفية والكَمّية ، والعلم الضروري والنظري ، وغير ذلك مما هو من تعبيرات الفلسفة اليونانية

وكذلك الشأن إذا أنت قارنت بين تعبيرات الفقهاء في عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي ، وبين تعبيرات الفقهاء في العصر العباسي – بعد أن عرفوا المنطق – فإنك تجد التعبير الأول عربياً بحتاً ، وتجد التعبير الثاني أرسطاليسيا بحتاً ؛ فمثلا تقرأ الباب في موطأ الإمام مالك فتجده يذكر الحكم ، ثم يحكى ما يدل عليه من حديث أو أثر ، ثم لا تجد فيه أثراً لعلم المنطق ، وتقرأ في كتاب الهداية مثلا التدليل الفقهي ، وخاصة في المسائل الخلافية بين أبي حنيفة والشافعي ؛ فترى أن قواعد الجدل التي وضعها أرسطو ، وقواعد البرهان مطبقة في دقة تامة ، فمقدمة صغرى ، ومقدمة كبرى ، ونتيجة . وأشكال القياس مستوفاة شروطها

وتقرأ كتاب سيبويه فتجد ترتيباً وتبويباً منطقياً ، يبدأ بتقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف ، ثم يعرّف كل قسم ويأتي بأمثلته ويذكر أحكامه ، وهكذا ومن ذلك أن أرسطو قال: «إن الزمان والمكان كالوعاء للأشياء ؛ إذ لا بد لكل شيء مخلوق أن يكون واقعاً في زمان من الأزمنة ، وفي مكان من الأمكنة فهمنا كالوعاء له ، وهذا أصل تسمية النحويين للمفعول فيه ظرفاً ، أي وعاء»[٢] . وكما أُلّف ايساغوجي أي المقدمة أو المدخل في المنطق ؛ ألّف ابن فارس «مقدمة في النحو»

---

(١) ق: ٦-١٠

(٢) محاضرات الأستاذ جويدي (٨٥)

وهذا القياس الذي شغل جزءاً كبيراً من منطق أرسطو طبق تطبيقاً دقيقاً ، وروعي في كثير من العلوم ، فالقياس في الفقه وأصوله ، والقياس في النحو واللغة ، والقياس في الفلسفة ، وكان لهذا القياس أثر كبير في تفريع المسائل وتنويعها ، ووضع المسائل المتشابهة تحت قاعدة واحدة ، وطرد أحكامنا على ما لم يرد فيه حكم مأثور ، سواء في ذلك الفقه والنحو واللغة ، وكان لهذا كله أثر في تضخيم العلم وترتيبه وتبويبه .

هذا في الشكل ؛ وأما في الموضوع ، فقد كان للفلسفة اليونانية أثر كبير في تعاليم المتكلمين . وكان للأفلاطونية الحديثة بعض الأثر في التصوف ، وكان لهما معاً أثر كبير في الفلسفة الإسلامية ، وهذا بتاريخ الفلسفة الإسلامية أشبه وأليق . وكان للبلاغة اليونانية أثر في علم البلاغة العربي .

ولكن مما لا شك فيه أن العرب أو المسلمين استخدموا ما أخذوا من الثقافة اليونانية استخداماً صالحاً ، وأخذوا منها ما أخذوا ثم بنوا عليه ، وزادوا فيه وابتكروا ، ولم يكن موقفهم موقف الناقل فحسب . وكان كثير منهم ينظر بإحدى عينيه إلى الثقافة اليونانية ، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية والثقافة العربية . فيختار من الأولى ما يتفق والثانيةَ ، ويؤلّف منها مزيجاً لا هو يوناني بحت ، ولا إسلامي بحت . إنما أظهرُ ما كان ذلك في العصر العباسي الثاني ، فقد كانت الترجمة قد تمت وركزت ، فأعقبها الأخذ بها والبناء عليها . وظهر أمثال: إخوان الصفاء ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد . . . وأمثالهم .

ثانياً: في السياسة والحكم

أخذ العرب عن الفرس في السياسة والحكم نظام الملكية الوراثية، وولاية العهد، ونظام الوزارة والحجابة، وإذا أخذنا نظام الوزارة كمثال وجدنا أن كلمة وزير لم تكن بدعاً في العصر العباسي؛ إنما المبتدَع هو إنشاء هذا المنصب، وإعطاء صاحبه السلطة الرسمية، وتلقيبه بهذا الاسم، وهذا المنصب فارسي، ولم يكن معروفاً قبل العباسيين – قال ابن خلكان في ترجمة أبى سلمة الخلال: «إن أبا سلمة أول من وقع عليه اسم الوزير، وشُهِر بالوزارة في دولة بني العباس، ولم يكن قبله من يعرف بهذا الاسم، لا في دولة بني أمية ولا في غيرها من الدول»[1].

ويقول الفخرى: «الوزير وسيط بين الملك ورعيته، فيجب أن يكون من طبعه شَطر يناسب طباع الملوك، وشطر يناسب طباع العوام؛ ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة.... والوزارة لم تتمهد قواعدها وتقرر قوانينُها إلا في دولة بنى العباس، فأما قبل ذلك فلم تكن مقنّنة القواعد، ولا مقرّرة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية، فإذا حدث أمر استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة، فكل منهم يجرى مجرى وزير، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة، وسمي الوزير وزيراً. وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً».

وقد كان الوزراء الظاهرون في هذا العصر موالى فرساً، فأبو سلمة الخَلال – أول وزير عباسي – مولى فارسي، وأبو أيوب المُورِياني وزير المنصور فارسي من «موريان» قرية من قرى الأهوَاز، ويعقوب بن داود وزير المهدي مولى كذلك، وكذلك كان يحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد، واستوزر المأمونُ

---

(١) وفيات الأعيان (١/ ٢٢٩).

بني سهل وكانوا من أولاد ملوك الفرس ، ومن صنائع البرامكة ، واستوزر المأمون أحمدَ بن يوسف ، وهو مولى لبني العجل[١] . ثم استوزر ثابت بن يحيى ابن يسار الرازي وهكذا .

فترى من هذا أن أكثر الوزراء كانوا فرساً ، وكان الوزير قائماً مقام الخليفة في كل الشؤون ؛ فينظر في الشؤون الحربية ، وفي الشؤون المالية ، ويكتب الرسائل إلى الجهات المختلفة ، ويوقّع على ما يُرْفع إليه من أوراق ، ولم يتعدد الوزراء في الدولة العباسية بتعدد الأعمال ، فيجعل للحرب وزير ، وللمال وزير وهكذا . وإنما كان تعدد الوزراء بتعدد الأعمال ، من نظام الأندلسيين «فقد قَسّموا خُطة الوزارة أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً ، فجعلوا لحُسبان المال وزيراً ، وللترسُّل وزيراً ، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً ، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً»[٢] . وعلى العكس من ذلك العباسيون ؛ فقد جمعوا له بين خُطَّتي السيف والقلم .

وهذا الذي ذكرنا من أن الوزير كان يجمع إلى الإدارة الحربية والمالية خطة القلم – وأعنى بها إنفاذ الرسائل إلى الجهات ، والتوقيع على ما يُعرض عليه من مطالب ورسائل – جَعَلَ من شروط الوزير أن يكون عالماً مطلعاً ، كاتباً بليغاً . وكذلك كان أكثر الوزراء في العصر «حكى أن المأمون كتب في اختيار وزير: إني التمست لأموري رجلا جامعاً لخصال الخير ، ذا علة في خلائقه ، واستقامة في طرائقه ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قُلّد مهمات الأمور نهض فيها . يسكته الحلم ، وينطقه العلم . وتكفيه اللحظة وتُغْنيه اللمحة . له صَوْلة الأمراء ، وأناة الحكماء ،

---

(١) النجوم الزاهرة (٢/ ٢٠٦) .

(٢) مقدمة ابن خلدون ١٩٩ .

وتواضع العلماء، وفهْم الفقهاء. إن أُحْسِن إليه شَكرَ، وإن ابتلي بالإساءة صبر. لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترقُّ قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه[١]. وتاريخ الوزراء، يدلنّا على أن أكثر من اختير للوزارة لوحظ في اختيارهم الكفاية العلمية والبلاغة، فأبو سلمة الخلال كان فصيحاً عالماً بالأخبار والأشعار والسير والجدل، والبرامكة كانوا ذوى مشاركة في كثير من العلوم والآداب. والفضل بن سهل كان يسمى ذا الرياستين لجمعه بين السيف ورياسة القلم. .إلخ.

هؤلاء الوزراء كان لهم أعوان يسمون الكُتّاب، فقد كان لكل وزير كاتب، بل كتّاب يعِينونه. ولولاة الأقاليم ورجال الدولة كتّاب. فكان حماد عجرد مثلا كاتباً ليحيى بن محمد بن صُول بالموصل، وكان ابن المقفع يكتب لداود ابن عمر بن هُبَيْرَةَ والي كِرْمان[٢]، وكانَ عْمرو بن مَسْعدة يكتب للمأمون، وكان الحسن بن عيسى يكتب لعمرو بن مسعدة، وكان يكتب ليحيى بن خالد البرمكي عبد الله بن سوار بن ميمون... وهكذا.

وكانت هذه الطائفة – طائفة الكتاب – تؤلف وحدة على رأسها الوزير، بل وتتدرج في الرقي إلى الوزارة، معتمدة على كفايتها وبلاغتها. فقد وقَّع عمرو بن مسعدة على ورَقة رُفعت إلى جعفر بن يحيى، فأعْجِبَ جعفر بتوقيع عمرو، فضرب يحيى على ظهر عمرو وقال: «أي وزير في جلدك»[٣]. وكان بين أفراد هذه الكتلة صلات ولو لم يتعارفوا «حضر ديوانَ الخراج في أيام

---

(١) الأحكام السلطانية (٢١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر: مقالة الأستاذ كرد على هذا الموضوع في مجلة المجمع العلمي (البلاغة سبيل الوزارة) (٥، ٦ سنة ٢٧).

الرشيد شيخ من قدماء الكتاب، ومعه توقيع من الرشيد بقضاء دين عليه، فُعِنى الكتَّاب به، وزجَّوْا كتابه، فقال لهم: احفظوا عنى ثلاثا: الجوارُ نسب، والمودّة نسب، والصناعة نسب»[١]. وقبل ذلك كانت نصيحة عبد الحميد الكاتب لمعشر الكتاب، دليلا على أنهم كانوا يؤلّفون وحدة في آخر عهد الدولة الأموية.

كان أكثر هؤلاء الكتاب فرساً كالوزراء، يحتذون حَذو أجدادهم من الفرس - حتى في مظاهرهم الخارجية - يروى الجهشيارى: «أن الفضل بن سهل بن زاذا نفروخ - ذا الرياستين - كان يجلس على كرسي مُجنح، ويُحْمَل فيه إذا أراد الدخول إلى المأمون فلا يزال يُحمل حتى تقع عين المأمون عليه، فإذا وقعت وُضع الكرسي ونَزَل عنه فمشى، وحُمِل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون، ثم يُسَلِّم ذو الرياستين ويعودُ فيقعد عليه . . . وإنما ذهب ذو الرياستين في ذلك إلى مذهب الأكاسرة، فإن وزيراً من وزرائها كان يحمل في مثل ذلك الكرسي، ويقعد بين أيديها عليه، ويتولى حمله اثنا عشر رجلا من أولاد الملوك»[٢].

بل إن تَكوُّن الكتاب كطبقة، ليس إلا تقليداً للنظام الفارسي، فالجهشياري يقول: «كان من رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة ممن في خدمتهم لِبْسة لا يلبسها أحد ممن في غير تلك الطبقة، فإذا وصل الرجلُ إلى الملك عَرفَ بلبسته صناعتَه، والطبقةَ التي هو فيها، فكان الكتَّاب في الحضر يلبسون لِبستهم المعهودة . . . وكانت ملوك الفرس تسمى كتاب الرسائل تراجمة الملوك»[٣].

---

(١) الجهشياري (٣٤٣).

(٢) الجهشيارى (٤٠١، ٤٠٢).

(٣) المصدر نفسه (٣، ٤).

ثالثاً: في اللغة والأدب

١- الثقافة الفارسية:

نستنبط من دراسة الكتب العربية والفارسية أن بعض المفردات الفارسية قد دخل العربية قبل الإسلام بمئات السنين، لكن يصعب تشخيص هذه المفردات وذلك للتغييرات الكبيرة التي طرأت على الفارسية. وكمثال على صعوبة ذلك التشخيص يضرب بهرام فره وشي أستاذ اللغات القديمة في جامعه طهران مثالاً على ذلك[١] فيقول: إن كلمة «ناهد» التي تعني اليوم بالعربية الفتاة الكاعب، نجدها تعطي المعنى نفسه في كتاب الإيرانيين القدماء أي «الافستا»، فهل يعني هذا أن العرب قد أخذوها عن الفارسية، أم الفرس أخذوها عن العربية؟

وتمتاز المفردات العربية عادة ببعض الخصائص التي يمكن من خلالها تشخيص المفردات الفارسية المعربة إلى حد ما، ومنها[٢]:

في مفردة عربية واحدة:

- لا يأتي حرف الـ (ج) وحرف الـ (ق) معاً.
- لا يأتي حرف الـ (ص) مع حرف الـ (ج).
- لا يأتي حرف الـ (ط) و حرف الـ (ج) إلا إذا كانت المفردة اسماً لشخص أو موضع.
- لا يأتي حرف الـ (ن) بعد حرف الـ (ز).
- لا يأتي حرف الـ (ز) بعد حرف الـ (د) أو الـ (ب) أو الـ (س) أو الـ (ت).
- لا يرد حرفان متشابهان بينهما ألف.

---

(١) فرهنگ واژه هاي فارسي در زبان عربي، شوشتري، (١٢).

(٢) المصدر السابق (٢٢).

مما سبق نفهم أن المفردة العربية إذا وجدت فيها إحدي الخصائص أعلاه، فهي معربة وليست أصيلة.

وأول من وضع كتاباً مستقلاً في المفردات الفارسية التي دخلت العربية هو أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الأهوازي المعروف بالجواليقي، وهو من مفكري القرن السادس الهجري، وقد فرغ من كتابه «المعرب من الكلام الأعجمي» في عام ٥٩٤ هـ، ويحتوي هذا الكتاب على ٧٠٠ مفردة، بعضها سرياني ونبطي وبربري وقبطي وحبشي، إلا أن أكثرها فارسية. وقد استشهد الجواليقي لأغلب هذه الكلمات بالشعر أو الحديث.

وهناك أيضا كتاب «شفاء الغليل» لشيخ الإسلام شهاب الدين أحمد الخفاجي الكوفي الذي كان يعيش في القرن ١١ هـ. . ولا يختلف عن معرب الجواليقي إلا في إضافة بعض المفردات الفارسية العامية التي وردت العربية في العصر العباسي.

والكتاب الثالث هو «الألفاظ الفارسية المعربة» تأليف ادي شير رئيس أساقفة الكنائس الكلدانية. طبع هذا الكتاب في بيروت عام ١٩٨٠م. ورغم أنه يحتوي على مفردات أكثر من الكتابين السالفين لكنه يعاني من أخطاء كثيرة. وللمفكر العربي أحمد تيمور ملاحظات قيمة حول المفردات الفارسية المندمجة باللغة العربية، وقد وردت في سلسلة من المقالات نشرتها مجلة «المجتمع العلمي» بدمشق عام ١٩٣٢م تحت عنوان «الألفاظ العباسية». ولبعض المستشرقين مقالات حول المفردات الفارسية المعربة مثل ما ورد في المستدرك لدوزي.

ونشاهد في كل تلك الكتب والمقالات خللاً واضحاً، فلم تسجل هذه الكتب الثلاثة المذكورة أياً من الاصطلاحات الطبية والصيدلية والمعمارية

والموسيقية المهمة . وكتاب «المعرب» للجواليقي لم يدرج المفردات الأجنبية التي انتقلت إلي العربية في العصر العباسي . وفضلاً عن ذلك فإن عدم تبحّر هؤلاء في اللغة الفارسية قد أوقعهم في أخطاء كثيرة لم تفارق حتى الفيروزآبادي مؤلف «معجم القاموس المحيط» رغم أنه من أصل إيراني .

وظهر في عام ١٩٦٨م معجم بالمفردات المعربة بعنوان: «واژه هاي فارسي در زبان عربي» أي «المفردات الفارسية في العربية» لمحمد علي الشوشتري ، ويعد أوسع معجم ظهر حتى اليوم في هذا المضمار ، ويضم ما يربو على ٢٨٠٠ مفردة . وهناك شك في أن تكون كافة المفردات التي أوردها ذات أصل فارسي لاستناده الضعيف أحيانا أو لعدم إدلائه بدليل أو لاعتماده على الحدس والظن .

وتاريخ علوم العربية والإسلام عرف أعلاما من الإيرانيين . فعلم النحو يدين لسيبويه ، فضلاً عن نحاة ولغويين آخرين من أصل إيراني كالكسائي والسجستاني والسيرافي وابن دستوريه وأبي علي الفارسي والسرخسي والكرماني والرازي وابن خالويه . والقراء السبعة الذين انتهت إليهم الأمة في قراءة القرآن ورجال الطبقة الأولى من القراء الذين تسلسل فيهم السند إلى الأئمة السبعة أكثرهم من أصل فارسي[1] .

لقد لعب الإيرانيون دوراً بارزاً في ازدهار اللغة العربية لاسيما على صعيد الأدب العربي ، حتى إن الشهيد المطهري قد قال: «لم يخدم اللغة العربية أحد كما خدمها الفرس»[2] وهذا نابع من أنهم لم يكونوا ينظرون إلى العربية كلغة أجنبية ، بل يعتبرونها لغة إسلامية أممية تتعلق بجميع المسلمين في العالم .

---

(١) لغتنا والحياة ، بنت الشاطئ ، (٦٥ ، ٦٦) .

(٢) الإسلام وإيران ، (٩٦) .

ورغم حصول نفر من الأدباء الإيرانيين على مناصب مهمة في العصر الأموي كجبلة بن سالم الذي كان كاتباً لدى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد الكاتب الذي أصبح كاتباً عند مروان بن الحكم ، فإن نبوغ الإيرانيين في الإنشاء والشعر وسائر الفنون الأدبية قد تجلى بصورة واضحة في العهد العباسي لنفوذهم إلى كافة المراكز السياسية والإدارية والاجتماعية والعسكرية ، وتقلدهم مناصب عليا كالوزارة والكتابة ، واشتغالهم بالعلم والأدب .

ومنذ أن نفذت العربية إلى إيران مع الإسلام ، نفذ معها الخط العربي أيضا . والخط العربي الذي كان متداولاً في الفترة المزدهرة من الإسلام ، قد أخذه العرب عن قوميتين: عن الأنباط عبر حوران ، وعن السريان عبر الحيرة[1] . والخطان النبطي والسرياني من الخطوط السامية ، وكان من السهل على العرب تقليدهما .

ونشأ عن الخط الأول خط النسخ ، وعن الثاني الخط الكوفي . وكان المتكلمون بالسريانية في العراق يكتبون بعدة أقلام مثل: «السفرنجيلي» وكانت تكتب به أسفار الإنجيل . وقد اقتبس العرب هذا الخط قبل ظهور الإسلام بقرن . ويقال: إنه شاع في المدينة أولاً ثم انتقل منها إلى الحجاز ، حتى إن بعض القرشيين كان يكتب به عند بعثة الرسول ﷺ . وكان يقال له: الحيري والحجازي ثم عرف بالكوفي .

وظل الخطان النسخي والكوفي بين العرب بعد ظهور الإسلام . وكان خط النسخ يستعمل غالباً في كتابة الرسائل ، والكوفي في كتابة المصاحف وتزيين المساجد والمسكوكات .

---

(١) تاريخ أدبيات ، (١٥٤ ، ١٥٥) .

وحتى نهاية العصر الأموي لم تعرف العربية خطوطاً مهمة أخرى . أما في العصر العباسي فقد ظهرت خطوط جديدة بدخول الكتاب الإيرانيين إلى الأجهزة الحكومية ، وظهر خطاطون كبار . فإبراهيم الشجري من كتاب أوائل القرن الثاني قد أوجد قلم الثلثين ، وأخوه يوسف القلم الرئاسي أو قلم التوقيع . أما تلميذه إبراهيم الأحوال فقد اخترع عدة خطوط كالنصف والثلث والمسلسل والرقاع . وكمل الخط العربي على يد تلميذي الأحوال وهما محمد ابن مقلة (توفي ٣٢٨ هـ) وأخوه الحسن بن مقلة (توفي ٣٣٨ هـ) ، وجميع هؤلاء من أصل إيراني .

ومع قلة ما وصل إلينا من الأدب الفارسي ، فالظاهر أنه وصل إلى المسلمين في العصور الأولى الإسلامية كتب كثيرة فارسية ، فكثيراً ما يقول ابن قُتَيبة في كتابه عيون الأخبار: «وفي كتب العجم كذا ، وقرأت في كتاب (أبَرَوِيز) إلى ابنه (شيرويه) وهو في حبسه» وكثيراً ما ينقل صاحب التاج في أخلاق الملوك عن الفرس وآدابهم وكتبهم .

وقد أثر الأدب الفارسي في الأدب العربي من وجوه:

الأول: أن كثيراً ممن دخلوا في الإسلام اضطروا – كما أسلفنا – إلى تعلم العربية ، وسَرعان ما ظهر منهم ومن نسلهم شعراء ، وقد ظهر منهم في الدولة الأموية عدد ليس بالقليل ، ومن أشهرهم (زياد الأعجم) وأصله ومولده ومنشؤه بأصبهان ، ثم انتقل إلى خراسان ولم يزل بها حتى مات[1] ، وكان شاعراً جزل الشعر ، وسمي الأعجم لهذا الذي ذكره في الأغاني: وهو أنه كان يجري على لغة أهل بلاده ، ولم يكن يطاوعه لسانه أن ينطق بالحروف العربية ، فكان

(١) هناك رأي آخر يخالف في كونه أعجمياً ، وانظر: الأقوال في ذلك وترجمته في (٥/ ٩٩) وما بعدها في الأغاني .

يقول: (ما كنت تسنأ) في (ما كنت تصنع) . وإذا كان يقول عن تعلم لا عن سليقة ، فقد كان كثير اللحن في شعره كقوله:

إذا قُلتَ قد أقبَلَتْ أدبَرتْ كَمَنْ لَيسَ غاد ولاَ رائحُ

وكان ينبغي أن يقول غادياً ولا رائحاً[1] .

ومن أشهر هؤلاء الشعراء الفرس أيضاً أسرة ابن يَسار النسائي[2] ، فهي أسرة فارسية شاعرة ، اشتهر منها إسماعيل بن يسار ، ومحمد ، وإبراهيم ، وللثلاثة شعر يغنى به وكلهم ذو نزعة فارسية ، يتعصب للعجم وينقم من العرب .

ومنهم أبو العباس الأعمى ، وأصله من أذربيجان ، وموسى شَهوَات ، وأصله كذلك من أذربيجان ، إلى كثير غيرهم .

هؤلاء وأمثالهم نشأوا نشأة فارسية ، وتأدبوا الأدب الفارسي ، ثم صاغوا أدبهم في القالب العربي فأحكموا التقليد ، فألفاظهم عربية وتراكيبهم عربية وأوزانهم عربية ، ولكن هذا لا يمنع أن بعض المعاني الفارسية والخيال الفارسي والروح الفارسي ، كان يتسرب إلى نفوسهم ثم إلى شعرهم . ولو أنا عثرنا على نماذج من الأدب والشعر الساساني لأمكن بوضوح المقارنة بين الأدبين ، وشرح الاقتباس كيف كان ، ولكن مع فقد الأدب الفارسي ، فإنا نلمح في شعر هؤلاء الذين سمينا معاني جديدة ، ونزعات جديدة ، نذكر لك أمثلة منها ، فقد سجعت حمامة بجانب زياد فقال:

تَغَنِّي أنت في ذِمَّي وَعَهْدِي وَذمة وَالِدي أن لم تُطارِي

---

(١) الشعر والشعراء لأبي قتيبة .

(٢) سمي يسار بالنسائي لأنه كان يصنع طعام العرس ويبيعه ، فيشتريه منه من أراد ذلك ممن لم تبلغ حاله صنع ذلك في بيته ، فنسب للنساء .

وبَيْتَكِ أصْلِحيه وَلا تخافي على صُفرٍ مـزغبَةٍ صغـارِ
فإنك كلما غنيتِ صَـوْتاً ذكرتُ أحِبَّتِي وذكرت داري
فإما يقتلـوك طلبت ثـأراً لَهُ نبـأ لأنـكِ فِي جِـواري

وذكروا أن حبيب بن المهلب لما سمع هذا الشعر قتل حمامته ، فاستعدى زياد علية المهلبَ فحكم له بدية جارية . أفلسَتَ ترى معي أن هـذا الشـعور(1) علـى هذا النحو جديد لم أعرفه للعرب قبلُ؟ ولعـل عليـه مسـحة مانويـة مـن حمايـة الحيوان .

ولإسماعيل قصيدة طويلة لطيفة ، تقرأ فيها روح القصص الفارسي وجودة التسلسل المنطقي ، مطلعها:

كَلَمْتُمُ أَنْتِ الْهمُّ يا كلثم أَنْتُمُـو دائِـي الَّـذِي أكْتُـم
أكاتِمُ النَّاسَ هوى شَفَّنِي وبعْض كتمان الهْوَى أحْزَمُ
قد لُمْتِنِي ظُلماً بلاَ ظنة وأنْـتِ فيمـا بَيْنَنَـا أَلْـوَمُ

وفيها يقول:

لا تَـترُكِيـنِي هكـذا مَيّتاً لا أمْنَحُ الوُدَّ وَلا أصْرَم
أوْفي بما قُلْتِ ولا تَنْدَمي إنَّ الْوَفِيّ القوْل لا يَنْدَمُ

ثم يقول:

أخَافِـتُ الْمشـيَ حـذارَ الْعِدَى والليـلُ داجٍ حـالِك مُظْلِـم
وَدون ما حـاولتُ إذ زُرْتُكُـمْ أخـوكِ والخَـالُ مَعاً والعـمُّ
ولـيـس إلا اللهُ لِي صَاحِـبٌ إليكُـمْ وَالصـارِمُ اللَّـهْذمُ
حتى دخلتُ البيْتَ فاستَذرَفَت مِن شَفَـقٍ عيْنَاك لي تَسْجُمُ

(1) لست أعنى الشعور بحماية الحيوان لأنه في جواره ، إذ يظهر أن هذا كان عند العرب في الجاهليـة ، لكن أعنى تجسيم هذا المعنى حتى يستعدى الوالي بطلب الدية .

ثـم انْجلىَ الْحُـزْنُ وَرَوْعـاتُـه وغيّيبَ الكاشحُ والـمُبْرِمُ

إلى آخر الأبيات[١] . ولإبراهيم أخيه كذلك شعر يعتز فيه العجم ، ويفخر به على العرب .

أضف إلى هذا أن كثيراً من الشعراء والأدباء العرب كانوا ينزلون فارس أو العراق ، ويخالطون أهله ، ويَرَوْن مدنيته فيكون لها الأثر في شاعريتهم ، فكان ينزل العراق الطِرِمّاح والكَميْت وأبو النجم الراجز ، وجرير ، والفرزدق ، وكان ينزل خراسان نَهارُ بْن تَوْسِعَةَ وثابِتُ قُطْنَة وابنُ مُفَرغ الحمْيَرِي والمغِيرة بنُ حبْناءَ وغيرهم ، ولا يخفى ما للبيئة من تأثير في النفس والخيال .

الثاني: من وجوه تأثير الأدب الفارسي: الناحية اللغوية ، فقد علمت أن العرب في جاهليتها كانت غنية في شئون الحياة البدوية وما يتصل بها ، فلما فتحوا فارس وكثيراً من بلاد الروم رأوا أدوات الزينة والترف ما لم يكونوا قد رأوا ، ورأوا من الحرف الدقيقة والفنون الجميلة ما لم يعهدوه ، كما رأوا من تنظيم الحكومة وتدوين الدواوين ما لم يكن يخطر لهم على بال ، فاضطروا أن يقتبسوا من الأمم المفتوحة ألفاظا يدخلونها في لغتهم ، وكانت اللغة الفارسية أقرب منبع يستمدون منه ما يحتاجون إليه ، فأخذوا منهم الكوز والجرة والإبريق والطَّستْ والخِوان والطبق والقصعة والخز والديباج والسُنْدس والياقوت والفيروز والبلور والكعك والفالوذج واللوزينج والفلفل والزنجبيل والقرفة والنرجس والنسرين والسوسن والعنبر والكافور والصندل والقرنفل والبستان والأرجوان والقرمز والسراويل والإستبرق والتنور والجوز واللوز والدولاب والميزان والزئبق والباشق والجاموس والطيلسان والمغنطيس والمارستان والصك وصنجة الميزان والصولجان والكوسج ونوافج المسك

(١) تجد هذه القصيدة في الأغاني (٤/ ١٢١ ، ١٣٢) .

والفرسخ والبند - وهو العَلَم الكبير - والزمرد والآجر والجوهر والسكر والطنبور(١) . . . .الخ .

ونظرة عامة إلى هذه الأسماء تريك أن العرب اضطروا إلى أخذ كلمات فارسية في كل مرفق من مرافق الحياة ، ولا بد أن يكونوا قد أخذوا منهم تراكيب للجُمَل جديدة ومعاني جديدة وخيالا جديداً ، ولكن من العسير تعيين ما أخذوه من هذا النوع بالدقة ؛ لأن المعاني والخيال وما إليهما مما يُسْرَقُ وقل أن يضبط . ولم تسجل أمة معانيها وخيالاتها كما تسجل ألفاظها .

الثالث: الحِكَم . كان للفرس أثر كبير في الأخلاق الإسلامية والآداب من ناحية حكمتهم ، ذلك أن الأخلاق الإسلامية تأثرت بثلاثة مؤثرات:

أولها: التعاليم الدينية كالتي وردت في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٢) ، ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٣) ، ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾(٤) إلى كثير من أمثال ذلك ، وكالتي وردت في الأحاديث: «**أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً**» ، وكما روى من تعاليم الدينات السابقة كالتوراة والإنجيل وأمثال سليمان ونحو ذلك .

ثانيها: فلسفة اليونان ، وذلك بما نقل منها في العصر العباسي ، من الأمثلة على ذلك ما نقرؤه في كتاب ابن مسكويه من شرح نظرية أرسطو في أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين ، ومن نظرية أفلاطون في أسس الفضائل الأربعة ، وهي: الحكمة والعفة والشجاعة والعدل ، ونحو ذلك .

---

(١) انظر: فقه اللغة للثعالبي ، والمزهر للسيوطي ، والمخصص في الطعوم وآلات الغناء .
(٢) التوبة: ١٠٩ .
(٣) المائدة: ٨ .
(٤) البقرة: ٢٧٩ .

ثالثها: وهو الذي يهمنا هنا – نوع من الحِكم والجمل القصيرة تصاغ صوغ الأمثال ، أو حكايات تنقل فيها أخبار الملوك ووزرائهم ووعاظهم الحكماء في زمنهم ، وما جرى على ألسنتهم ، وهذا النوع غمر كتب الأدب ، وتأثرت به الأخلاق في الإسلام أكثر من تأثرها بالفلسفة اليونانية ، ذلك لأنه أقرب إلى العقل العربي ، فقد أَبَنْتُ لك قَبْلُ أن العقل العربي لا يميل كثيراً إلى البحث المنظم المفصل ، ويفضل أن تركز تجارب السنين الطويلة في الكلمات القصيرة ، وتؤلف من ذلك جمل ، كل جملة في معنى خاص ؛ فكلمة في الشجاعة ، وكلمة في الكرم ، وثالثة في الوفاء ، فأما أن تذكر الشجاعة وتفصل وينظر إليها من جميع نواحيها وفي الأسباب الباعثة عليها ونحو ذلك ، فهذا بعيد عن الذوق العربي والعقل العربي ، وهو بالعقل اليوناني أشبه .

ومن أجل هذا لما عثر العربي على هذا النوع من الحكم أعجب به ونقله وأضافه إلى ما كان في الجاهلية ، وكان للفرس في ذلك الشيء الكثير ، إما مبتكر من عند أنفسهم ، أو منقول من الهند عن طريقهم ؛ وأوضح مثل لذلك الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع الفارسي . هذا في العصر العباسي ، وقبله في العصر الأموي كانت هذه الحكم تنقل ويتداولها العلماء ويتأدب بها الناس ، كما ترى في كثير من كلمات الحسن البصري الفارسي ، وتجد كثيراً منها في كتاب (عيون الأخبار) لابن قتيبة . و(سراج الملوك) للطرطوشي ، و(التاج) و(العِقد الفريد) .

ومما يلاحظ أن الذوق العربي في هذا النوع من الحكم يشبه مشابهة تامة الذوق الفارسي ، فالحِكَمُ التي تنسب لأكثم بن صيفي في الجاهلية والإمام علي في الإسلام ، والتي تنسب لسادات العرب كالأحنف بن قيس ، وروح بن زنباع ، تشبه في قوالبها وصيغها واتجاه النظر فيها ما يروى في كتب الأدب عن

بُزُرْ جُمْهُر، وإبْرويز، وموبَذ موبذان ونحوهم، حتى لقد عقد ابن عبد ربه فصلاً في كتابه (العقد الفريد) تحت عنوان: (أمثال أكثم بن صيفي وبزر جمهر)، ولم يبين ما لكل منهما، فكان من الصعب التمييز في أكثرها بين ما هو لأكثم وما هو لبزر جمهر[1].

الرابع: هناك أمر آخر فارسي، كان له أثر كبير في حياة الأدب العربي، ذلك هو الغناء، فالظاهر أن العرب أخذوا كثيراً من النغمات الفارسية، ووقعوا عليها شعرهم العربي.

ترى من هذا كيف كان للفرس أثر كبير في النغمات العربية وفي التوقيع، وليس هذا يهمنا كثيراً الآن؛ لأنه ألصق بالفن، ولكن الذي يهمنا فرق هذا أن العرب نقلوا أيضا عن الفرس صورة مجالس الغناء والاجتماع لسماعه.

الخامس: يظهر لنا أنه في أواخر عهد الدولة الأموية حوَّل الفرس الكتابة العربية إلى نمط آخر لم يكن يعرفه العرب، وهو نوع الكتابة التي اشتهر بها عبد الحميد الكاتب ومدرسته، فقد كان عبد الحميد كاتب مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية، ويقول صاحب العقد: «إنه كتب لعبد الملك بن مروان وليزيد، ثم لم يزل كاتباً لخلفاء بنى أمية حتى انقضت دولتهم». ويقول ابن خَلكان: «إنه كان في الكتابة وفي كل فن من العلم والأدب إماماً... وعنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا، ولآثاره اقتفوا وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب، فاستعمل الناس ذلك بعده»[2]. وقال الشريشي في شرح المقامات: «إنه أول من فتق أكمام البلاغة وأسهل طرقها، وفك رقاب

---

(١) العقد الفريد (١/ ٣٣١).

(٢) ابن خلكان (١/ ٤٣٥).

الشعر» ووصيته للكتاب – إن صحت – تدلنا على أنه كان الآخذ بذمامهم والراسم لهم طريقهم .

ودليلنا على أن منحاه في الكتابة ذو صبغة فارسية ما حكاه ابن خلكان من «أن عبد الحميد من الموالى وأصله من الأنبار[١]» ، وحكى أيضاً: «أنه أخذ الكتاب عن سالم مولى هشام بن عبد الملك» . وأصرح من هذا في الدلالة ما حكاه أبو هلال العسكري في كتابة (ديوان المعاني) قال: «فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى ، وكان عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي ، فحولها إلى اللسان العربي ؛ ويدلك على هذا أيضا أن تراجم خطب الفرس ورسائلهم هي على نمط خطب العرب ورسائلها ، وللفرس أمثال مثل أمثال العرب معنى وصنعة ، وربما كان اللفظ الفارسي في بعضها أفصح من اللفظ العربي»[٢] . ثم ذكر أمثالاً بنصها الفارسي وما يقابلها في اللغة العربية وفاضل بينها .

فلعلك تقر معي في هذا أن الأدب الفارسي صبغ الأدب العربي صبغة جديدة ، وربما كان أدق من ذلك أن تقول إنهما (تفاعلا) .

هذا مختصر النواحي التي كان لها أثر للفرس في حياة العرب الأدبية .

ذكر ابن قتيبة في مقدمة (أدب الكاتب): «أنه رأى طائفة من الكتاب قد شُغِفت بالنظر في النجوم والمنطق والفلسفة ، وعَرَفت الكون والفساد . وسمع الكيان والكيفية والكمية ، والجوهر والعرض ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا

---

(١) الأنبار: مدينة على الشاطئ الأيسر للفرات في الشمال الشرقي من العراق .
(٢) من نسخة خطية بدار الكتب .

تنقسم . . . إلخ » . وأهملوا النظر في اللغة وما إليها ، فوضع لهم كتابه في ذلك ، فهو خاص بما يلزم الكاتب من لغة ونحو وصرف وإملاء . . وألّف بعده أبو بكر الصُولي كتابه (أدب الكتاب) وتوسع في مسائل لم يتعرض لها ابن قتيبة ، فتكلم في حسن الخط وقبحه ، والدواة والقلم وما إليهما ، وترتيب الكتاب وطيّه ، والدعاء في المكاتبات – والدواوين وتحويلها إلى العربية ، ووجوه الأموال التي تحمل إلى بيت المال ، وشيء من قواعد الإملاء . وألف ابن درسْتويه المتوفى سنة ٣٤٦ كتاب (الكُتّاب) وأكثره في قواعد الإملاء ، وفي آخره باب في افتتاح الكتاب ، وفي التأريخ ، وما يذكّر منه وما يؤنّث ، وما يفرد ويجمع ثم في بَرْى القلم وسنّه وقطّه ، والدواة وما إليها . . . إلخ .

وتوسع من جاء بعدهم حتى ختمت بكتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) فتعرّض فيه – تقريبا – لكل المعلومات البشرية في عصره ، من تاريخ وجغرافيا وفلك ، وما يحتاج إليه الكاتب عملياً في صناعته من خط ونحوه ، ومصطلح المكاتبات ، وكيفية العقود ، والبريد ، ومطارات حمام الرسائل ، والمنارات . . . إلخ .

فترى من هذا كيف كان المؤلفون يعنون بهذه الطبقة من الناس ، وكيف كانوا يتطلّبون منهم المعارفَ الواسعة في الموضوعات المختلفة ، وأن هذه الطبقة كانت تمتاز عن بقية العلماء بالثقافة العامة .

بل جعلوه يشمل شيئا من الألعاب ، قال الحسن بن سهل ، وهو أحد الوزراء والكتاب في العصر العباسي: «الآداب عشرة: فثلاثة شَهْرَجانية وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن . فأما الشهرجانية فضربُ العود ، ولعب الشّطْرَنج ، ولعب الصَّوالج . وأما النوشروانية فالطب ، والهندسة ، والفروسية ، وأما العربية فالشعر ، والنسب ، وأيام الناس . وأما

الواحدة التي أربت عليهن فمقطّعات الحديث، والسمر، وما يتلقاه الناس في المجالس»[١] .

ثم جاءت الكتب الأخرى بعدها تحذو حذوها، وتفرّق مجتمعاً، وتجمع متفرقاً، وتزيد ما استحدث من الطرق الأدبية .

هؤلاء الوزراء والكتاب نشروا الثقافة العامة، وضّموا إلى الآداب العربية الآدابَ الفارسية، فأصبح مما يتطلبه الأدب؛ أن تَعرِف حكَمَ بزر جمهر كما تعرف حكم أكثم بن صيفي، وتعرف تاريخ الفرس كما تعرف تاريخ العرب، وتعرف أقوال كسرى وسابور وأبرويز وموبذموبذان كما تعرف من أقوال الخلفاء الراشدين والأمويين، فقد جاء في نصيحة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب: «فنافِسوا معشرَ الكتّاب في صُنوف العلم والأدب، وتفقّهوا في الدين، وابدؤوا بعِلمِ كتاب الله - عز وجل - والفرائض، ثم العربية فإنّها ثِقَافُ ألسنتكم، وأجيدوا الخطّ فإنه حِلْية كتبكم، وارْوُوا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب، والعجم وأحاديثها وسيرَها؛ فإن ذلك مُعينٌ لكم على ما تسمون إليه بهممكم، ولا يَضْعُفَنَّ نظرُكم في الحساب فإنه قَوَامُ كتاب الخراج منكم» . وقال الرشيد للكسائي مُعلم أولاده: «يا عليّ بن حمزة، قد أحللناك المحل الذي لم تكن تبلغه همتك، فروّنا من الأشعار أعَفّها، ومن الأحاديث أجمَعها لمحاسن الأخلاق . وذاكِرْنا بآداب الفرس والهند، ولا تسرع علينا الرد في ملأ، ولا تترك تثقيفاً في خلاء»[٢] .

وكان الانتقال من الشام إلى العراق له أثر كبير – من الناحية العقلية – فقد كان يسكن العراق أمم مختلفة . وتداولت عليه دول خلّفت فيه مدينتها

---

(١) زهر الآداب (١/ ١٤٢) .

(٢) ابن أبي الحديد (٤/ ١٣٧) .

وثقافتها ، وكان يسكنه قُبيل الفتح الإسلامي بقايا من الأمم القديمة مثل الكِلْدان والسريان وهم الذين يلَّقبون بالآراميين ، وكان يسكنه العرب من إياد وربيعة ، وكان يقيم به المَناذِرة الذين أسّسوا مُلْك الحيرة ، وكانت مَدَنية الفُرس غالبةً عليه ، لأن آخر من حكمه قبل الإسلام هم الساسانيون من الفرس ، وظل في أيديهم زمناً طويلا ، إلى أن استولى عليه المسلمون في أيام عمر ، وكانت فيه (المدائن) عاصمة الساسانيين . كل هذا جعل العراق أكثرَ ما يكون اصطباغاً بالفارسية ، فلما كان العباسيون ، وكان الفرس هم الذين أعانوهم ، كان من هذا وذاك نفوذ للفرس عظيم في المناصب وفي الثقافة .

أثر الثقافة الفارسية في الثقافة الإسلامية:

أولاً : الألفاظ اللغوية: ذلك أن العرب لما تحضّروا بعد البداوة وجدوا أنفسهم أمام أشياء كثيرة ، ليس في ألفاظهم ما يدل عليها ، وكان ذلك في جميع مرافق الحياة ، من أدوات الزينة ، وأنواع المأكل والملبس ، وآلات الغناء ، والدواوين ونظامها ونحو ذلك ، فسلكوا خير طريق يُسلك لذلك . وهو: أن يتوسّعوا في مدلولات الكلمات العربية أحياناً ، ويأخذوا الكلمات الأجنبية كما هي أحياناً ، ومصقولة بما يتفق ولسانهم أحياناً .

وكانت اللغة الفارسية منبعاً كبيراً من المنابع التي تستمد منه اللغة العربية وتوسع به مادتها – حكى الصُّولي قال: «حدثنا عليُّ بن الصبّاح قال: سمعت الحسن بن رجاء يقول: ناظر فارسيٌّ عربياً بين يدي يحيى بن خالد البرمكي فقال الفارسي: ما احتجنا إليكم قط في عمل ولا تسمية ، ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا في أعمالكم ولا لغتكم ، حتى طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ما سمينا ، ما غيرتموه ، كالإسْفيداج والسّكْباج والدُّوغْباج ، وأمثاله كثيرة ، وكالسّكَنْجين والخلنجين والجُلاَّب وأمثاله كثيرة ؛ وكالرُوزْنامَج

والأسْكَدَار والفروانك وإن كان رومياً! – ومثله كثير – فسكت عنه العربي . فقال له يحيي بن خالد: قل له: اصبر لنا نملك كما ملكتم ألف سنة ، بعد ألف سنة كانت قبلها لا نحتاج إليكم ، ولا إلى شيء كان لكم!»[١] .

ويقول الجاحظ: «ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر عَلِقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البطيخ الخِرْبِزَ» . . . وكذا أهل الكوفة فإنهم يسمون المِسْحاة (بال)و (بال) بالفارسية . . . وأهل البصرة إذا التقت أربعة طرق يسمونها مُرَبَّعة ويسميها أهل الكوفة (بالجهارسو) والجِهارْسُو فارسية ويسمون السوق أو السويقة (وازار) والوازار فارسية . ويسمون القثاء خياراً ، والخيار فارسية الخ»[٢] .

من قديم تسربت ألفاظ فارسية إلى اللغة العربية ، وكان بطريق التجارة أو الاختلاط . ولكنّها تعدُّ قليلة إذا قيست بالألفاظ التي دخلت في العصر العباسي للسبب الذي ذكرنا ، وهو أن العرب كانوا أكثر شعوراً بأسباب الحضارة في العصر العباسي ، فكانوا أشدَّ احتياجاً للاقتباس من الفرس ، ولأن اللغة العربية لم تعد ملكا للعرب وحدهم ؛ بل كانت ملكا للعالم الإسلامي جميعه ، والعالم الإسلامي لا يتعصب للغة العربية تعصبَ العرب ، فهو يُفْسح صدرَه للغات الأخرى ما دعا داع إليها .

ثانياً: قد كان للفرس – من قديم – علم وأدب يتناسبان مع ضخامة ملكهم وعظم سلطانهم ، فلما جاءت الدولة العباسية ، وكثير من رعيتها فرس ، لهم

---

(١) أدب الكتاب للصولي (١٩٣) .

(٢) البيان والتبيين (١/ ١٠٧) .

نزعة وطنية ، وميول قومية ، أخذ المثقَّفون ينقلون إلى العربية تراث آبائهم ، وما حفظته العصور إلى عهدهم .

كانت لهم كتب في التنجيم والهندسة والجغرافيا .

ولما نشطت الحركة العلمية في العصر العباسي ، أخذ طائفة ممن يجيدون اللسانين – الفارسي والعربي – ينقلون الكتب من الفارسية إلى العربية ، وقد عقد ابنُ النديم في كتابه الفهرست فصلا لأسماء النقَلة من الفارسي إلى العربي ، ذكر منهم:

(١) عبد الله بن المقفع . (٢) آل نُوبَخْت . (٣) موسى ويوسف ابني خالد . (٤) أبا الحسن على بن زياد التميمي . (٥) الحسن بن سهل . (٦) البلاذُري . (٧) جَبَلة بن سالم . (٨) إسحاق بن يزيد . (٩) محمد بن الجْهم البرمكي . (١٠) هشام بن القاسم . (١١) موسى بن عيسى الكردي . (١٢) زادويه بن شاهويه الأصفهاني . (١٣) محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني . (١٤) بَهْرام ابن مردان شاه . (١٥) عمر بن الفَرُّخان[1] .

وقد ترجم عبد الله بن المقفع (كتاب خداينامه) وهو كتاب في تاريخ الفرس من أول نشأتهم إلى آخر أيامهم ، وقد سماه ابن المقفع (تاريخ ملوك الفرس) والظاهر أن الطبري اعتمد عليه في كتابه تاريخ الأمم والملوك عند كلامه على (الساسانيين) وتَرْجَم كذلك كتاب (آبين نامه) ومعنى الآبين: النُظم والعادات ، والعُرف والشرائع . فالكتاب وصف لنظم الفرس وتقاليدهم وعُرفهم . وقد ذكر المسعودي: أنه كتاب كبير ، يقع في آلاف من الصفحات .

---

(١) ابن النديم (٢٢٤ وما بعدها) .

كذلك ترجم ابن المقفع عن الفارسية (كليلة ودمنة) وكتاب (مزدك) وهو يتضمن سيرة مزدك الزعيم الديني الفارسي المشهور، وكتاب (التاج) في سيرة أنوشروان، وكتاب (الأدب الكبير) و (الأدب الصغير)وكتاب (اليتيمة)[1].

وقد ذكر المسعودي : أن ابن المقفع ترجم كتاباً اسمه كتاب (الكيكين) من الفارسية الأولى إلى العربية – وهذا الكتاب تعظمه الفرس لما قد تضمنه من خبر أسلافهم وسير ملوكهم[2].

٢ - الثقافة الهندية:

لما فتح المسلمون فارسَ والعراق فكّروا في الهند، فيحدثنا البلاذري: «أنه لما ولى عثمانُ بن عفان، وولى عبدَ الله بن عامر بن كرَيْز العراق كتب إليه يأمره أن يُوجّه إلى ثغر الهند من يَعْلَم علمه وينصرف إليه بخبره؛ فوجه حَكيمَ بن جَبَلَةَ العَبْدِيّ، فلما رجع أوفده إلى عثمان فسأله عن حال البلاد فقال: يا أمير المؤمنين، قد عرفتها وتنحَّرْتها. قال: فصفها لي. قال: ماؤها وشَلُ، وثمرُها دَقَلٌ[3]، ولِصُّها بَطَل. إن قلّ الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا. فقال له عثمان: أخابر أم ساجع؟ قال: بل خابر، فلم يُغْزِها أحداً»[4]. وتتابع المسلمون يغزونها، ويصيبون منها المغانم، حتى وجّه الحجاجُ محمدَ بنَ القاسم الثّقفي إلى الهند في أيام الوليد ففتح جزءاً عظيما منها، وهو المسمي بالسّند سنة ٩١هـ، ففتح دَبْيل و(نيرانكوت) المسماة الآن (بحيدر آباد) وسار إلى (رَاوَر) وأخيراً فتح

---

(١) المصدر نفسه (١١٨).

(٢) مروج الذهب (١/ ١٠٩).

(٣) الوشل: القليل. والدقل: أردأ التمر.

(٤) البلاذري (٤٣٨).

(مُلْتَان) وكان محمد بن القاسم قائدُ الجيوش وفاتح هذه الفتوح فتى شاباً لم يتجاوز العشرين، قال فيه القائل:

إنّ المروءة والسّماحة والنّدى لمحمد بنِ القاسم بن محمدِ
ساسَ الجُيوشَ لِسَبْع عَشرَةَ حِجَّة يا قُرْبَ ذلك سُؤْدُداً من مَوْلِدِ!

وقال فيه آخر:

ساس الرِّجالَ لِسَبْع عَشْرَةَ حِجَّةً وَلِدَاتُهُ عن ذاك في أشغالِ !

وقد غنموا مغانم كثيرة، وسبَوْا سَبْياً كثيراً، انتشر كشأن السبايا في المملكة الإسلامية، وأصبح الجبل السندى عنصراً من العناصر المكوّنة للأمة الإسلامية.

وما أن تم الفتح حتى رأينا الحركة العلمية تتبعه، فكان بعض الفاتحين أنفسهم من العلماء، فالربيع بن صَبيح البصري أشهر المحدثين، وأولهم تدويناً للحديث، كان في الجيش الذي سيَّره المهدي سنة ١٥٩ لغزو الهند وبهامات(١).

وقد ترجم الذهبي لبعض المحدثين في السند في كتابه تذكرة الحفاظ(٢). وهكذا لم يكن الجيش الإسلامي فاتحاً فقط، بل كان - أيضاً - ناشراً للدعوة ومعلما.

ومن ناحية أخرى سَرْعان ما رأينا الموالى الذين جُلِبوا من الهند، وغَنموا في الحرب ووزّعوا على الجند؛ ينبغ منهم ومن أولادهم الشعراء وعلماء اللغة والمحدّثون. فمن الشعراء كان أبو عطاء السّندي، وهو شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وكان أبوه سِنْدِيًا لا يفصِح، ونشأ ابنه في المسلمين شاعراً كبيراً، وإن كان في لسانه لُكْنة شديدة ولُثغة، كان يقول في مرحبا (مرهبا) وفي حياكم الله (هياكم الله) وفي الزُّج (الزُّز) وفي جرادة (زرادة) وفي

---

(١) انظر: ابن الأثير (٣/ ١٧).
(٢) (٢/ ٦٥، ٢٥٦).

الشيطان (سيطان) وفي أظن (أزن) حتى اضطر أن يتخذ غلاما ينشد شعره تحامياً من أن ينشده بلسانه وهو القائل:

أعْوَزَتْني الرُّواةُ يا ابنَ سليم   وأبَى أن يُقيمَ شِعْرِي لِساني

وَغَلاَ بالذي أجَمْجِمُ صَدْرِي   وَجَفاني لِعُجْمَتِي سُلْطاني[1]

وازْدَرَتْني العُيونُ إذْ كان لَوْني   حالِكا مُجْتوي[2] من الألوان

فَضَرَبْتُ الأمورَ ظَهْراً لِبَطْنٍ   كيفَ أحْتالُ حيلةً لِلِساني!

وتمنَّيتُ أنني كنتُ بالشعـ   ـر فصيحاً وبان بعضُ بَنَاني

واشتهر من اللغويين ممن أصله هندي ابن الأعرابي (كان أبوه زياد عبداً سندياً)، وكان ابن الأعرابي عَلَماً من أعلام اللغة والأدب والشعر، أملى على الناس ما يحمل على أجمال، وألّف تأليف كثيرة، وتلمذ له كثيرون من أشهرهم ثَعْلبُ وابن السّكيت. ولم يبق لنا من كتبه إلا كتاب في أسماء البئر وصفاتها[3]، وكتاب في أسماء الخليل وأنسابها[4]. ومن كتبه التي ألفها كتاب الأنواء. ولو وصل إلينا لعلمنا هل تأثر فيها بمعارف الهند أو اقتصر على معارف العرب، على النحو الذي ألَّف فيها غيرُه من علماء العرب.

ومن المحدّثين الهنديين. أبو معشر نَجِيحُ السندي، صاحب المغازي سمع نافعاً ونَفَراً من التابعين، وكان ألكن يقول حدثنا محمد بن (قعب) يريد كعب، إلخ، إلخ.

---

(١) الجمجمة: إخفاء الشيء في الصدر.

(٢) المجتوي: البغيض المكروه.

(٣) نشر في مجلة المقتبس مجلد ٦ جزء ١.

(٤) في دار الكتب المصرية من كتب الشنقيطي.

هذا نوع يمثّل لنا انْدِماجَ الهنود في المسلمين ، واعتناقهم الإسلام وتعلّمهم علماً إسلامياً عربياً ، ونبوغ بعضهم فيه . وقد رأينا قبل فيما نقلنا عن الجاحظ ؛ اشتهار السنديين بحسن القيام على المال وتدبيره حتى «لا ترى بالبصرة صيرفياً إلا وصاحب كيسه سندى» .

وأثر الهنودُ في الثقافة الإسلامية من ناحيتين - **ناحية مباشرة** - وذلك باتصال المسلمين أنفسهم بالهند عن طريق التجارة ، وعن طريق الفتح العربي . فإن هذا الفتح صيّر ما فتح من بلاد السند جزءاً من المملكة الإسلامية تخضع لنظامها ، وتجرى عليها أحكامها ، وينتقل المسلمون إليها ، وينتقل الهنود إلى أنحاء العالم الإسلامي المختلفة . وكل من هؤلاء وهؤلاء يحملون ثقافتهم ويتبادلونها بعضهم مع بعض تبادل السّلَع .

وناحية غير مباشرة: وذلك نقل ثقافتهم بواسطة الفرس ، فإن الفرس اتصلوا بالهنود اتصالا وثيقاً قبل الفتح الإسلامي ، وأثروا فيهم وتأثروا بهم . وأخذوا كثيراً من الثقافة الهندية ، وأدمجوها في ثقافتهم ، فلما نقلت الثقافة الفارسية إلى العربية ، كان معنى هذا نقل جزء من الثقافة الهندية في ثناياها .

وقد عَدَّ المسلمون الهنودَ إحدى الأمم الأربع ذات الصفات الممتازة ، وهي: الفرس والهند والروم والصين . وقال الجاحظ فيهم: «اشتهر الهند بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطب ، والخرْط والنّجْر والتصاوير ، والصناعات الكثيرة العجيبة»[١] .

---

(١) رسائل الجاحظ (٧٣) .

المبحث الثاني

أثر الاختلاط بالنصارى على شخصية الأمة (١)

كان للنصرانية ثقافة دينية أهمها الإنجيل، وما أحاط به من شروح، وما زاد عليه من قصص وأخبار، وقد تسرَّب ذلك كله إلى المسلمين من طرق: أهمها نصارى العرب، وقد كانت النصرانية انتشرت بين بعض قبائلهم، ولاسيما قبيلة تغلِب ونجران. وكذلك عن طريق مَن أسْلَمَ من النصارى.

ونلمس هذا الأثر في كثير من النواحي، فأول ذلك تفسير القرآن؛ ذلك أن القرآن الكريم اشتمل على مواضع وردت في الإنجيل، كقصة عيسى ومريم ومعجزات عيسى - عليه السلام، وأسلوب القرآن - كما ذكرنا - أسلوب موجز، يقتصر على موضع العظة. فجاء المفسرون ينقلون عن مُسلمة اليهود والنصارى شروحاً لهذه الآيات - إن شئت فاقرأ تفسير سورة مريم في الطبري تجده ينقل شروحاً كثيرة من الإنجيل وتفسيراته، وما وضع حوله، ينقل ذلك عن وهب بن منبه وعن أسباط وعن ابن جريج وعن زكريا بن يحيى بن زائدة. وانظر كذلك تفسيره لقوله تعالى - في سورة آل عمران - في تعداد معجزات عيسى - عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٢) الآية، فيأتي ابن جريج فيفسر الطير بالخُفاش، ويروى الطبري عن ابن حُمَيد عن سلمة عن ابن إسحاق قصة في كيفية ذلك إلى آخره(٣). وتضخم ذلك بعدُ حتى رأينا القِصص

---

(١) انظر: ضحى الإسلام للأستاذ: أحمد أمين.

(٢) آل عمران: ٤٩.

(٣) انظر ذلك في الطبري (٣/ ١٩٠).

الطويلة عن زكريا ويحيى بن زكريا ومريم وعيسى - عليهم السلام - والحواريين وحديث المائدة في كتاب قصص الأنبياء للثعلبي[١] وأمثاله .

كذلك أدخل مُسلمة النصارى أقوالاً من الإنجيل دُسَّت على أنها أحاديث لرسول الله ﷺ .

وقد مثل الأستاذ جولدزيهر لِما دخل عن النصرانية في الحديث بحديث: «**ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شِماله ما تنفق يمينه**»[٢] ، وحديث قال لنا رسول الله ﷺ : «**إنكم سترون بعدى أثَرَةً ، وأموراً تنكرونها**» قالوا فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «**أدُّوا إليهم حقهم ، وسلوا الله حقكم**»[٣] فقد أخذ مما ورد في إنجيل متى «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» وكذلك الإمعان في تفضيل الفقراء على الأغنياء ، فإن هذا نظر نصراني ، وقد ورد في الحديث «**يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام**»[٤] .

ومثل حديث «**كونوا بلهاً كالحمام**» فقد ورد مثله في إنجيل متى «ها أنا أرسلكم في وسط ذئاب ، فكونوا حكماء كالحيات وبُسَطاء كالحمام» وكذلك حديث أبى داود عن أبى الدرداء ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من اشتكى منكم شيئاً أو اشتكاه أخ له فليقل: ربنا الله الذي في السماء تقدس اسُمك ، أمرك في السماء والأرض ، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض ، اغفر لنا حُوبَنا وخطايانا أنت ربُّ الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك ، وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرؤ**» فإنه دعاء نصراني مشهور .

---

(١) توفى الثعلبي سنة ٤٢٧هـ .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٣) ، ومسلم (١٠٣١) عن أبى هريرة ﷺ .

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٥٢) .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٥٣) ، وقال الترمذي والألباني: «حسن صحيح» .

ونحن مع موافقتنا للأستاذ جولدزيهير في أن بعض الأقوال النصرانية دخلت في الحديث، ونسبت إلى رسول الله ﷺ - لا نوافقه على كل ما قال، ولا على نسبة كل الأحاديث التي ذكرها إلى النصرانية، فمثلا نظرة تبجيل الفقر وتعظيمه ليست نصرانية بحتة، فكل الديانات الإلهية - من يهودية ونصرانية وإسلام - ترى هذه النظرة، وطبيعي لها أن تراه، فمن أركان الأديان اتخاذ المقياس العملَ الصالح لا المال، وهي تهاجم ما أَلِف الناس من تقديرهم الإنسان بغناه، فالدين يرى أن العمل الصالح له قيمته الذاتية سواء أتى من غنى أو فقير، بل طبيعي أن يكون بعض الأعمال من الفقير أفضلَ كالأعمال الخيرية المالية، إذ تضحية الفقير أعظم، فَعَدْلٌ أن يكون ثوابها أعظم، ومحمد رسول الله عَفَّ عن الغنى ولم يشأ أن يكون غنياً، وكان في إمكانه أن يكونه. ووردت في القرآن نفسِه آيات تمجّد الفقراء الصالحين: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾[1]، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]، فاتحاد الإسلام والنصرانية في مدح الفقر لا يدل على أخذ الإسلام ذلك من النصرانية، قالوا: إن العربي كان يفضل الغِنى على الفقر، فقد قال عُرْوَةُ بنُ الوَرْدِ:

دَعِينِي لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الفَقِير

ولكن، قد قال عربي غيره وهو قَيْسُ بْنُ الحَطِيم:

غَنِيُّ النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ غَنِيٌّ وَفَقْرُ النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ شَقَاء

وليس في هذا ولا ذاك دليل على قولهم، فكلامنا في الإسلام، والإسلام حكمه ما بينَّا ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

---

(١) الحشر: ٨.

(٢) البقرة: ٢٧٣.

يَرَهُۥ﴾[١] ، ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[٢] ، ولكن – من غير شك – رويت في النصرانية واليهودية أخبار كثيرة ، وقصص عن الفقراء وفضلهم ، أدخلها المسلمون في كتبهم ؛ كالذي روي في الإحياء «أن المسيح ﷺ مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة ، فأيقظه وقال: يا نائم قم فاذكر الله تعالى ، فقال: ما تريد مني؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها . فقال له فنم إذاً» ومر موسى – عليه السلام – برجل نائم على التراب وتحت رأسه لَبِنة ، ووجهه ولحيته في التراب وهو متزر بعباءة ، فقال: «يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع! فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كلّه زوَيْت عنه الدنيا كلها» ، وقال المسيح ﷺ : «بشدةٍ يدخل الغنى الجنة» ، وقال موسى – عليه السلام: «يا رب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟ فقال: كل فقير فقير»[٣] إلخ .

ويظهر لنا أن هذه الأخبار وأمثالها لوَّنت حياة المسلمين بلون خاص ؛ فقد كان الإسلام في أصله يدعو إلى العمل في الحياة ، ولا يحب الرهبانية . ويقدر العمل ممن عمل ، غنياً كان أو فقيراً . ثم رأينا الأخبار التي وردت بعُد من مثل ما حكي في الإحياء تحث على نزعة جديدة ، هي الهرب من الغنى ، وحب العبادة ، وإن تَرَكَ صاحبها العمل في الدنيا . وهي نزعة أشبه ما تكون بالرهبانية لم نعرفها كثيراً في الأيام الأولى من تاريخ الإسلام .

روي أن رفقة من الأشعريين كانوا في سفَر ، فلما قدموا قالوا: ما رأينا يا رسول الله بعدك أفضل من فلان كان يصوم النهار ، فإذا نزلنا قام من الليل

(١) الزلزلة: ٧ ، ٨ .

(٢) المسد: ٢ .

(٣) الإحياء (٤/ ١٥٢ وما بعدها) .

حتى نرتحل . قال: «**فمن كان يَمهن له ويكفله؟**» قالوا: كلنا ، قال: «**كلُّكم أفضل منه**»[١] .

وفي التاريخ عُنِيَ مؤرخو المسلمين بتاريخ النصارى ، وكان من أولهم في ذلك اليعقوبي ، فقد ذكر في تاريخه مقتبسات من الإنجيل . وفي تاريخ الطبري طرَف من تاريخ النصارى ؛ ففيه خبر طائفة من الحواريين وخبر جرجيس وهو – كما يقول الطبري – عبد صالح من أهل فِلَسطين ، أدرك بقايا من حواريّي عيسى وأطال في قصته . وفيه خبر أصحاب الكهف . . . إلخ . وكذلك فعل المسعودي . وقد خلطوا فيما كتبوه بين الأخبار الصحيحة والأقاصيص المتداولة على الألسنة ، كما فعلوا فيما نقلوا من تاريخ اليهود .

وغير هذا الذي ذكرنا كانت المناقشات الدينية بين المسلمين والنصارى ، فقد فتح المسلمون البلاد كالشام والعراق ، وكانت مملوءة بالنصارى ، فلما هدأت الحرب بالسيف بدأت الخصومة باللسان ، كان المسلمون يدعون إلى الإسلام ، فيضطرهم ذلك إلى ذكر الحجج والبراهين على صحة هذا الدين . فكان رؤساء النصرانية يقابلون الحجج بحجج ، فنشأ من هذا جدل كثير ، وكثر ذلك في الدولة الأموية . وكان أكثر ما يكون في الشام ؛ إذ دمشق عاصمة الخلافة ، وفي الشام كثير من النصارى ؛ لأنها كانت في يد الرومان النصارى .

ولأن قصور الخلفاء الأمويين في دمشق كان فيها نصارى ، يتولون مناصب كبيرة – من ذلك ما حكى لنا عن يحيى الدمشقي ، فقد كان نصرانياً شديد التمسك بنصرانيته ، وعمل هو وأبوه في قصر عبد الملك بن مروان ، وألف يحيى كتاباً للنصارى يدفع به دعوة المسلمين ، من أمثال ما جاء فيه: «إذا قال

---

(١) أورده ابن قتيبة في عيون الأخبار (١/ ٢٦) طبعة مطبعة دار الكتب المصرية .

لك العربي: ما تقول في المسيح؟ فقل له: إنه كلمة الله، ثم ليسأل النصراني المسلمَ: بم سمي المسيح في القرآن، وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم، فإنه سيضطر إلى أن يقول: «كلمة الله ألقاها إلى مريم ورُوح منه» فإن أجاب بذلك فاسأله؛ هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة؟ فإن قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله إذن كان ولم تكن له كلمة ولا روح، قال يحيى: فإن قلت ذلك فسُتفحم العربي، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين. والمسلمون ردوا على هذا الاعتراض بأن المراد بالكلمة أنه وجد بكلمة الله وأمره، من غير واسطة كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، وأما الروح فتستعمل بمعنى الرحمة، كقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[2] وأن عيسى لما لم يتكون من نطفة الأب، وإنما تكون من نفخة المَلك وُصف بأنه روح، وقد سمي الله جبريل رُوحا، ولم يقل أحد فيه ما قالوا في عيسى، وقال الله في آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[3] كما قال في عيسى، وسمي القرآن روحا فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[4]، إلخ. قالوا وحينئذ لا يَرد اعتراض يحيى الدمشقي لأنه اعتراض وارد على فهم ظاهر لفظ (كلمة) و(روح). على كل حال كان هناك جدال بين المسلمين والنصارى، وكان ذلك يضطر كلا منهم لقراءة كتب الآخر، يستعين بها على تأليف حججه.

وفي الفِرق الإسلامية نجد ظلا للتعاليم النصرانية، فقد تجادلت الكنائس النصرانية مثلا في خلود العذاب، وذهب آباء الكنيسة اليونانية إلى إنكار أبدية

---

(١) آل عمران: ٥٩.

(٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) الحجر: ٢٩.

(٤) الشورى: ٥٢.

عذاب النار[١]. فرأينا جَهْمَ بن صفْوان يقول: إن الجنة والنار يفنيان ويفنى أهلهما[٢].

ويذهب الأستاذ فون كريمر «إلى أن فرقة المعتزلة نشأت من النصرانية ؛ لأن آباء الكنائس كانوا يتجادلون في حرية الإرادة ، وأن الإنسان مجبور أو مختار . وبعبارة أخرى في مسألة القدر ، كما كانوا يتجادلون في صفات الله . وقد تسربت هذه العقائد إلى المعتزلة من طريق النصارى – بعد فتح المسلمين للشام . ومن أشهر من احتك بالمسلمين في ذلك العصر الأموي يحيي الدمشقي وثيودور ابوكارا Abucara ، وقد تكلم يحيى في أن الله مصدر الخير ، وقال: إن الخير يصدر من الله كما يصدر الضوء من الشمس ، فتكلم المعتزلة الأولون في القدر وفي صفات الله أخذاً عن النصارى .

ولكني لا أرى هذا الرأي ، بل أرى أن مسألة القدر صدرت عن المسلمين أنفسهم ، وكان سبب ذلك أن القرآن الكريم وردت فيه آيات ظاهرها الجبر مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٣] ، ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾[٤] ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[٥] ، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[٦] ، وبجانب هذا آيات

---

(١) فون كريمر .
(٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم (٤/ ٨٣) .
(٣) هود: ٣٤ .
(٤) الزمر: ١٩ .
(٥) النحل: ٣٦ .
(٦) الأنفال: ١٧ .

ظاهرة الاختيار، وأن الإنسان مسئول عن عمله مثل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(١) ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(٢) ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(٣).

ووردت أحاديث كثيرة تتعرض للقدر، وكان ذلك قبل فتح المسلمين للشام والعراق، مثل ما روي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه**»(٤)، وعن علي قال: «كنا في جنازة ببقيع الغرْقد، فأتانا رسول الله ﷺ وبيده مِخْصرة، فجعل ينكت بها الأرض، ثم قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة**»، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتّكل على كتابنا؟ فقال: «**اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل الشقاء**». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾(٥)، (٦).

وروي أن علياً – لما انصرف من صفين – قام إليه شيخ، فقال: أخبرنا عن سيرنا إلى الشام أكان بقضاء وقدر؟» إلخ، إلى كثير من أمثال ذلك.

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) الكهف: ٢٩.

(٣) النساء: ١١٠، ١١١.

(٤) أخرجه الترمذي (٢١٤٤) وقال: «غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون». وصححه الألباني.

(٥) الليل: ٥- ٧.

(٦) أخرجه أبو داود (٤٦٩٤) والنسائي في الكبرى (١١٦٧٨) وأحمد (١/ ١٣٢) وصححه الألباني.
واقرأ في هذا كتاب شفاء الغليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم.

فترى من هذا أن فكرة القضاء والقدَر كانت عند المسلمين قديما ، ويظهر أنها فكرة تحدث حول كل دين تقريباً ، فقد كانت في اليهودية والنصرانية والمجوسية ، لما ظهرت في الإسلام ، وكان شأنها شأن الديانات الأخرى عُدَّت نصرانية الأصل؟ بل تاريخ المعتزلة يدلنا على أن جدالهم مع مجوس الفرس كان أكثر من جدالهم مع اليهود والنصارى ، وأن كثيراً من أصول مذهبهم وضع للرد على الفرس لا على النصارى ، وأكبر ردهم كان على الجَهْمية أصحاب جَهْم بن صفوان الخراساني الأصل ، لهذا نرى أن المعتزلة كانت نشأتهم الأولى إسلامية بحتة . وإن تأثروا بغيرهم من أهل الديانات الأخرى ، فمن ناحية أن هذه الديانات كانت تقترح على المعتزلة موضع النزال: فإذا قال المجوسي الذي دخل الإسلام بالتجسيم ، أو قال بالجبر ، نازلهما المعتزلة . ولكنهم يستندون في حججهم على الإسلام والعقل ، أما بعد عصرهم الأول فهذا موضوع آخر سنتناوله عند الكلام في المعتزلة ، إن شاء الله .

واستمر الجدل بين المسلمين والنصارى في العصر العباسي ، وقد حكت لنا الكتب منه الشيء الكثير ؛ كرسالة الجاحظ (في الرد على النصارى)[1] فهي تصور لنا ما كان يثيره النصارى واليهود من شبهات ، وما كاد يدفع به المسلمون تلك الشبهات . كما تذكر لنا طرفا من أخبار اليهود والنصارى ، والسبب الذي من أجله كانت العداوة بين المسلمين والنصارى أقل من العداوة بين المسلمين واليهود ، إلخ – ونُقل إلينا أن عبد الله بن إسماعيل الهاشمي كتب

---

(١) وردت هذه الرسالة باختصار في رسائل الجاحظ على هامش الكامل ، ووردت بأطول من ذلك في مجموعة ثلاث رسائل للجاحظ وهي التي نشرها يوشع فنكل .

رسالة إلى عبد المسيح إسحاق الكندي يدعوه بها إلى الإسلام ، فرد عليه عبد المسيح يدعوه إلى النصرانية ، وكان ذلك في عهد المأمون[١] .

وحكى الجاحظ في الحيوان جدالا كان بينه وبين النصارى في القرَابين والذبائح[٢] ، إلى كثير من أمثال ذلك . وكل هذا الجدل يدل على معرفة اليهود والنصارى لكتب المسلمين يأخذون منها حججهم ، ومعرفة المسلمين لكتب اليهود والنصارى كذلك .

وفي الأدب تسرب بعض ما للنصرانية إلى الأدب العربي من وجوه عدة:

١ – أن بعض الشعراء كانوا نصارى ، فأدخلوا في شِعرهم العربي شيئاً من النصرانية ، وكان أوضح مثل لذلك في العصر الأموي (الأخطَل) فقد ورد في شعره أثر من النصرانية مثل قوله:

ولقد حلفتُ بربّ موسى جاهِداً ... والبيت ذِي الحُرُمَاتِ والأستَارِ
وبكل مُهْتَبلٍ عليه مُسُوحُه ... دُونَ السماء مُسَبِّحٍ جارِ
لأحَبّرنَّ لابن الخليفة مِدْحة ... وَلأقْذِفَنَّ بها إلى الأمْصَارِ

ويقول: «والصليبِ والقربان لأتخلصنَّ إلى كليب خاصة – دون مضر – بما يَلْبَسُهم خزيُه ويَلْزَمُهم عارُه»[٣] ، وروى ابن الأثير أن الأخطل لما قال:

---

(١) ورد اسم الرسالة والإشارة إليها في كتاب (الآثار الباقية) للبيروني ، فاستشهد بكلام عبد المسيح على ذبح الصابئة للآدميين قرباناً للقمر ، وقال: إن هذه الرسالة كتبت جوابا على كتاب عبد الله ابن إسماعيل الهاشمي . وقد طبعت هذه الرسالة جمعية ترقية المعارف المسيحية بأوربا ولكنا نشك كل الشك في أن هذه الرسالة كلها بعينها هي التي رآها البيروني لأسباب ليس هنا موضع ذكرها .

(٢) الحيوان (٤/ ١٣٨ وما بعدها) .

(٣) الأغاني (٧ : ١٧٣) .

لما رأونا والصليبَ طالعاً ومارِ سرجيسَ وسُمًّا ناقِعا
والخيلَ لا تحمِل إلا دَارعا وأبصروا راياتِنا لوامعا

إلخ قال جرير:

أفبالصليب ومارِ سرجسَ تتَّقي شَهْبَاءَ ذات مَنَاكبٍ جُمْهورا؟

وقال أيضاً:

يستنصرون بمارِ سرجسَ وابنه بعد الصليب، وما لهم من ناصر!

ولكن أثر النصرانية في شعره قليل، كما لاحظ الأستاذ (لامانس) بل هو متأثر في أيْمانه بالإسلام أكثر من تأثيره بالنصرانية، كقوله:

إني حَلَفْتُ بربّ الرّاقِصَاتِ وَمَا أضحى بمكة من حُجْب وأستَارِ
وبالهَدِى إذا احمرَّت مَدَارِعُها في يَوْمِ نُسْكٍ وتَشْريقٍ وتَنْحَارِ
وما بزمزَمَ من شُمْط مُحَلِّقة وما بيثْرِبَ من عُونٍ وأبْكَارِ[1]

وقوله:

وقد حَلفتُ يميناً غيرَ كاذبةٍ بالله ربّ ستور البيت ذي الحُجُب
وكل مُوفٍ بِنَذْرٍ كان يَحْمِلُه مُضَرَّجٍ بدماء البُدْنِ مُختَضِبِ

كذلك هو في حياته مضطرب بين عادات من حوله من النصارى والمسلمين، فهو يشرب الخمر ويعلق الصليب، وهو يطلق امرأته ويتزوج أخرى بل ويَتسَرَّى!

وفي العصر العباسي لم يشتهر كثير من النصارى بالشعر العربي، وعرف منهم أبو قابوس، قال في العُمْدة: «كان أبو قابوس الشاعر رجلا نصرانيا من

---

(١) رقص البعير إذا أسرع في سيره، والهدي: النعم تهدى إلى الحرم، والأشمط: الذي شعر رأسه أبيض وأسود، والعون: جمع عوان وهي المرأة النصف والتي كان لها زوج.

أهل الحيرة» وكان منقطعاً إلى البرامكة يمدحهم ويمنحونه ، روى من شعره قليل ، من ذلك أنه استمنح جعفرَ بن يحيى البرمكي ثوباً يَلبسه يوم العيد في الكنيسة ، فقال من قصيدة:

أبا الفضل لو أبصرتنا يومَ عيدنا رأيتَ مباهاةً لنا في الكنائسِ
فلا بُدّ لي من جُبةٍ من جِيَابكم طَيْلسَان من خِيار الطَّيالِس

ولكن – على العموم – شعراؤهم في عصرنا قليلون ، وليس لهم كبير أثر في الشعر العربي ، ولم يكن لهم مثل الأخطل ، أو ما يقرب منه[1] .

٢ – كان أكبر من ذلك أثراً ما نقل – من المواعظ – عن الرهبان في الأديار ، وما نقل عن الكتب النصرانية . كالذي حكى ابن قتيبة «قال بعضهم: أتيت الشام فمررت بدير حرملة وبه راهب كأن عينيه عِدْلا مزادٍ ، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: يا مسلمُ ، أبكي على ما فرَّطتُ فيه من عمري ، وعلى يوم مضى من أجلى لم يحسُن فيه عملي! قال: ثم مررت بعد ذلك فسألت عنه فقالوا: أسلم وغزا فقتل في بلاد الروم»[2] ، ويقول ابن قتيبة: قرأت في الإنجيل: «لا تجعلوا كنوزكم في الأرض حيث يفسدها السوس والدود ، وحيث يَنْقب السرَّاقُ ، ولكن اجعلوا كنوزكم في السماء ، فإنه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم . . إلخ»[3] .

وفي العقد الفريد: قال عيسى – عليه السلام – للحواريين: «لا تنظروا في أعمال الناس كأنكم أرباب ، وانظروا في أعمالكم كأنكم عبيد . فإنما الناس

---

(١) انظر مصداق ذلك (كتاب شعراء النصرانية بعد الإسلام) للأب لويس شيخو .
(٢) عيون الأخبار (٢/ ٢٩٧) .
(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٧٠) .

رجلان مبتلىً ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمَدوا الله على العافية»[1]، ولقي رجل راهباً فقال: «يا راهب صف لنا الدنيا، فقال: الدنيا تخلق الأبدان وتجدّد الآمال وتباعد الأمْنِيَّة وتقرّب المَنيّة»[2] إلى كثير من أمثال ذلك.

ومن غريب الأمر أن هذه الأديار كانت منبعاً لشيئين متناقضين أشد التناقض، كانت منبعاً لزهد وورع وبعد عن الدنيا وشئونها، ومحطاً لبعض زهاد المسلمين، يروون عن الرهبان أقوالهم في الهرب من اللذات كالذي روينا.

وكانت كذلك مناحَ الخليعين من الشعراء والأدباء يخرجون إليها، ويتشببون بفتيانها وفَتياتِها، ويقولون في ذلك القول الخليع والشعر الجميل. ذلك أن الأديار كانت غالباً في أجمل المواضع، وأحسنها هواء، وأجملها منظراً، تحيط بها أنواع البساتين وتجمل فيها الأزهار والرياحين، فقال البُحْتِريُّ:

ما تُقضَّى لُبانه عند لُبْنَى والمعَنَّى بالغانياتِ مُعَنَّى
نزلوا رَبْوَةَ العِراقِ ارْتياداً أيُّ أرضٍ أشفُّ داراً وأسنَى؟
بين دَيْر العاقول مُرْتَبَعٌ أشرف مُحتَلُّه إلى دَيْر قُنَّى
حيث باتَ الزَّيتونُ من فوقه النخلُ عليه وُرْقُ الحمام تُغنِّي

وشاع عند الشعراء ما فيها من خمر معتّق، وشراب جيد مصفًّى.

إنَّ عجزاً كما نكون وغَبْنَا أن نُرَى صاحِبَينِ في ديْر قُنّي
حَبَّذا رَوْضَةُ الْمُدَبَّجُ ليلا وهَوَاهُ ذَاكَ الْمُمَسَّكُ رُدَّنا
قد جَرَى السلسبيل بالمِسك فيها فَحَوته الدّنّان، دَنّا فدَنّا

ويظهر أن الخمَّارين استغلوا شهرة الأديار بالشراب، فأنشأوا حولها الحانات، قال ابن فضل الله العُمَري: «وكانت حول دير العذارى حانات

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (١/ ٣٥٦).

(٢) العقد الفريد (١/ ٢٧١).

للخمارين وبساتين ومتنزهات »[١] وكانت تقام لبعض الأديار أعياد سنوية، قال الخالدي في دير الكَلْب: «وله عيد في وقت من السنة يخرج إليه خلْق من النصارى نساء ورجال للإقامة عنده وخلق من المسلمين للنظر إليه والنزهة فيه، ويجتمع إليه أهل الرفَثِ والْمجَان، وتُسمع به الأغاني وأنواع الملاهي، وتذبح به الذبائح وتشْرب الخمور»[٢].

اغتنم المُجَّان من الشعراء هذا كله، فأنشأوا حول الأديار أدباً غزيراً وشعراً كثيراً، هو من الناحية الفنية بديع ممتع، مثل قول ابن المعتز:

يا ليالِيَّ بالمَطِيَرةِ والكَرْ　　خ ودَيْر السُّوسِيِّ بالله عودي

كنتِ عندي أُنموذَجاتٍ من الجنـ　　ـة لكنها بغير خلود!

أشربُ الرَّاح وهي تشرب عقلي　　وعلى ذاك قتلُ الوَليد

وقول آخر:

ما ترى الدَّيْرَ ما ترى أسفل الديـ　　ـر وقد صار وَرْدةً كالدِّهان؟

لو رآه النعمان شَقَّ عليه　　ما يرى من شقائقِ النُّعمان

وآخر:

فتنتنا صورةٌ في بِيعَةٍ　　فتَنَ اللهُ الذي صوَّرها

زادها الناقشُ في تحسينها　　فضْلَ حُسْنٍ إنه نضَّرَها

وجهُها لا شك عندي فتنة　　وكذا هي عنْدَ من أبصرَها

أنا للقَسِّ عليها حاسِدٌ　　ليت غيري عَبَثا كسَّرها

وسرت هذه العادة في كل الأقطار، فتجد شعراء العراق والشام ومصر يتشببون بالأديار ومن فيها وما فيها، وتقرأ كتاب الديارات للشابشتي،

---

(١) مسالك الأبصار (١/ ٢٥٨).

(٢) (٢٥٤).

ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ، فتعجب من كثرة ما قيل من الشعر فيها وسكانها . وتراهم قد سلكوا في ذلك كلَّ مسلك ، وتفننوا كل فن ، وهم بين مستهتر ومحتشم وطريف مؤدب وخليع ماجن . وهكذا كانت الأديار مصدراً لنغْمَتين كان الناس يسمعونهما كثيراً في ذلك العصر: نغمة حزينة زاهدة ، تدعو إلى الفرار من الحياة وارتقاب الموت . ونغمة مرحة لاهية ، تدعو إلى احتساء الكأس إلى آخر قطرة من قطراته ، كلٌّ يوقِع على الوتر الذي يهواه ، وكلٌّ يغنى على لَيْلاه .

كذلك نفذ إلى المسلمين بعض عادات اليهود والنصارى الدينية ، فقد اتخذ بعض المسلمين أعياد النصارى عيداً ؛ فيوم الشعانين[1] عرف في العصر العباسي وما بعده ، وقال فيه الشعراء شعراً كثيراً . من ذلك ما يقوله عبد الله بن العباس ابن الفضل بن الربيع:

يا شادِناً رَامَ إذْ مَـرَّ في الشعانين قتلي
يقولُ لي: كيف أصبحتَ ، كيف يُصْبِحُ مِثْلي؟!

ويقول:

يا ليلة ليس لها صُبح … وموعداً ليس له نُجْح
من شادِنٍ مرّ على وعْده الميلادُ والسُّلاَّقُ والدِّبْحُ[2]
وفي السَّعانين لو أني به … وكان أقصى الموعد الفصْح
فالله أسْتَعْدي على ظالمٍ … لم يغنِ عنه الجودُ والشحُّ

ويقول:

إنَّ في القلب الظَّبي كَلُومُ … فدع اللوم فإن اللوم لوم

---

(١) الشعانين عيد النصارى قبل الفصح بأسبوع .

(٢) الميلاد والسلاق والذبح أعياد للنصارى .

حَبَّذا يــومُ السَّعانين ومـا نِلْتُ فيه من نعيــم لو يــدومُ!
إن تكن أعْظَمْتَ أن هِمتُ به فالذي تركبُ من عَذْلي عظيمُ
لم أكن أولَ من سنَّ الهــوى فَــدَعِ اللوْم فذل داء قديــم[1]

ويقول:

إن كنتَ ذا طبٍ فداويني ولا تلم فاللوْمُ يغريـني
يا نظرة أبقت جوى قاتلا ما شادن يوم السّعانين

ويروي ابن تيميـة أن اتخـاذ المسـلمين القبـور مسـاجد كـان تقليـدا لليهـود والنصارى ، وروى في ذلك الأحاديث الكثيرة مثل: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**»[2] . ويقول الشافعي: «وأكره أن يعظَّم مخلوق حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس»[3] . وعدّد كثيراً من البدع التي أدخلت على زيارة القبور من أبنية الأضرحة وإيقاد المصابيح والتوجه بالدعاء نحو القبور ، وختم ذلك بقوله: «وكل هذه الأشياء من البدع التي لا تضارع دين النصارى»[4] .

وعلى الجملة ، فنظرة إلى هذا كله ترينا أنه قد تسرّب إلى المسلمين – في العصر العباسي – شيء غير قليل من النصرانية في التفسير والحديث ، والمذاهب الدينية والعادات والتقاليد العامة في ذلك العصر .

---

(١) انظر كذلك: ضحى الإسلام ص٨٨ .
(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢) عن جندب ﷺ .
(٣) ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٦٠ وما بعدها) .
(٤) المصدر السابق (ص ١٧٥) ، وقد عدد ابن تيمية في هذا الكتاب أشياء كثيرة من العادات والتقاليد التي أخذت عن أهل الكتاب والمجوس فارجع إليه .



الثلاثي النكد
وأثره على الهوية الإسلامية
١-الاستشراق
٢-التبشير
٣-حملات الاستعمار
الفصل
الثاني

المبحث الأول

المستشرقون

الدوافع الحقيقية لظهور الاستشراق:

أولاً: الدافع الديني:

لم يكن الدافع وراء الدراسات الاستشراقية دافع البحث العلمي ، ولاسيما إذا علمنا أن هذه الدراسات بدأت على يد الرهبان ورجال الدين النصراني ، فقد كانوا الرواد في الوقت الذي كانوا فيه ناشطين في تشويه صورة الإسلام وتعاليمه عند أتباع دينهم ، حتى يوقفوا هذا الزحف الإسلامي القادم إلى بلادهم .

يقول د/ محمود حمدي زقزوق: «وليس هناك شك في أن الانتشار السريع للإسلام في المشرق والمغرب ، قد لفت أنظار رجال اللاهوت المسيحي إلى هذا الدين ، ومن هنا بدأ اهتمامهم بالإسلام ودراسته ، ومن بين العلماء المسيحيين الذين أظهروا في وقت مبكر اهتماما بدراسة الإسلام – لا من أجل اعتناقه ، وإنما من أجل حماية إخوانهم في الدين منه – كان العالم المسيحي (يوحنا الدمشقي ٦٧٦م – ٧٤٩م) ، ومن بين مصنفاته في هذا الصدد لإخوانه في الدين كتاب (محاورة مع مسلم) وكتاب (إرشادات النصارى في جدل المسلمين)» (١) .

ولقد حاول رجال الدين النصراني الوقوف أمام زحف الإسلام القادم إليهم في بلادهم فقرروا عدة أمور:

أ – مواجهة هذا الدين عن طريق دراسته أولا ، ثم البحث عن نقاط الضعف فيه من وجهة نظرهم ؛ لإبرازها وإثارة الشبهات حولها ، خاصة حول الرسول ﷺ وتشريعات الإسلام في العبادات والمعاملات .

---

(١) الاستشراق ، د/ محمود زقزوق ص: ١٨ ، ١٩ ، دار المعارف سنة ١٩٩٧م .

ب – اتهام الإسلام بأنه دين لم يأت بجديد ، فجعل تعاليمه مأخوذة من اليهودية والنصرانية ؛ فلا حاجة إليه .

جـ – محاولة حجب حقائق الإسلام وتعاليمه السامية عن أبنائهم من النصارى وذلك بتشويه تعاليمه ، والافتراء عليه كذبا وبهتانا ، ومن ثم لا يدخل نصراني في هذا الدين لأنهم وضعوا أسوارا عالية تحول بين أبنائهم وتعاليم الإسلام .

يقول د/ محمد خليفة حسن: «فصورة الإسلام خارج العالم الإسلامي يتم تشويهها ، وتقديمها في صورة مزيفة غير حقيقية بواسطة الاستشراق ، وهى صورة تعطي انطباعا سلبيا للإسلام كدين وحضارة في ذهن الإنسان الذي تلقى معرفته عن الإسلام من خلال المستشرقين الذين يمثلون المصدر المعرفي الأساسي للمعلومات الخاصة بالإسلام وبالمجتمعات الإسلامية»[1] .

د – حاول المنصرون توسيع رقعة النصرانية على مساحة الكرة الأرضية فكرسوا جهودهم للتنصير في كل مكان ، ومن أجل نجاح هذا الهدف لا بد من الدراسات الاستشراقية التي تمهد الطريق أمام التنصير بدراسة طبائع الشعوب ، وكثافة السكان ، واستغلال الفقر والجهل والمرض ، ومعرفة عادات الشعوب وتقاليدها ، ولا يتم ذلك كله إلا بدراسة الشرق الإسلامي وعلومه وآدابه إلى آخره .

ثانياً : الدافع الاستعماري:

بعد خيبة الحروب الصليبية في سيطرتها على الشرق الإسلامي عسكريا ، اتجهوا إلى لون آخر من ألوان الغزو – وهو الغزو الفكري – ليمهد الطريق إلى

---

(١) آثار الفكر الاستشراقي ، د/ محمد خليفة حسن ص:١٩ ، ط/ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط الأولى ، سنة ١٩٩٧م .

الاحتلال دون مقاومة، فكانت الدراسات الاستشراقية التي درست كل ما يتعلق بالعالم الإسلامي من علوم وثقافات، وتاريخ ودين، واستطاعوا من خلال نتائج هذه الدراسة أن يضعفوا روح المقاومة في نفوس المسلمين إلى أن سيطروا على العالم كله، ما عدا شبه الجزيرة العربية.

ولم يصل الغرب إلى ذلك كله إلا بعد تكريس طائفة من المستشرقين، أغدقوا عليهم الأموال، وجندوهم لخدمة أطماعه ومآربه، والوصول إلى غايته. وقد نقل د/ زقزوق عن بعضهم ما يؤيد ذلك، فيقول المستشرق الألماني أوليسربن هارمان: «كانت الدراسات الألمانية حول العالم الإسلامي قبل عام ١٩١٩م أقل براءة وصفاء نية، فقد كان (كارل هينزبش بيكر) وهو من كبار مستشرقينا منغمسا في النشاطات السياسية حتى إنه أصبح في عام ١٩١٤م شديد الحماس لمخطط استخدام الإسلام في أفريقيا»[١].

وعندما أعلن اللنبي في القدس عبارته: «الآن انتهت الحروب الصليبية»، وأطلق جورو في دمشق شماتته: «قد عدنا يا صلاح الدين» كانا يعبران عن اللاشعور في أعماق النفسية الغربية، بالإضافة إلى الاستجابة لمناهج التعليم الدينية والتاريخية في المدارس والجامعات التي تعكس تجارب الغرب في تحدياته للشرق الإسلامي.

يقول توينبي: «فمنذ قرون طويلة كان أسلافنا يرون في الإسلام خطراً مخيفا يتهددهم قبل أن يسمع الناس بالشيوعية، ففي القرن السادس عشر – وهو الزمن القريب منا نسبيا – كان الإسلام يبعث في قلوب الغرب من الهوس ما تبعثه الشيوعية في القرن العشرين، وهذا يرجع في جوهره إلى أسباب واحدة: ذلك أن الإسلام – كالشيوعية – كان يعتبر حركة مناهضة للقرب، وبدعة دينية

---

(١) الاستشراق، د/ محمود حمدي زقزوق ص: ٤٨، مرجع سابق.

مخالفة لديانة الغرب في الوقت نفسه ، وكان الإسلام يستخدم - كالشيوعية - سلاحا روحيا لا يمكن مقاومته بالأسلحة المادية»[١] .

ثالثاً: الدافع التجاري:

أخذت العلاقات التجارية تنمو بين البلاد الإسلامية والبلاد النصرانية ، وآلت بدورها إلى العناية بدرس أحوال المسلمين السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية .

وفي نهاية العصر الوسيط كانت الصلات السياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية ، وكذلك الروابط الاقتصادية لكل من أسبانيا وإيطاليا مع كل من تركيا وسوريا ومصر ، حافزا للاهتمام بدراسة الآخر ، وقد انفردت إيطاليا عن الصليبيين وقامت بتحسين علاقاتها مع الشرق ، فأصبحت البندقية حلقة الوصل بين الشرق والغرب ، وتكلم أهلها العربية حتى فتح القسطنطينية عام (١٤٥٣م) .

«وقد سبق ذلك كله اهتمام الغربيين بدراسة أحوال الجزيرة العربية أو الشرق حسب آراء المؤرخين ، فقد عثر على كتاب لمؤلف غربي مجهول اسمه (الطواف حول البحر الأرتيري) يعود - حسب رأي الدكتور جواد علي - إلى نهاية القرن الأول الميلادي ، كما ظهرت معلومات مفصلة عن الخليج العربي عند (فلافيوس اريان) اليوناني في مؤلفاته عن حملات الإسكندر الكبير أو قائده (نيرخوس) في الخليج العربي ، كما أن المؤرخ (سترابو) عام ٢٥ للميلاد تحدث في مؤلف له عن العرب وأحوالهم الاجتماعية والتجارية والاقتصادية»[٢] .

---

(١) أرنولد توينبي / الحضارة في الميزان ص: ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي ، د/ ناجى عبد الجبار ، ص: ١١-١٣ ، دار الجاحظ بغداد ١٩٨١م .

«كما لا يخفى أن من بين أهداف الحملات الصليبية على الشرق هو السيطرة على عقد الوصل الحيوية لخط التجارة الرئيسي بين آسيا وأوربا ، وفي القرن الخامس عشر / التاسع للهجرة بدأت البرتغال بتجار الرقيق الأسود للعمل في مستعمراتها في القارة الأمريكية وتبعتها إسبانيا .

وما بدأ القرن السادس عشر/ العاشر الهجري إلا وأصبحت تجارة الرقيق مربحة لملوك أوربا ، وخاصة (اليزابيث الأولى) ملكة انجلترا التي كانت لها اليد المحركة في إنشاء شركة الهند الشرقية عام (١٦٠٠/ ١٠٠٩م) فصارت تصدر الأفيون إلى الصين من مزارعها في البنغال ، ولما منعت الصين ذلك أشعلت معها بريطانيا حرب الأفيون»[١] .

رابعاً: الدافع العلمي:

إن ما حققه المسلمون من فتوحات في العلوم والفنون والآداب ، بهرت العالم المسيحي ، فعكف على دراستها والإفادة منها ، وكانت هذه الدراسة مقدمة لعصر النهضة في أوربا .

«ومن الجدير بالذكر أن بعثات وفود أوربية كانت تصل الأندلس الإسلامية للحصول على معرفة موضوعية في مجال العلوم العربية كالطب والفلسفة والعلوم الطبيعية ، وبدءا من عام ١١٣٠م كان العلماء النصارى في أوربا يعملون جاهدين على ترجمة كتب العلوم إلى اللاتينية في حركة تشبه تلك الحركة التي قامت في عصر المأمون العباسي (ت٢١٨هـ - ٨٣٣م) ومن سبقه لترجمة علوم اليونان إلى العربية»[٢] .

---

(١) الاستشراق بين الافتعالية والموضوعية ، د/ قاسم السامرائي ، ص: ٣١ .

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، مرجع سابق ، ص: ٢٤ .

مع فارق جوهري ؛ أن الترجمة في العصر العباسي كانت حرة مطلقة ، غايتها العلم وحده ، ولم تكن كذلك ترجمة الأوربيين للعلوم العربية ؛ إذ كانت تتم من قبل رجال اللاهوت ، وتحت إشرافهم مما يمكن تسميته بالموضوعية الموجهة ؛ لذا اقتصرت الترجمة في عمومها على العلوم الطبيعية دون الدينية العقائدية ؛ لتحمي الكنيسة أتباعها من التأثر بالإسلام .

«ثم توجه الأوربيون نحو جمع المخطوطات العربية والاستيلاء عليها بشتى الطرق . وكان من بين الذين قاموا بهذه المهمة (جيوم بوستل ت ١٥٨١م) الذي شغل أول كرسي للغة العربية في (الكوليد دي فرانس) بباريس عام ١٥٣٩م ، وقد سار على نهجه (جوزيف أسكا ليجر ت ١٦٠٩م) .

واستمر جمع المخطوطات – علاوة على ما ذكر – خلال القرن السابع عشر ، وفي عام (١٥٨٦م) أصبح من السهل طباعة الكتب العربية في أوربا عن طريق المطابع ، وتمت في حينه طباعة مؤلفات ابن سينا في الطب والفلسفة إضافة إلى غيرها»[1] .

ونلحظ أن حجم البحث العلمي المجرد عن الإسلام قليل جدا ، أو يكاد يكون نادرا ، أما الغالبية العظمى من المستشرقين فلم يلتزموا بالموضوعية والإنصاف ، وإنما غلب عليهم التعصب والهوى ، والدس والتحريف ، وكان البحث العلمي موجها لخدمة الدافع الديني .

ومن هنا كانت العناية بالإسلام والآداب العربية والحضارة الإسلامية هي أهم ما عُنِيَ به المستشرقون حتى اليوم ، وليس من العسير على أي دارس للاستشراق والمستشرقين ، وما صدر عنهم من مؤلفات ، وما قاموا به من

---

(١) م.ن ، ٢٩ ، ٣٠ .

نشاطات أن يتبين المرتكزات التي أقاموا عليها دراساتهم والاتجاهات التي سلكوها في ضرب الإسلام وتشويه صورته .

وتتلخص هذه الاتجاهات فيما يلي:

١ – إفساد صفاء العقيدة الإسلامية وإغراقها في متاهات التشكيك والارتياب ، وفي هذا المجال ترى فيما كتبوه عن القرآن الكريم أنه تأليف محمد ﷺ ، وأنه استقاه من التوراة والإنجيل ، وأن شريعته مستقاة من التلمود ، والفقه الروماني ، وما إلى ذلك من مزاعم وتحريفات .

٢ – طرح الأفكار والنظريات المناهضة للإسلام ، وفي هذا المجال شهد العالم الإسلامي النظريات الفكرية الفاسدة ، كنظرية النشوء والارتقاء ، وهي المعروفة بنظرية دارون ، ونظرية التفسير المادي للتاريخ وهي المعروفة بنظرية ماركس ، ونظرية التفسير النفسي لحركة الإنسان وهي المعروفة بنظرية فرويد ، ونظريات علم النفس وعلم الاجتماع .

٣ – إبراز الخلافات الفكرية بين المسلمين وتغذيتها ، ومن هنا جاء اهتمامهم بدراسة تاريخ الفرق الإسلامية .

٤ – تأسيس الحركات المناهضة للإسلام ودعمها وتشجيعها ، وفي هذا المجال ظهرت القاديانية والبهائية وغيرهما .

٥ – تصوير الأحكام الشرعية بتغير صورتها وتفسيرها بغير مدلولها ، وفي هذا الميدان طعنوا في الجهاد ، وطعنوا في تعدد الزوجات .

٦ – إشاعة الأفكار الفلسفية وإيهام المسلمين بأنها تتفق مع الإسلام ولا تتعارض مع مبادئه ، مع أنها أفكار ومفاهيم ليس بينها وبين الإسلام نَسَب ولا سبب .

هذه هي أهم الاتجاهات التي سلكها المستشرقون وتلاميذهم واعتبروها أسساً صالحة لضرب الإسلام في صميمه والقضاء عليه[1].

وسائل المستشرقين في تغريب الشخصية الإسلامية:

اتخذ المستشرقون عدة وسائل لتحقيق أهدافهم وأغراضهم، فلم يروا أي وسيلة تحقق مقصدهم إلا عمدوا إليها واستحدثوا من الوسائل ما يناسب العصر والتطورات الجديدة فيه، ومن أهم هذه الوسائل ما يلي:

أ - تأليف الكتب:

قام المستشرقون عبر تاريخهم الطويل بتأليف أعداد ضخمة من الكتب التي تتعلق بالدراسات الإسلامية، والتي بلغت الآلاف، وقد كتبوها بشتى اللغات المختلفة، ويبدو من دراسة مناهج المستشرقين أن أكثرهم أراد أن يحقق هدفاً معينا فيه انتقاص من الإسلام وأهله، ولهذا نجد في دراساتهم العشوائية، والبعد عن المنهج العلمي، ويبدو فيها الحقد واضحا.

ومن المآخذ التي أخذت على المستشرقين ما يأتي:

أولاً: عدم أخذ الإسلام من مصادره الأصلية: الكتاب والسنة أو من العلماء والمسلمين المعتمدين، وإنما اعتمدوا في دراساتهم ما كتبه من سبقهم من المستشرقين، ولهذا صار عندهم أعلام ومفكرون كتبوا عن الإسلام، واعتمدت آراؤهم، ومن هؤلاء جولد تسيهر وشافت وغيرهما، مما جعل أغلب دراساتهم تتسم بالنقص والتشويه والبعد عن المنهج العقلي المعهود.

ثانياً: يضع أحدهم الهدف أولا ثم يتلمس الأدلة الواهية أو المختلقة للوصول إلى ذلك؛ فمثلا يضع في المقدمة أن القرآن الكريم ليس من الله تعالى

(١) انظر: نظرات في الثقافة الإسلامية، مجموعة مؤلفين، ص:١٤، ٤٢، دار الفرقان، ط٦، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

وحيا على نبينا محمد ﷺ، ولهذا نجدهم يتحدثون عن تجارة النبي ﷺ ويصوغون فوق ما ذكر الأساطير والافتراءات .

ثالثاً: الحرص على إتقان عملية التسلل الفكري بطريقة لا يشعر بها إلا القليل من الباحثين ، وذلك بالمدح والإطراء على الرسول ﷺ ، وعلى بعض جوانب معينة من الإسلام ، ومن ثم الانتقال إلى إبراز هذا الخلاف المزعوم في الفكر الإسلامي والعقائد ونتائجها ، ويظهر ذلك هولد فيكو ماراتش (١١٧٢-١٨٠٠) الذي كان يسمى بالمرعش ، فهو يقول في كتابه (دراسة عن الإسلام): «لو أردت وصف حياة محمد حسب رواة كتابنا لتعرضت لسخرية المسلمين ، فإن هناك اختلافا كبيرا بين ما نتناقله نحن عن محمد ، وبين ما يراه المؤرخون المسلمون ، حتى إن القارئ لا يكاد يصدق أن الكلام في الحالتين يدور حول الشخص ذاته ، ولذلك سوف أتبع المؤرخين ليس لأني أعتقد بصدق ما يقولون ، بل لأننا إذا أردنا مكافحة أعداء أمتنا لا بد أن نحاربهم بأسلحتهم ، أضف إلى ذلك أن كثيرا من كتابنا يذكرون أموراً عن محمد لا يمكن أن تثير لدى المسلمين إلا السخرية ، ولا تزيدهم إلا تمسكا بعقائدهم الباطلة»[١] .

ولقد أحصى إدوارد سعيد الكتب التي ألفها المستشرقون من أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين فبلغت ستين ألف كتاب[٢] .

ب - إصدار المعاجم والموسوعات :

تعد المعاجم والموسوعات مرجعا أساسيا لكل باحث يعمل في مجال العلوم الإسلامية والعربية ، ومن ثم عكف المستشرقون على إصدار المعاجم

---

(١) المستشرقون بين الإنصاف والعصبية ، محمد علوي مالكي ، مطابع سحر - جدة ص:٤٠٢ ، ومناهج المستشرقين عبد القهار العاني ، وسعدون الساموك ، ص: ١٣٧ ، وزارة التعليم العالي - بغداد .

(٢) انظر: الاستشراق لإدوارد سعيد ص: ٢١٦ .

والموسوعات التي تخدم هذا الغرض ، وتكون مرجعاً لهم وللباحثين في الوصول إلى الهدف المطلوب .

ولقد قام المستشرقون بعمل ضخم في مجال المعاجم ، فقاموا بوضع (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) ، وهو يقع في ثمانية مجلدات ، المجلد الثامن للأعلام الوارد ذكرهم في كتب السنة ، وهذا المعجم يضم كتب السنة الستة المشهورة بالإضافة إلى مسند الإمام أحمد ، وموطأ الإمام مالك ، ومسند الدارمي .

وقام بالإنفاق عليه وتمويله ماديا مؤسسات ودول عديدة تعرف جميعها بالعداء للإسلام وحرب المسلمين .

ومن المعروف أن المستشرقين قاموا بوضعه في مدة زمنية تقترب من الثلاثين عاما ، وكان هدفهم من ذلك هو خدمة الدراسات الاستشراقية فقط ، فكانوا يقومون بطباعة خمسمائة نسخة فقط ، وتوزيعها على مراكز الدراسات الاستشراقية .

ومن الموسوعات التي قام المستشرقون بإعدادها (دائرة المعارف الإسلامية) ، يقول عنها د/ عبد المتعال الجبري: «لوحظ أن كتاب دائرة المعارف وغيرهم بذلوا جهودا جبارة ، ولكن كتاباتهم لم تسلم من الغمز واللمز والغرض المشبوه»[1] .

وقد ذكر د/ محمد البهي «من الموسوعات المتطرفة المشبوهة للإسلام ، والشائعة الانتشار ، أولها شبه حجية عند المسلمين (دائرة المعارف الإسلامية)

---

(١) الاستشراق وجه الاستعمار الفكري ، د/ عبد المتعال الجبري ، ص: ٤٥ ، مكتبة وهبة ، ط الأولى (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م) .

صدرت بعدة لغات حية وموجز دائرة المعارف الإسلامية – ودائرة معارف الدين والأخلاق، ودائرة معارف العلوم الاجتماعية»[١].

ج- عقد المؤتمرات الإقليمية والعالمية:

المؤتمرات وسيلة هامة لتبادل الأفكار والخبرات، والوقوف على كل جديد في عالم المعرفة، خاصة بعد عرض الأبحاث الجديدة، ومناقشتها والتسليم بنتائجها.

واستغل المستشرقون هذه الوسيلة على أوسع نطاق، فلهم مؤتمراتهم الإقليمية والعالمية التي تضم مئات من الباحثين المستشرقين الذين يجتمعون بصورة محددة ومنظمة لنقل الأفكار وتوارث الخبرات «وكان أول مؤتمر عقد سنة ١٨٧٣ في باريس، وتتابعت المؤتمرات حتى بلغت ثلاثين مؤتمرا، كان آخرها في سيدني باستراليا عام ١٩٧١م»[٢].

ولا شك أن كل مؤتمر يسفر عن نتائج وأبحاث وتقارير ومقترحات، وهم يعتنون بهذه النتائج لتصبح مرجعا لهم ولغيرهم من المعنيين بالموضوعات التي طرحت في المؤتمر.

د- تأسيس أقسام الدراسات الإسلامية في جامعاتهم:

عمل المستشرقون منذ فترة طويلة على تأسيس كراسي لتدريس اللغة العربية وآدابها في جامعاتهم (ففي عام ١٥٣٩م تم إنشاء أول كرسي للغة العربية في باريس، وشغل هذا الكرسي جيوم بوستيل (ت:١٥٨١) الذي يعد

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص: ٤٣٥، مكتبة وهبة، ط الثالثة عشرة، (١٩٩٧م).

(٢) المستشرقون، نجيب الحقيقي، ٣/٣٦٦، دار المعارف، ط الرابعة.

أول المستشرقين الحقيقيين . . .)، وقرر إنشاء كرسي للغة العربية في جامعة كمبردج عام ١٦٣٦م[1].

وانتشر العمل حتى غدا يهم جميع جامعات أوربا، بل إن هناك معاهد متخصصة أنشئت خصيصا للدراسات الاستشراقية، وهذه الأقسام والمعاهد تخرج أعدادا من الباحثين والدارسين الذين يخدمون الأهداف العليا لحكام دولهم بإخلاص وثقافة.

ومن الغريب أن تستقطب هذه الأقسام أو تلك المعاهد أبناء المسلمين العرب ليدرسوا فيها، ويحصلوا على درجات علمية من الماجستير أو الدكتوراه في العلوم الإسلامية تحت إشراف المستشرقين أنفسهم.

«وبلغ عدد هذه الأقسام في الجامعات الغربية أكثر من ستين قسما في أكثر من ستين جامعة في الغرب، على رأس الأقسام أساتذة يهود . . . ومما يجعل أثرهم خطيرا ومثمرا للسوء أنهم يعملون على سياسة تطبيع العلاقات بين الشرق والغرب، واستغلال المسلم الشرقي الذي جاء من أجل المؤهل الجامعي، وعمل غسيل مخ له، حتى يتحول في طريقة تفكيره إلى التخبط الغربي، وغرس أسباب الاختلاف والتفرق بين المسلمين، كالخلافات بين السنة والشيعة وبعض الخلافات الفقهية»[2].

هـ- تخريج تلامذة لهم من المسلمين العرب:

أبان المستشرق والمبشر الأمريكي الشهير (صموئيل زويمر) عما تخفيه صدور أعداء الإسلام فقال:

---

(١) الاستشراق د/ محمود حمدي زقزوق، ص: ٣١، ط دار المعارف سنة ١٩٩٧م.

(٢) الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، د/ عبد المتعال الجبري، مرجع سابق، ص٦٩، ٧٠، بتصرف واختصار.

«تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم ؛ لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها»[1] .

ومن ثم عمل المستشرقون على تخريج تلامذة لهم من العرب المسلمين الذين يدرسون في معاهدهم وجامعاتهم ، ويبثون سمومهم فيما يدرسون ويقرؤون ، فتتشبع عقولهم ببعض هذه السموم ، وبعد عودتهم إلى بلادهم يقومون بترديد هذه الأفكار على أنها حقائق ومسلمات ، وعلى أنها ثمرة بحث وفكر واجتهاد ، لكنها في حقيقة الأمر ما هي إلا ترديد لما يقوله المستشرقون ، وهذا أخطر ما يكون .

ومن خطورة هؤلاء أنهم من أهل البلاد الأصلية ، فهم أعلم بعاداتهم وتقاليدهم وطبائعهم ، وكيفية النفوذ إلى نفوسهم ، والناس لا يقفون منهم موقف العداء لأنهم ليسوا أجانب عنهم ، ويسلمون لكلامهم لأنهم يحملون درجة علمية متميزة ، لكنهم في الحقيقة كالسوس الذي ينخر في عظام الأمة فيضعفها ثم يهدمها .

ومن أمثلة هذا الصنف ممن لمعت أسماؤهم في مصر وآثارهم تشهد عليهم د/ طه حسين في الشعر الجاهلي ، ومستقبل الثقافة في مصر ، وعلى هامش السيرة ، وعلي عبد الرازق في كتابه: (الإسلام وأصول الحكم) .

لدرجة أن كثيرا من علماء المسلمين قالوا: «إن من يقرأ هذه الكتب السابقة ويقرأ كتب المستشرقين في نفس الموضوعات يجدها متفقة في الأهداف والنتائج ، أو أن مؤلفاتهم حاشية على كتب المستشرقين» .

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ، آل شاتليه ، ترجمة محب الدين الخطيب ، ومساعد اليافي ، ص : ٢٠ ، المطبعة السلفية بالقاهرة ، ط الرابعة سنة ١٣٩٨هـ .

تلامذة المستشرقين وأثرهم في طمس الهوية الإسلامية:

لقد نجحت الحملات التي قامت بها مؤسسات الغزو الفكري الغربي في تحقيق أغراضها نجاحا بعيدا حين ضمت إليها غالبية الفئة المثقفة من المسلمين وجعلتها في صفها تحارب الإسلام وثقافته .

وأكثر من هذا أن هؤلاء المثقفين صاروا يستنكرون الثقافة الإسلامية إذا تناقضت مع الثقافة الغربية التي يعشقونها ، ويتجهون في الحياة طبق مفاهيمها . من الجدير بيانه أن هذا النجاح الذي حققته مؤسسات الغزو الفكري الغربي تجاوز هذه الفئة المثقفة ، فقد أقبل الكثير من المسلمين على ثقافة الغرب من فقه وفلسفة وعلوم اجتماعية وغيرها يدرسونها ويطبقونها .

وقد كان لا بد لهؤلاء الأعداء من التشكيك في أصول الإسلام الكبرى ومقدساته العظمى ليتم لهم ما يتمنون ، فتشكلت فيالق وجيوش من حملة الأقلام المدمرة من المستشرقين ، فهذا جيش للتشكيك في كتاب الله تعالى المعجز ، وهذا جيش آخر للتشكيك في شخصية الرسول ﷺ ، وهذا جيش ثالث للتشكيك في السنة الشريفة ومكانتها وصحة نقلها . . .

ولما رأى هؤلاء المستشرقون أن عامة المسلمين ينظرون إلى كتاباتهم بعين الريبة ، ويقفون منها موقف الحذر ، وأن تطاولهم على مقدسات المسلمين أثار حفيظة الكثيرين ، فكروا في وسيلة تَنْفُذُ خلالها أفكارهم بنعومة ، ومن غير أن تثير ضجة وحساسية .

فرأوا أن الاعتماد على أناس من بني جلدتنا خير وسيلة تحقق هذا الغرض ، فما كان منهم إلا أن تعهدوا بعض أبنائنا فغذوهم بلبانهم حتى شبوا منها وعليها ، وإذا بهؤلاء الأبناء ناطقين بما يريد الأعداء المربون ، بل وبما كانوا أشد عداوة ، وأجرأ على قول الباطل من سادتهم وأساتذتهم .

وهكذا وجد فينا أقوام ألسنتهم ألسنة العرب وقلوبهم قلوب مستعجمة، ينفذون إرادة الأعداء بأمانة بلهاء، ويحملون عنهم عبء محاربة الإسلام.

«وسرت روح الهزيمة في طائفة عريضة ممن تثقفوا بقشور الثقافة الإسلامية أو الأعراف والمفاهيم الإسلامية، وولد حب التخلص من هذا الانتماء بأي وسيلة....»[1].

الشيخ / علي عبد الرازق:

وفي عام ١٩٢٥م أصدر الشيخ (علي عبد الرازق) وكان قاضيا بمحكمة المنصورة الشرعية الابتدائية كتابه المملوء بالسموم الاستشراقية (الإسلام وأصول الحكم).

وقد قابلت الدوائر الاستعمارية والمراكز التبشيرية النصرانية كتاب الشيخ علي عبد الرازق بالترحيب والتصفيق، وقد كشف المؤلف عن اتجاهه المنحرف هذا بنفسه في حديث مراسل صحيفة (اليورص إجيبشيان) حيث سأله المراسل: هل يمكن أن نعتبرك زعيما لمدرسة؟

قال: «لست أعرف ماذا تعني بزعيم مدرسة... فإن كنت تريد بهذا أن لي أنصارا يسرني أن أصرح لك أن الكثيرين يرون رأيي لا في مصر وحدها، بل في العالم الإسلامي بأسره، وقد وصلتني رسائل تأييد من جميع أقطار العالم التي نفذ إليها الإسلام»[2].

والكتاب كان بمثابة صيحة تغريبية تحاول أن تقضي على مفهوم الإسلام الجامع دينا ودولة بإثارة شبهة ماكرة لئيمة خادعة هي القول بأن الإسلام دين

---

(١) مجلة الإصلاح، عدد ٣٤، صفر ١٤٠١هـ.

(٢) انظر: العالم الإسلامي والمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر الهجري، فتحي يكن، مؤسسة الرسالة ط١١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

عبادي وأن الرسول ﷺ لم يكن في ذات الوقت حاكما أقام دولة، وكان الخطر الحقيقي من وراء كتاب الشيخ علي عبد الرازق كان هو: هدم مفهوم الإسلام بوصفه دينا ودولة ونظام مجتمع ومنهج حكم جامع.

قرار هيئة كبار العلماء وحيثيات الحكم:

اهتزت دوائر الأزهر والعالم الإسلامي لهذا الكتيب المزور، وانعقدت هيئة كبار العلماء برئاسة المرحوم محمد أبو الفضل الجيزاوي، شيخ الجامع الأزهر في ذلك الوقت، صباح الأربعاء ٢٢ المحرم سنة ١٣٤٤هـ (١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥م)، وكان عدد أعضائها أربعة وعشرين عالما.

وأصدرت الهيئة حكمها بإدانة المتهم وإخراجه من زمرة العلماء.. ويترتب على هذا الحكم المذكور: محو اسم المحكوم عليه من سجلات الجامع الأزهر والمعاهد الأخرى، وطرده من كل وظيفة، وقطع مرتباته في أي جهة كانت وعدم أهليته للقيام بأية وظيفة عمومية، دينية كانت أو غير دينية.

أما حيثيات الحكم فتوجز فيما يلي:

١- أن الشيخ علياً جعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة، لا علاقة لها بالحكم، والتنفيذ في أمور الدنيا...

٢ – زعم أن الدين لا يمنع أن جهاد النبي ﷺ كان في سبيل الملك لا في سبيل الدين، ولا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين.

٣ – زعم أن نظام الحكم في عهد النبي ﷺ كان موضع غموض وإبهام أو نقص موجب للحيرة.

٤ – زعم أن مهمة النبي ﷺ كانت بلاغا للشريعة مجرداً عن الحكم والتنفيذ..

٥ – أنكر إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام، وعلى أنه لا بد للأمة ممن يقوم بأمرها في الدين والدنيا.

٦ – أنكر أن القضاء وظيفة شرعية، حيث قال: إن الذين ذهبوا إلى أن القضاء وظيفة شرعية جعلوه متفرعا عن الخلافة، فمن أنكر الخلافة أنكر القضاء..

٧ – زعم أن حكومة أبى بكر والخلفاء الراشدين من بعده ﷺ كانت لا دينية...

يقول الأستاذ/ أنور الجندي: «الحقيقة أن كتاب (الإسلام وأصول الحكم) من الأعمال التغريبية والاستشراقية الخطيرة التي أريد بها هدم القاعدة الأساسية للإسلام، وهي قاعدة أن الإسلام دين ودولة في محاولة لتنصير الإسلام، وجعله مشابها للنصرانية التي هي بمثابة دين قائم على الوصايا وليس له تشريع؛ لأن تشريعه في اليهودية»[1].

الدكتور طه حسين:

١ – في الشعر الجاهلي:

في سنة ١٩٢٦م أصدر طه حسين كتابه: (في الشعر الجاهلي)، وقد جاء في صفحة (٢٦) ما نصه:

«للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي».

وبهذا أنكر هجرة سيدنا إبراهيم مع ولده إسماعيل عليهما السلام، وقال: «إن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي»، وهو تكذيب لصريح القرآن الكريم.

(١) مؤلفات في الميزان. الأستاذ/ أنور الجندي، ملحق مجلة منار الإسلام.

وقال في الصفحة نفسها: «ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة - يريد قصة الهجرة – نوعا من الحيلة لإثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية من جهة أخرى» .

وهو في هذا النص يصرح بأن القرآن اختلق هذه الصلة بين إسماعيل و(العرب) ليحتال على جلب اليهود وتأليفهم ، ولينسب العرب إلى أصل ماجد زوراً وبهتانا لأسباب سياسية أو دينية . . .

وقال في صفحة (٢٧): «وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة – الهجرة المذكورة . . .» .

وقد استدعت النيابة العمومية المؤلف وحققت معه ، وكان التحقيق منحصرا في النقاط الآتية:

١ – مسألة وجود سيدنا إبراهيم وإسماعيل وهجرتهما ، وأن هذه القصة أسطورة مختلقة لأغراض دينية وسياسية .

٢ – مسألة أن القراءات السبع للقرآن الكريم لم تنزل ، وأنها وردت على لسان القبائل كما هو ظاهر من لهجتها .

٣ – أن الإسلام ليس له سابقة وجود في البلاد العربية .

٤ – نفي إسناد نسب النبي ﷺ إلى أشراف قريش .

وقد أجاب المؤلف في التحقيق بأنه يقرر صدق هجرة إسماعيل عليه السلام إلى مكة ، ويؤمن بقصة بناء الكعبة كما وردت في القرآن ، ويؤمن بتنزيل القراءات ، بصفته مسلما معتقدا ، ولكنه لا يقرها بصفته عالما أديبا ، وقال: إن عدم إقرارها هو الطريق الوحيد العلمي للوصول إلى الشعر الجاهلي وتاريخه . . .

وسأله المحقق عما إذا كان يعتقد أن القرآن وحده كاف لإثبات الوقائع التي وردت فيه فأجاب على ذلك مقسما الوقائع إلى قسمين:

١ - الحوادث المعاصرة لنزول القرآن، وهو صحيح.

٢ - الحوادث التي حدثت قبل نزول القرآن، فهي عبارة عن قصص أراد الله بها إقناع عبيده وهدايتهم، وهي تنطبق على مسألة الهجرة وخلافها من المسائل[١]...

٢ - مستقبل الثقافة في مصر:

أصدر الدكتور طه حسين عام ١٩٣٨م، والدكتور ينذر فيه المصريين بأنهم التزموا أمام أوربا أن يذهبوا مذهبها في الحكم، وأن يسيروا سيرتها في الإدارة، وأن يسلكوا طريقها في التشريع، ويهددهم بأنهم لا يستطيعون التراجع عن ذلك، بعد أن وقعوا معاهدة الاستقلال، ومعاهدة إلغاء الامتيازات، وفيها مواد صريحة قاطعة تفرض على المصريين هذه التبعية التي يسميها «السير وسيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع».

ويقول: « فلو فهمنا الآن أن نعود أدراجنا، وأن نحيي النظم العتيقة (ويقصد بالنظم العتيقة الشريعة الإسلامية) لما وجدنا إلى ذلك سبيلا، ولوجدنا أمامنا عقبات لا تجتاز ولا تذلل...».

وإذا سألنا عن الطريق الذي يرسمه لنا مستقبل الثقافة لوجدناه يقول لنا:

«إن سبيل النهضة واضحة بينة مستقيمة، ليس فيها عوج ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم

---

(١) انظر: العالم الإسلامي والمكائد الدولية، مرجع سابق، ١١٩، ١٢٠، (تحت راية القرآن) للرافعي، ص١٣٠-١٣٣، الصحوة للنشر والتوزيع، ط الأولى ١٤١٢هـ - ٢٠٠٨م.

شركاء في الحضارة خيرها وشرها، وحلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع».

ويقول الأستاذ/ أنور الجندي: «ترجع خطورة الكتاب إلى أن صاحبه كتبه بناء على خطة واضحة في الغرب، وأنه ما لبث أن مُكّن من المنصب، فولي منصب المستشار الفني لوزارة المعارف على أثر ذلك مباشرة، ثم منصب مدير الثقافة بها، ثم عميداً لكلية الآداب من قبل ومن بعد، ثم مديرا لجامعة الإسكندرية، ثم وزيراً للمعارف على التوالي.

وقد مكنته هذه المناصب من عام ١٩٣٨م إلى ١٩٥٢م من تنفيذ برامجه وإرساء أسس هذه الخطة التي وضعها في كتابه خلال أربعة عشر عاماً...»[1].

٣ - ساطع الحصري:

(أبحاث مختارة في القومية العربية) كتاب يمثل خلاصة مؤلفات ساطع الحصري التي تتجاوز العشرين مؤلفا كتبها منذ ١٩٢٣ - ١٩٦٣م خلال أربعين عاما، وهي تصدر تطور تفكيره في قضية العروبة وعلاقتها بالإسلام، ومضاهاتها بمفهوم القوميات الأوربية، وقد تصاعدت كتاباته في فترة تعالى فيها مد القوميات في البلاد العربية والإسلامية.

والقومية (أطروحة غربية) أساسا ظهرت على أثر تمزق وحدة المجتمع الأوربي النصراني، حين ظهرت دعوة لوثر وكلفن تحت اسم (البروتستانتية) وكانت وراءها قوى تهدف إلى تدمير النظام النصراني الاجتماعي.

وقد تحدث ساطع الحصري كثيرا عن ظهور القوميات في أوربا، وتأثر بالنزعة القومية الأوربية التي واجهت الوحدة النصرانية الكبرى، ومنذ بدأت

---

(١) انظر: مؤلفات في الميزان، أنور الجندي، ص:١٩-٢١، ملحق مجلة منار الإسلام عدد(٥) السنة الحادية عشرة.

حركة البروتستانتية بدأت معها رياح القومية التي ترمي إلى إعلاء شأن الوطن والقوم وإحلالها محل الدين . . .

ومن ثم كانت القومية عاملا من عوامل المقاومة لسيطرة الإمبراطورية الرومانية ، بعد أن ارتبطت الكنائس البروتستانتية بالقوميات .

ولا ريب أن النظرة العلمانية إلى الإسلام المأخوذة من تجارب البلقان والوحدة الألمانية والإيطالية ، وتطبيقات الاتحاديين في تركيا الذين عملوا على انتزاع بلادهم من الإسلام إلى القومية ، كل هذا دعا ساطع الحصري إلى أن يفهم الإسلام على أنه دين لاهوتي ، ومن ذلك عبارته التي يرددها دائما (ترك الأمور السياسية خارج نطاق الأبحاث الدينية) وهي عبارة كنسية .

وهذا الذي حدث في الغرب النصراني مختلف تماما عن العرب والإسلام ، وإذا أردنا أن نواجه نظرية ساطع الحصري وجدنا أن أخطر دعاماتها تتهاوى أمام مفهوم الإسلام الحقيقي بوصفه دينا جامعا بين العقيدة ومنهج الحياة .

وأكبر أخطاء ساطع الحصري ومن يتبعه حتى اليوم من دعاة القومية بمفهومها الوافد ، هو فهم الإسلام على أنه دين لاهوتي يقيم العلاقة بين الله تبارك وتعالى وبين الإنسان على حسب ما تقوم عليه النصرانية .

ولكننا لا ننسى لساطع الحصري أنه حاجج الذين هاجموا تاريخ العرب ووصفوه بالسخافات والجهالات ، أمثال: سلامة موسى ، وحسين مؤنس ، وأمين الخولى ، وطه حسين ، وهاجم مفاهيم طه حسين الفرعونية ، ودعوته إلى تعليم اللغات اللاتينية واليونانية ، وهاجم سعد زغلول في قوله: «إن العرب أصفار»[1] .

---

(١) انظر: مؤلفات في الميزان ، أنور الجندي ، مرجع سابق ، ص: ٤٩ - ٥٢ .

المبحث الثاني
التبشير

التبشير هو المؤسسة التي اعتمد عليها الغرب في قيامه بالغزو الفكري. والغربيون سواء أكانوا سياسيين من وزراء المستعمرات والخارجية أم رهبان كنيسة لا يبالون في أن يسخروا روحانية الدين في سبيل سياستهم، والسياسة هنا معناها (استعباد الغرب للشعوب)[1].

لذلك راح الغرب بمؤسساته السياسية والكنسية والاستشراقية يُعدّ المبشرين، ويعمل على ما يسهل لهم أحوال المسلمين الاجتماعية والفكرية والاقتصادية وغيرها، وهم الذين يزرعون الشكوك في نفوس المسلمين ويعملون على زعزعة عقائد المسلمين ويبثون في صفوفهم أسباب الفرقة والنزاع والعداء والتشاجر، حتى تضعف قوتهم، وتذهب ريحهم، فيسهل على الاستعمار وجيوشه احتلال ديار الإسلام.

والتبشير كما جاء في الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: «حركة دينية سياسية استعمارية، بدأت بالظهور إثر فشل الحروب الصليبية بغية نشر النصرانية بين الأمم المختلفة في دول العالم الثالث بعامة، وبين المسلمين بخاصة بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب»[2].

ويستفاد من هذا التعريف أن التنصير حركة واسعة النشاط، تعمل بالليل والنهار، يقوم بها رجال الدين من النصارى ورهبانهم، وتطورت هذه الحركة واتسعت حتى عمت جميع النصارى، فالطبيب والمعلم والضابط والعامل جميعهم يعملون في مجال التنصير مباشرة أو مساعدة، وهدفهم جميعا من التنصير

---

(١) التبشير والاستعمار، مصطفى الخالدي وعمر فروخ، ص:٤٨، ٥١، ٥٢.

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض، ص: ١٥٩، ط الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

تشويه صورة الإسلام، والتشكيك فيه وتحويل المسلمين إلى نصارى عقيدة أو سلوكا.

البدايات الأولى للتبشير:

استمرت الحروب الصليبية قرابة قرنين من الزمان، وباءت بالفشل الذريع، وبهزيمة الصليبيين هزيمة منكرة، ووقوع قائدهم لويس التاسع أسيرا، وسجن في دار القاضي ابن لقمان بالمنصورة، وقتها فكر لويس التاسع – بعدما فداه قومه من الأسر – والغرب من ورائه في وسيلة أخرى لإضعاف العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين، وإخماد جذوة الإيمان من قلوبهم، فكان الغزو الفكري، وكانت الخطة الجديدة السلمية لتنصير العالم الإسلامي دون مواجهة عسكرية مسلحة.

وإذا كان الاستشراق بدأ مبكرا في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) فإن التنصير جاء متأخرا عقب فشل الحروب الصليبية، أي في بداية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

يقول د/ علي جريشة: «لقد كان ميلاد التنصير – مع فشل الحروب الصليبية – تنفيذاً لوصية قائد الحملة الثامنة لويس التاسع الذي نبه إلى قوة العقيدة الإسلامية ووقوفها في وجه أي زحف حربي، مثيرة روح الجهاد في سبيل الله، ومن هنا توجه التبشير إلى العقيدة، محاولة لقتلها بالفكر والختل، بعد أن عجزوا عن قتلها بالسلاح والقتل» [١].

ولقد قام رجال الدين من النصارى – بعد الحروب الصليبية – بعدة خطوات لتدل على سعيهم الجاد وحركتهم النشطة في سبيل التنصير، وسجلوا معالمها في بعض كتبهم:

---

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة، د/ علي جريشة، ص: ٢٤ ، ط دار الوفاء ١٩٩٠م.

١ – جاء في كتاب ملخص تاريخ البشر لمؤلفه أدوين بلس البروتستانتي ، أن ريمون لول الأسباني هو أول من تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية في مهمتها فتعلم لول اللغة العربية بكل مشقة ، وجال بلاد الإسلام وناقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة .

٢ – منذ القرن الخامس عشر وأثناء الاكتشافات البرتغالية دخل المبشرون الكاثوليك إلى أفريقيا ، وبعد ذلك بكثير أخذت ترد الإرساليات التبشيرية البروتستانتية ، إنجليزية وألمانية وفرنسية .

٣ – البارون دوتيز حرك ضمائر النصارى منذ عام ١٦٦٤م إلى تأسيس كلية تكون قاعدة لتعليم التبشير المسيحي .

٤ – المستر كارى فاق أسلافه في مهمة التبشير فدرس عدة لغات ، وتعلم كثيرا من العلوم ، وأخذ ينشر الكتب في التحريض على التبشير ، وقد قوبلت هذه الكتب بالاستحسان في أوربا ، ولقيت دعما ماليا كبيرا من دول أوربا ، وأسس جمعية لندن التبشيرية ، ثم عمت هذه الجمعيات في باقي دول أوربا ، ولها جمعيات فرعية كثيرة ، مثل: جمعية التبشير في أرض التوراة العثمانية .

٥ – ثم أسست إرساليات تبشيرية طبية على سبيل التجربة ؛ لتحلق بالإرساليات العامة . وفي عام ١٨٥٥م تألفت جمعية الشباب المتطوعين للتبشير في البلاد الأجنبية ، ولقيت دورا مهما في تبشير المسلمين .

٦ – وفي ١٩٠٢م تأسست جمعية تبشيرية للشبان ، ومهمتها توجيه النساء والبنات والشبان والطلبة إلى استماع صوت المبشرين ، وفي عام ١٩٠٧م تأسست جمعية أخرى لتبشير الكهول .

٧ – وفي ١٨١٩م اتفقت جمعية الكنيسة البروتستانتية مع أقباط مصر، وألفت فيها إرسالية عمدت إلى نشر الإنجيل في أفريقيا[١].

ويتبين من هذا أن تغيير الخطة استلزم معها تغيير الوسائل، فأقبل المنصرون على تعلم اللغة العربية، وتنقلوا بين البلاد الإسلامية ليتفهموا طبيعة الإسلام من عقيدة وتشريع وأخلاق، ويقابلوا العلماء ويناقشوهم، وتظاهروا في مسوح مختلفة، مثل الإرساليات الطبية، والاكتشافات الجغرافية، وأعدوا جميع فئات المجتمع في جمعياتهم الكنسية للقيام بأعمال التنصير في بلاد المسلمين.

أبرز المنظمات التبشيرية:

المخطط التنصيري في العالم الإسلامي لا يعمل عملا ارتجاليا دون تنظيم أو تخطيط، ولكنه يحرص على التخطيط لنشاطاته وممارساته على المستوى المحلي والعالمي، والتنسيق بين منظماته وإرسالياته وجماعاته.

وإذا تحدثنا عن المنظمات التنصيرية نجد أن الأمر لم ينته بالشكل التنظيمي للتنصير عند حد تكوين مجالس تنصيرية، واتحاد هذه المجالس مع مجالس واتحادات الكنائس العالمية، وتكوين مجلس الكنائس العالمي، ولكن شمل هذا الشكل التنظيمي والتخطيطي أمرين آخرين:

الأول: إنشاء معاهد علمية متخصصة لتدريب المنصرين وإعدادهم، وإجراء البحوث والدراسات الخاصة بالإسلام والمسلمين.

والثاني: تكوين عدد من المنظمات التنصيرية المنتشرة في أنحاء العالم.

وقد بلغ عدد المدارس اللاهوتية التي أنشئت لتخريج المنصرين والقسيسين في أفريقيا وحدها خمسمائة مدرسة، بالإضافة إلى عشرين ألف معهد كنسي في أنحاء القارة.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة للأديان، مرجع سابق، ص: ١٥٩، ١٦٠.

وبعد معاهد ومراكز التنصير تأتي المنظمات التنصيرية ؛ إذ يحرص المنصرون كل الحرص على تكوين الكثير من المنظمات التنصيرية في كل دولة يعملون فيها ويوجهون إليها إرسالياتهم ؛ حتى يتحقق التنظيم المطلوب لهذا النشاط ، وتقوم هذه المنظمات بالتخطيط له ، ومتابعة مشاريعه وخططه وأهدافه وإنجازاته ، والأمثلة على هذه المنظمات كثيرة ومتعددة ، ففي دول العالم أجمع تعمل منظمة (دائرة تنصير الشعوب) ومقرها الفاتيكان عاصمة النصرانية ، ويبلغ عدد المدارس والمعاهد التي تشرف عليها هذه الدائرة ٥٨ ألف مدرسة و٢٦ ألف معهد وجامعة ، وقد بلغ عدد المدرسين العاملين في المدارس التابعة لهذه المدرسة ٤١٧ ألف مدرس ومدرسة ، وتدير الفاتيكان الأموال اللازمة لتشغيل هذه المدارس وكذلك المستشفيات والمعاهد التابعة لهذه المنظمة .

وفي ليبيريا الآن حوالي ٥٠٠ منظمة تنصيرية ، وقد بدأت هذه المنظمات تكشف عن أنيابها السامة لافتراس الضحية المسلمة .

وفي المنطقة العربية تعمل عدة منظمات تنصيرية مسجلة ، منها:

١ – منظمة عملية التعبئة وزمالة الإيمان من أجل المسلمين .

٢ – إذاعة عبر العالم .

٣ – اتحاد إذاعات الشرق الأدنى .

٤ – لجان لوزان للتنصير العالمي .

٥ – مركز الشباب اليافعين .

وفي منظمة الخليج العربي تعمل ثلاث منظمات تنصيرية ، هي:

١ – جمعية مبشري الكنيسة .

٢ – الاتحاد العالمي للكنائس .

٣ – الإنجيل والزمالة الطبية للمبشرين .

أما جمعيات التنصير البروتستانتية التي تعمل في منطقة الخليج فتبلغ ست جمعيات مسجلة، هي:

١ - A.M العالمية.

٢ - كنيسة الإصلاح في أمريكا.

٣ - كنيسة مشايخ الإنجيل.

٤ - كنيسة المشايخ في أمريكا.

٥ - بعثة التحالف الإنجيلي.

٦ - الحملة الصليبية الإنجيلية عبر العالم.

وفي أفغانستان - ونتيجة للصراع الذي دام سنوات طويلة - تعمل أكثر من ١٠٣ منظمات إغاثة صليبية في أوساط اللاجئين الأفغان في باكستان وداخل أفغانستان، في مقابل ١٢ منظمة إسلامية فقط تعمل في العمل الإغاثي.

ومن هذه المنظمات التنصيرية:

١ - منظمة الاعتقاد الأمريكية: وتبلغ ميزانيتها ١٤٥ مليون روبية، وعدد المشروعات التي تعمل فيها ١٨ مشروعا، و١٣ مدرسة في بيشاور وكوهات، ولها نشاط ملحوظ في إعداد برامج التعليم، وأغلب العاملين فيها من الباكستانيين المسيحيين، ويرأس نشاطها في أفغانستان مسيحي حبشي، وتقدم العون والدعم لعدد كبير من المدارس من خلال شراء الكتب وصرف مرتبات المعلمين.

٢ - مؤسسة العون الكنسي العالمي (A.C.I) وهي تابعة لمجلس الكنائس العالمي وتبلغ ميزانيتها ٢٥ مليون روبية، وتعمل في ٥٠ مشروعا ما بين مدارس ومستوصفات.

٣ – مؤسسة العون الأفغاني البريطانية (D.A.A): وهي تابعة للكنيسة الإنجليكانية وتبلغ ميزانيتها ١٢٣ مليون روبية، وتعمل في ٤٠ مشروعا في أفغانستان وباكستان، ونشاطها يتركز على التعليم والصحة وإنشاء المدارس والعمل الاجتماعي والزراعة.

٤ – مؤسسة العون الكنسي النرويجية للإغاثة: وتعمل في ٣٠ مشروعا في الخدمات الصحية والتعليم.

٥ – مؤسسة (تيم) الأمريكية التابعة للكنيسة الأمريكية ومقرها باكستان: وتبلغ ميزانيتها ١٢٥ مليون روبية وتعمل في ٥٠ مشروعا تجمع بين الخدمات الصحية وإنشاء المعاهد والمدارس وطباعة الأناجيل.

وهذه المنظمات التنصيرية مجرد نماذج فقط لآلاف المنظمات العاملة في أفغانستان، وفي غيرها من الدول الإسلامية وغير الإسلامية[(١)].

وسائل المبشرين:

لم يترك التبشير وسيلة من الوسائل التي يمكن أن يحقق بها أهدافه إلا واتبعها وأخذ بها، ومن هذه الوسائل نذكر:

أولاً التعليم:

وهو ميدان فسيح اتخذ التبشير وسيلة لتحقيق أهدافه، فقد أنشأ المبشرون المدارس على اختلاف مراحلها كمدرسة المطران والتراسانطة والفريد، والفرندز وشنلر والمدارس الأرثوذكسية وغيرها كثير.

---

(١) انظر: أ – حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٨١م.

ب – الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب، د/ كرم شلبي، مكتبة التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

ج – الزحف إلى مكة، د/ عبد الودود شلبي، دار الزهراء للإعلام العربي، ط١، ١٩٨٩م.

وأنشأوا الكليات الجامعية في مراكز بلدان العالم الإسلامي كالكلية السورية الإنجيلية التي أقاموها في بيروت عام ١٨٦٥م وهي المسماة الآن بالجامعة الأمريكية، ولم يكتفوا ببيروت بل أقاموا كلية في القاهرة، وأقاموا كلية (روبرت) في استانبول، وكلية لاهور، وكلية (غوردن) في الخرطوم، وإلى جانب ذلك الجامعة اليسوعية في بيروت[1].

والتعليم أحسن ما يعوّل عليه المبشرون في التحكم بالمسلمين، يقول المبشر الأمريكي (ستيفن بنروز) رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت (١٩٤٨ - ١٩٥٤):

«إن المبشرين قد خابوا في هدفهم المباشر، وهو تنصير المسلمين جماعات جماعات، يكفى أنهم قد أحدثوا بينهم آثار نهضة (أي نهضة أوربية)» ويتابع بنروز قوله: «ولقد برهن التعليم على أنه أثمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجأوا إليها في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان»[2].

وقد اعترف المبشرون أن عملهم (الإنساني) قاصر على زعزعة عقيدة المسلمين لأنهم عجزوا عن اكتساب المسلمين إلى صفوف النصرانية.

وقد اتجه المنصرون منذ فترة طويلة إلى إنشاء المدارس وتأسيسها، وبناء المعاهد والجامعات، وهذه الوسائل في الأصل لنشر العلم والمعرفة، لكن المنصرين يستغلونها في تحقيق أغراضهم كالعادة، فمن خلال وسائل التعليم يستطيعون أن يشكلوا عقول النشء الصغير، ويساهموا في تغيير تفكيره، وإفساد الفطرة الإلهية فيه ليستعبدوا الأفراد، ويحتلوا البلاد.

والمدارس التي أقاموها يدفع إليها بأبناء الأثرياء والمسؤولين، ومن هؤلاء النشء في المستقبل منهم من يكون في وظائف ومناصب رفيعة ولهم ولاء

(١) انظر: التبشير والاستعمار، مرجع سابق، ص: ٤٧، ٩٠.
(٢) انظر: حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، أحمد عبد الوهاب، ص:٦٦.

سابق ، وطاعة واسعة لمن تتلمذوا على أيديهم ، وساهموا في تشكيل عقولهم وثقافتهم ، وبذلك يصل المنصرون إلى هدفهم لجعل تلك البلاد وأهلها تابعة لهم دون أن يسوقوا الجيوش .

وإذا كان أغلب المسلمين ينفرون من المدارس النصرانية ، فإن معاول التبشير تسهل التحاقهم بالمدارس العلمانية أو التعليم العلماني بعيدا عن التعليم الديني .

يقول هوارد ويلس رئيس الجامعة الأمريكية الأسبق في بيروت: «التعليم في مدارسنا وجامعاتنا هو الطريق الصحيح لزلزلة عقائد المسلم وانتزاعه من قبضة الإسلام»[١] .

ويقول د/ عبد الجليل شلبي: «أنجح ما تعمله الجماعات التبشيرية الآن هو تبني الأطفال الفقراء وأبناء المعوزين ، فتقدم لهم الغذاء والكساء ، والمسيحية إزاء المجاعات التي تفشت في إفريقيا استفادت الجماعات التبشيرية هناك كثيرا»[٢] .

والقضية لم تقتصر على البعثات التبشيرية داخل البلاد الإسلامية ، وإنما تجاوزتها لتشمل الطلبة الوافدين على أوربا للدراسة والتخصص ، ويشير تقرير صادر عن اتحاد الكنائس يذكر بالمبادئ التي لا بد من اعتمادها في مواجهة الطلبة المسلمين الوافدين على بريطانيا ، ومن أهم هذه المبادئ: البدء بالطالب الخالي من اهتمامه بدينه ، لكونه فريسة سهلة ، وفرصة سانحة للمنصرين ، ويحدد التقرير طريقة الاتصال بالطالب المسلم بعدم ذكر الدين مطلقا عند بداية

---

(١) الزحف إلى مكة ، مرجع سابق ، ص٧٩ .

(٢) معركة التبشير والإسلام ، ص: ٣٠ ، مؤسسة الخليج العربي ، ط الأولى ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

التعرف عليه، وأن يكون المنصر طبيعيا في معاملته له، سواء أثناء الأكل أو في المختبر أو الملعب، وأن يظهر اللطف والعطف والتفاهم طوال الوقت، وألا يسعى إلى قطف الثمرة قبل نضجها، فهذا سيؤدى حتما إلى انهيار المخطط من أساسه.

ويدعو التقرير المبشرين النصارى بالنفاق في تعاملهم مع الطلبة المسلمين، فيطلب منهم أن يكونوا معتدلين في علاقاتهم مع الفتيات أمام الطلبة المسلمين، وأن يتجاهلوا ذكر المشاكل والمنازعات القائمة بين الدول الإسلامية، وأن يتجنبوا كل حديث عن فلسطين، ويتخلوا عن تأييدهم لإسرائيل أثناء مقابلتهم للدارسين المسلمين.

ويعرج التقرير إلى ذكر الخلافات العقدية بين الإسلام والنصرانية وكيفية الرد عليها، وينتهي بنصح المنصرين بإتمام إعلان تنصير المسلم في هدوء وبعيداً عن الضجة والدعاية، حتى لا يتسبب ذلك في إحراجه مع أسرته وأصدقائه، وذلك على أن يتم التنصير هنا قبل عودة الطالب إلى وطنه[1].

ويرى المبشرون أنه يجب أن يحمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم الرشد، وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية؛ لهذا كان التعليم أحسن الوسائل للوصول لقلوب المسلمين في اختيارهم للمسيحية، وإبعادهم عن الإسلام بإقناعهم بأن العلمانية هي وسيلة الرقي والتحضر، واكتساب علوم العصر.

ويسعى الغرب إلى إنجاح خطة التنصير في المشرق، لما لها من نتائج على سياسة الفصل بين الشعوب الإسلامية ودينها الحنيف الذي كلما تمسكت به،

---

(١) مواجهة التبشير للنصرانية بين صفوف الطلبة المسلمين، د/ فاروق مساهل، مجلة الأمة، عدد (٤٦)، السنة الرابعة، شوال ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

ازدادت قوتها ، وعم ازدهارها واكتملت قوتها ، لهذا كان التعليم أقوم سبيل لبلوغ أهداف التبشير ، ويرى (هنري جسب) أن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إنما هو واسطة إلى غاية فقط ، هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادا مسيحيين وشعوبا مسيحية[١] .

واختيار المعلم يأتي بدقة متناهية ، حتى يستطيع أن يؤدى عمله التنصيري بنجاح «فلا يكفى من المعلم أن يكون مسيحيا فحسب ، بل يجب أن يكون مسيحيا من كل قلبه ، وأن يطبق الحياة المسيحية على المبادئ الاجتماعية والسياسية الدولية ، ولهذا كان المعلم الأجنبي أفضل من المعلم الوطني ، وخصوصا إذا كان المعلم الوطني مسلما»[٢] .

والتعليم التنصيري يساهم في صناعة قادة الدول ، فهم يدربون المنصرين الذين يعملون في التنصير على الطلاب ، ويستقطبون النابهين منهم ، ويقوموا بتشكيل عقولهم ، وصياغتهم صياغة غربية .

وقد نقل د/ نبيل صبحي قول أحد المنصرين: «فبين آلاف الطلاب – وكلهم يستحقون التربية – فئة صغيرة من المتحمسين الجادين ، قادة المستقبل في الشرق الأدنى ، هؤلاء هم الذين يدربهم مبشرنا ليصبحوا أساتذة وأطباء وتجارا وصيادلة وأطباء أسنان ومهندسين وممرضين من الرجال والنساء الذين يتجاوبون بوعي أكثر واستعداد أكثر من باقي زملائهم ، مع المناخ النفسي للكلية ، وهم يحضرون بطريقة محددة ليصبحوا مراكز الضوء والقيادة في هذه المنطقة»[٣] .

---

(١) التبشير والاستعمار ، د/ مصطفى الخالدي ، وعمر فروخ ، ص: ٦٦ ، المكتبة العصرية لبنان .

(٢) الزحف إلى مكة ، ص: ٨٤ .

(٣) مجلة الأمة القطرية ، مقال د/ نبيل صبحي ، عدد صفر سنة ١٤٠٥هـ .

ويقول (هوارد بلس) الرئيس الأسبق للجامعة الأمريكية في بيروت: «الواقع أن الفائدة الرئيسية التي تقدمها الكلية للمنصر كحقل غني لنشاطاته هي في الحقيقة أن بدائرته جسما مختارا من الشباب قادة المستقبل في بلادهم يتفردون بالاستجابة لفكر جديد في الأخلاق والدين والمثل، ولقد نجح التنصير في (طبخ) قادة كثيرين تسللوا – ولا يزالون – إلى مراكز السلطة في العالم المسلم كله تقريبا، ولقد وصل فعلا خريجو الجامعة الأمريكية ممن غسلت أدمغتهم إلى المناصب القيادية في أكثر البلاد العربية»[1].

ثانياً: الطب:

الطب عمل إنساني يخفف الآلام، وسبب لإزالة الأمراض والأوجاع، وإذا كانوا يقولون عن الأطباء الذين يسهرون من أجل راحة الآخرين: إنهم ملائكة الرحمة، فهذا إنصاف لمهنتهم التي يستمدون منها احترام الناس وتقديرهم.

لكن للأسف الشديد أن التنصير حول آية الرحمة إلى سوط عذاب، وجعل الطب وسيلة إكراه على المرضى لتغيير معتقداتهم، وقبول النصرانية دينا بديلا عن دينهم الذي كانوا عليه، فمن تصريحاتهم:

١) حيث تجد بشرا تجد آلاما، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب، فهناك فرصة مناسبة للتبشير، فإن لم يستطع أن يحولهم ويجعلهم نصارى حقيقيين، فإنه يؤثر في نفوسهم على الأقل.

٢) يصرحون بأنهم يبنون المستشفيات ليأتوا بالمرضى لمعرفة أن المنقذ ربنا المسيح يسوع، وأن يكون هؤلاء القائمون على أمر المستشفى أعضاء عاملين في الكنيسة المسيحية الحية.

---

(١) الزحف إلى مكة ص: ٨٧.

٣) يفضلون أن يزور الطبيب المبشر المريض المسلم في بيته ، ويجمع له عددا غفيرا من المسلمين ، وحينئذ تكون الفرصة سانحة للتبشير بين أكبر عدد من المسلمين في القرى والريف .

٤) على الطبيب أثناء الكشف على المريض بالمستشفى أن يذكره بالمسيح لحظة الكشف وحمله على أن الذي يشفيه هو المسيح .

٥) كانت مراكز التطبيب هي مراكز التبشير في أول الأمر ، ثم أسست مراكز التطبيب ، ثم أخذت العناية بالطب تقل وتزيد في التبشير ، حتى حل التبشير المحض محل الطب الذي هو علاج للناس .

٦) استخدامهم للحيل وخداع المريض ، فأحيانا يعلنون عن قدوم الطبيب قبل موعده بوقت طويل ، فيأتي الناس من كل صوب يحملون مرضاهم ، وينتظر الجميع قدوم الطبيب ، وفي هذه الأثناء يقوم فيهم من يبشر وسط هذه الجموع دون أن يراعي آلام الناس ، وقد لا يأتي الطبيب ، وأحيانا ينصرف المريض بنسخة حسنة الطبع من الإنجيل ووصفة خاطئة[١] .

والخدمات الطبية عند المنصرين ليست عملا إنسانيا محضا كما سبق ، وإنما هي مساومة لتغيير الدين والاعتقاد ، ففي باكستان: (فإن التصرف المشترك بين كل المستشفيات والمعاهد التربوية التبشيرية (النصرانية) هو أنها تفرض رسوما باهظة على المرضى والطلاب المسلمين ، وإذا اعتنق أحد من الفقراء النصرانية ، فإنه يزود بالتسهيلات (الخدمات) الطبية والتربوية بلا مقابل أو رسوم رمزية ، وواضح أن هذا ليس تبشيرا دينيا ، وإنما هو محاولة للمساومة والعبث بالضمير الإنساني والعقيدة مقابل فتات تافه) [٢] .

---

(١) التبشير والاستعمار في بلاد المسلمين ، د/ عمر فروخ ص: ٥٩-٦٢ بتصرف واختصار .

(٢) الزحف إلى مكة ، مرجع سابق ، ص: ٤٦ .

ثالثاً: العمل الاجتماعي:

يعد العمل الاجتماعي من المجالات الحيوية بالنسبة للتبشير ، فعن طريقه اتصلوا بالمسلمين ، وعاشوا في وسطهم يبثون ما يشاؤون من اتجاهات وأفكار وقيم وأساليب حياة ، ولتحقيق هذا القصد أسسوا النوادي والمراكز الخاصة للتبشير ، ونظموا المخيمات الكشفية للفتية والفتيات ، وأسسوا جمعية الشبان المسيحيين ، وجمعية الشابات المسيحيات وبيوت الطلبة ويقولون عنها: «إن هذه البيوت يجب أن تكثر حتى يمكن أن تجتذب هؤلاء الطلاب إلى مملكة المسيح .

وأسسوا كذلك جمعيات تحت شعار الإحسان والبر ، والإحسان - كما يقول زويمر كبير المبشرين - هو استخدام الصدقات لاكتساب الصابئين»[١] .

والمبشرون ما كانوا يوما ما محسنين ولكنهم كانوا يتخذون الإحسان وسيلة للوصول إلى أهدافهم التبشيرية والاستعمارية ، ولذلك قلما وثق المسلمون بالمبشرين وبأعمالهم الاجتماعية وجمعياتهم (الخيرية) ؛ لأنها في حقيقتها وسيلة إلى تبشير ديني هو بدوره وسيلة أخرى إلى الاستعمار بأنواعه[٢] .

والكنيسة تمتلك أموالا ضخمة على مستوى العالم بما تفرضه على أتباعها من سهم شهري يخصم تلقائيا من مرتباتهم ، ويصاحب ذلك التبرعات التي تأتي للكنيسة من الدول التي لها طموحات استعمارية .

ولا شك أنها توظفها لخدمة أغراضها ، وخاصة التنصير في بلاد العالم الثالث من قارتي أفريقيا وآسيا ، فيعطون بسخاء لكل شخص بعيدا عن الكنيسة ، فكلما اقترب من الكنيسة قل العطاء ، وهم يصرحون بذلك ، فقد نقل د/ عمر فروخ قول أحدهم: «أما أعمال الإحسان فيجب أن تستعمل

---

(١) التبشير والاستعمار ، مرجع سابق ، ص١٣٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص: ١٩٩ .

بحكمة ؛ كيلا تذهب في غير سبيلها يجب أن تعطى الأموال للبعداء عن الكنيسة ، ثم تقل تدريجيا كلما اقترب أولئك من الدخول في الكنيسة (اعتناق مذاهبها) فإذا دخلوها منع عنهم الإحسان مرة واحدة»[١] .

وتتسع دائرة استغلال أعمال البر عندهم لتتعدى إلى زيارة المرضى في المستشفيات والمسجونين في السجون والمعتقلات ، والنوازل ، والمآتم التي يصاب فيها الناس ، فهم ينفذون من خلال هذه الأعمال إلى غرضهم النهائي وهو التنصير دون مراعاة لطبيعة المكان والزمان والأحداث التي تحيط بالإنسان .

إن التنصير يستغل ظروف الناس الاجتماعية أسوأ استغلال ، ففي إندونيسيا يحكي أحد المسلمين هناك قضيته قائلاً: «إن لي نسيبا اعتقلته الحكومة بسبب اشتراكه في الانقلاب الشيوعي الفاشل ، وبقيت أسرته تعاني العوز بعد اعتقاله ، وقد اتصل به في المعتقل أحد المبشرين وسأله: هل تحب أن تتلقى أسرتك معونة تنقذها من غائلة الضياع والفاقة؟

فأجاب نسيبي على البداهة: طبعا ، ولكن من هو الإنسان النبيل الذي يقدم لأسرتي تلك المساعدة الكريمة في هذه الظروف بالذات؟

فقال له المبشر: إن المعونات ستصل إلى أسرتك بانتظام ، ولكن عليك أولا أن توقع على هذا الصك معترفا بالتنصير .

ولم يفكر نسيبي طويلا ووقع على الصك ، وأصبحت أسرته تتلقى المعونة بانتظام . ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط ، فلي أخت أخرى حين رأت شقيقتنا قد تحسن حالها بفضل المعونة التي تلقاها بعد أن تنصر زوجها قالت لي هذه الأخت: إن أختنا قد نالت معونة منتظمة وأنا في أشد الحاجة إلى مثلها ، فهل بإمكانك تأمين مثل تلك المعونات لي أم أقتدي بأختي . . .؟

---

(١) التبشير والاستعمار ، مرجع سابق ، ص: ٤ .

وقصدها واضح ، إنها تريد منى أن أؤمن لها حاجتها المعيشية ، كما أمنت لأختها ، وإلا فإنها ستقتفي آثار أختها ، حذو النعل بالنعل . . . ومن أين لي ذلك ، وأنا شخصيا أعيش عيشة الكفاف ، ولكني لا أريد أن أرى أختي الأخرى من ضحايا التبشير»[١] .

لقد استغل المبشرون كل شيء ، واندسوا وراء كل فكرة ، وقاوموا بأسماء مختلفة كل حركة إرجاع للإسلام إلى مكان القيادة في العالم الإسلامي والعربي ، والكتاب الذي ألفه مجموعة من المبشرين باسم «أسس جديدة للتبشير» يوضح أن أعمال الخير يجب أن تستغل بحكمة ، فلا تنفق الأموال إلا في سبيلها ، ويجب أن تعطى الأموال أولا للبعداء ، ثم يقل دفعها تدريجيا كلما زاد اقتراب هؤلاء إلى الكنيسة .

وهذه هي إندونيسيا أكبر دولة إسلامية ، يتم فيها هذا وغيره من الطرق الخسيسة التي تستغل ظروف الناس الاجتماعية لتمارس معها التنصير ، وهذه حالة صريحة من بين آلاف الحالات التي لم تكشف النقاب عما وقع لها .

فكيف بغير إندونيسيا؟ وكيف بالحالات المستترة التي لم تعلن عن نفسها؟ أو لم تنشر في الكتب حتى يطالعها الناس؟!

رابعا : الصحافة والإعلام :

لوسائل الإعلام أثر كبير في تشكيل الرأي العام وصناعته وتوجيهه ، وذلك بما تبثه من فكر وقضايا وأخبار عالمية ومحلية موجهة ، فتوجه العقول والآراء حسبما تريد ، فتصل إلى هدفها من أقصر الطرق ، ومن بين وسائل الإعلام التي استخدمها المنصرون الصحافة .

---

(١) الزحف إلى مكة ، ص: ٥٣ .

يقول أ/ عبد الله التل موضحا دور الصحافة وخطرها في التنصير: «أما الصحافة التبشيرية في ديار الإسلام، فقد ركزت جهودها على نشر الفساد والخلاعة بين الناس وشبان المسلمين، عن طريق المقالات الإباحية، والكتب الجنسية، والمجلات الخليعة، التي تبث سموم الثقافة اليهودية المدمرة، وشجعت على تعاطي المسكرات والمخدرات، وأشرفت على ما تسميه بالفن، وغذته ودافعت عنه، ليس إلا دعارة رسمية سافرة تحتمي بكلمتي الفن والحرية الزائفتين، وقادت صحافة التبشير كذلك معارك الهجوم على الحضارة الإسلامية، ونادت بإحياء الحضارات الميتة، مثل: الفينيقية والفرعونية والآشورية، ونادت بالقومية العربية الملحدة والمجردة عن الإسلام»[1] .

ولا شك أن الإعلام المعاصر بتقنيته الحديثة- مثل الأقمار الصناعية- استطاع النصارى أن يوظفوه لخدمة أغراضهم التنصرية، ونشرت مجلة المجتمع الكويتية في عددها الصادر في ١٨ أكتوبر سنة ١٩٨٨م تحت عنوان ضخم في الافتتاحية (الأقمار الصناعية في خدمة التنصير) وأكدت أن الأنباء المفجعة تواترت أخيرا عن موافقة الفاتيكان على مشروع ضخم تقدم به الأب الكاثوليكي (جوساني) يتمثل في بناء محطة تليفزيونية كبيرة للبث منها، وفي جميع أنحاء العالم (للتبشير بتعاليم الإنجيل) بواسطة ثلاثة أقمار صناعية؛ حيث سمي بمشروع (لومين ٢٠٠٠) والذي يعتبر الأول من نوعه من حيث الحجم، واتساع مساحة البث، وإمكان السيطرة إعلاميا على جميع قارات العالم، وبالخصوص قارتي أفريقيا وآسيا، اللتين يوجد المسلمون فيهما بشكل مكثف.

هذا المشروع الذي يموله مليونير هولندي، كان ضابطا سابقا في الجيش، يهدف في الدرجة الأولى إلى تحقيق أهداف مجلس الكنائس العالمي في تنصير

---

(١) جذور البلاء، عبد الله التل، ص: ٢٣٠، ط الثالثة، المكتب الإسلامي، ١٤٠٨هـ.

المسلمين ، أو على الأقل زعزعة عقائدهم عن طريق البث الثقافي التليفزيوني اليومي المستمر ، بلغات متعددة للتبشير بتعاليم الإنجيل تحت اسم (التنوير) و(التعاون) و(محاربة الجهل) وكلها مسميات للتمويه على القيادات السياسية ، والحكام المسلمين[1] .

(١) الزحف إلى مكة ، مرجع سابق ، ص: ٢١ ، ٢٢ .

المبحث الثالث
حملات الاستعمار

وجوه كثيرة تصور حقيقة بشعة وقبيحة نلتقي بها منذ عرفنا هذا الغرب حين جاء على مدافع بونابرت في نهاية القرن الثامن عشر ، وتوالت في صور شوهاء حادة جافة بدت في ذروة اكتمالها مع نهاية القرن العشرين ؛ حيث نعيش جميعا محاولة الغرب لإعادة رسم خارطة الكرة الأرضية بطريقته الخاصة .

إنها وجوه كثيرة دالة ترسم خلفها جميعا صورة هذا الغرب الذي يحاول أن يخدعنا ، فيزيد من قبضته علينا ، مردداً عباراته التي لا تخلو من معنى العولمة ، وحوار الحضارات ، والكونية ، والكوكبية ، والحداثة ، وما بعد الحداثة . . . إلخ .

ومن الأمور التي أصبحت معروفة في أسباب الحروب الصليبية أن تلك الأسباب كانت في ظاهرها دينية غايتها تخليص بيت المقدس من يد المسلمين بينما كانت في حقيقتها سبيلا للسيطرة على الشرق الإسلامي بما فيه من خيرات اقتصادية ومراكز حربية ، ودعاة الاستعمار المستتر بالتبشير ، لا يراعون للناس عهدا ولا يحفظون لهم كرامة .

ومن ذلك يتضح أن الغزاة المستعمرين يلتقون مع المبشرين والمستشرقين على محاربة الإسلام ومقاومة دعوته ، وهدم أبنيته ، وسبب التقائهم على محاربتهم واضح لا يحتاج إلى تأمل ؛ فالإسلام عقيدة حقة وتعاليم مشرقة ودعوة إنسانية وله فاعليته في نفوس المستمسكين به ، إذن فهو الجدار الذي يقف دون تحقيق الأطماع الاستعمارية ، كما كان القوة المحركة في صد الحروب الصليبية من قبل ، حتى اضطروا أن يرضوا من الغنيمة بالإياب ، فأورثهم ذلك كراهية وحقدا .

لذلك كان هدفهم الحقيقي الذي يكدحون من أجله هو الوصول إلى هدم الإسلام هدما كليا ومحوه من الوجود .

وقد اجتمعت عدة بواعث نفسية تدفع مجرمي الحرب إلى غزو بلاد المسلمين كتلك التي اجتمعت في المستعمرين والمبشرين والمستشرقين ضد الإسلام وعقيدته ، فبينما نرى الجناح السياسي والعسكري للدول ذات الأطماع الاستعمارية يتجه نحو التسلط على الأرض ، نرى موكبا آخر (التبشير) سائرا في موكب الغزو الفكري ، وثالثا سائرا في موكب الغزو العملي والثقافي وهم المستشرقون . وبذلك تجتمع الأهداف الثلاثة على تفتيت وحدة المسلمين وإضعاف قوتهم .

وسائل تحقيق الأهداف الاستعمارية:

١ – كانت السياسة الاستعمارية تلجأ إلى كل وسيلة لخدمة مآربها ، ولقد استغلت فيما استغلته رجال الدين الوطنيين في بلاد الشرق والأجانب الطارئين على الشرقيين ، وقد تعجب حين ترى دولة علمانية كفرنسا تقاوم الدين والجماعات الدينية .

٢ – وبعد انتشار الإسلام في الشرق أصبحت الكنائس النصرانية قليلة كأنها جزر صغار في بحر متسع الأكناف ، وكانت هذه الكنائس على قلتها متعادية ومتخاصمة ، حتى أنها كانت تستعمل في صلواتها وفي تخاطبها لغات مختلفة كالعربية والسريانية واليونانية ، ومع الأيام بدأ هذا الخصام يزداد ، ثم تبعه انحطاط خلقي واقتصادي في الكنائس والأديرة ؛ لذلك أول ما فكر فيه المستعمرون والمبشرون هو إصلاح هذه الكنائس ليستعينوا بها على التبشير ، لكن سرعان ما تذكرت الدول الأجنبية أنها لم تأت بالتبشير لهذا الغرض فحسب ، بل إنها جاءت به للسيطرة السياسية ، وما التبشير إلا وسيلة إلى هذه

الغاية ، لذلك كانت أول دراسة للمبشرين هي دراسة النواحي التي تخدم الاستعمار ؛ فأخذوا يدرسون الأحوال السياسية في العالم الإسلامي ، فلما وجدوا هذه الأحوال على شيء من الاضطراب ، قالوا: إن ذلك يشير إلى كثرة الأبواب التي أصبحت مفتوحة للعالم الإسلامي على مصارعها . .

٣ – إن المستعمر إذا نزل بلدا اتخذ أعوانه من الأقليات المستوطنة أو الطارئة ، فعندما نزل المستعمرون بلاد الشرق الإسلامي استخلصوا الأرمن والآشوريين والمهاجرين من اليهود والروس واليونان والإفرنج ليقاوموا بهم العرب .

٤ – إن المستعمر لا يختار موظفي الدولة من المسلمين ، فالمسلمون يجب أن يكونوا أقلية في جهاز البلد الخاضع للاستعمار ، ثم إن المسلمين القليلين في جهاز الدولة لا تلقى إليهم مقاليد المناصب الرئيسية أبداً[1] .

٥ – حرص المستعمر على ألا يتفق أبناء الأقليات مع الأكثرية المسلمة في الشرق .

٦ – وجه المستعمر خططه لإفساد الأجيال الناشئة باعتبارها صحائف بيضاء لها قابلية التأثر ؛ لأنها أمة الغد ، فيستدرج أبناء المسلمين إلى معاقل جيوش الغزاة ولا سلاح في أيديهم ، فيفسدون أخلاقهم ، ويجعلونهم غرباء عن أوطانهم .

الحملة الفرنسية وأثرها على الهوية الإسلامية:

كانت الحملة الفرنسية حلقة من حلقات الاستعمار الأوربي لشعوب الشرق ، لإخضاعها وإذلالها ، كانت حملة توسع استعماري جديد يعوض

---

(١) انظر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، د/ مصطفى الخالدي ، وعمر فروخ ، ص: ١٦٠- ١٦٨ .

فرنسا ما فقدته من مستعمرات في أمريكا الشمالية والهند من ناحية، وللإضرار بالمصالح البريطانية من ناحية ثانية .

وتعتبر الحملة الفرنسية أول غزو عسكري أوربي في التاريخ الحديث لبلد عربي إسلامي من بلاد الدولة العثمانية، ولكن هذا الغزو سبقته سيطرة الدول الاستعمارية الكبرى- بريطانيا وفرنسا وهولندا- على دول وإمارات إسلامية في أواسط آسيا وجزر الهند الشرقية والهند، غير أن هذه السيطرة المبكرة لم تمس قلب العروبة كما فعلت حملة الجنرال بونابرت على مصر .

جاءت الحملة الفرنسية بعلمائها ومطبعتها إلى جانب جنودها وضباطها؛ ليتسنى لها أن تدرس مصر وشعبها دراسة تخدم وجودها وبقاءها في مصر، وتكوين إمبراطورية لها بها، فهي امتداد لجهود المستشرقين الفرنسيين والأوربيين .

يقول د/ مصطفى عبد الغنى:

«لم أكن في حاجة إلى أن أقرأ ذكريات سانت هيلانة أخيرا لأسمع صوت نابليون في بداية القرن التاسع عشر، وهو يبدى ندما شديدا على تركه مصر، ويكشف عن حلمه استخدام مصر كقاعدة لغزو الشام ثم العراق ثم فارس وحتى الهند . . .

كما لم أكن في حاجة لأسمع إلى مواطنه – الفرنسي المعاصر ريتشارد جاكمون – وهو يقول:

«المعروف هو وجود ارتباط بين السيطرة العسكرية والعلمية للمشروع الاستعماري إبان القرن التاسع عشر»(١) .

---

(١) حقيقة الغرب، ص: ٣١ ، ٣٢، مكتبة الأسرة ٢٠٠١ .

كما يقول: «لم أكن في حاجة لأن أؤكد أن الحملة الفرنسية ليست أكثر من حملة صليبية ثامنة سبقتها الحملات الصليبية المعروفة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر»[1] .

أسوأ ما جاءت به (الحملة الفرنسية على مصر) أنها مهدت للتغريب في مصر والعالم العربي ، وقوت تيار الإصلاح المزعوم على طريقة الحضارة الغربية الحديثة في مقابلة الدعوى إلى الإصلاح بالعودة إلى التمسك بدين الإسلام من جديد ، وهي دعوة بدأت مظاهرها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي .

يقول د/ السيد أحمد فرج: «إن أول ظهور للعلمانية في المنطقة العربية كان مع قدوم حملة نابليون على مصر ؛ حيث كان الجنود الفرنسيون قد تشبعوا بروح الثورة الفرنسية العلمانية الرافضة لكل ما هو ديني ، ولهذا كتب الجبرتي يصف الفرنسيين بأنهم لا يتدينون بدين ، ويقولون بالحرية والتسوية ، وأنهم لا يتفقون على دين ، فكل واحد منهم ينحو دينا يخترعه بتحسين عقله»[2] .

ويقول عبد الجواد يس: «حاول الفرنسيون استعداء المصريين على الأتراك المسلمين – وذلك في منشورات نابليون – عن طريق بعث الروح القومية الفرعونية والعربية ، مثيرين بذلك لأول مرة في مصر مفاهيم القومية العلمانية التي كانت قد برزت على سطح المجتمع الأوربي بعد هزيمة الكنيسة في صراعها على الملوك»[3] .

---

(١) نفس المرجع ، ص٣٣ .

(٢) جذور العلمانية ، د/ السيد أحمد فرج ، دار الوفاء .

(٣) تطور الفكر السياسي في مصر خلال القرن التاسع عشر ، عبد الجواد يس – قاض سابق ، ص٥ ، ط المختارة – حماه .

ولقد كان الجنود على وعى بالتغريب كهدف وارد في قائمة الغايات المنشودة من حملتهم .

ومما يلاحظه الدارس لهذه الفترة التي احتلت فيها فرنسا مصر دور المقاومة الشعبية ، وتولي علماء الأزهر ورجاله زعامة هذه المقاومة ، والتجاوب الشعبي بكل طوائفه ، وشدة المقاومة رغم ضخامة الخسائر وكثرة الضحايا ، خاصة خلال الثورتين الأولى والثانية بالقاهرة ، وكانت المقاومة تنبع من رؤية إسلامية ترفض الخضوع للاحتلال الفرنسي ؛ لأن الفرنسيين كفار يريدون الاستيلاء على أرض مصر المسلمة ، ويقتطعونها من الدولة العثمانية ، ويخرجونها من سلطان الدولة العثمانية .

لقد كان الجميع من حكام ومحكومين يرفض الفرنسيين ، ولكن الحكام عجزوا عن قتال الفرنسيين ، فناب عنهم الشعب بزعامة علماء الأزهر ورجاله ، وهذا ما تغير في الواقع بعد ذلك بفعل التغيير وجاء الطمس لهوية الأمة ، فلم تعد نظرتها للأمور من منطلق إسلامي يقودها فيه علماء الأزهر ، ولكنها من رؤية علمانية لا ترفض الغرب ولكن تسعى للتشبه به .

الاستعمار الإنجليزي ودوره في طمس الهوية الإسلامية:

كانت الحملة الفرنسية أول اتصال بين هذه الأمة ذات الجذور الإسلامية وبين الغرب في وقت أمسى فيه صاحب حضارة ، كما أن الفرنسيين كانوا على وعي بالتغريب كهدف وارد في قائمة الغايات المنشودة من حملتهم ، ولم يقف الأمر عند ذلك .

فقد حمل الأوربيون عبر قرون الصراع على المسلمين حقدا دفينا على الإسلام وأهله ، فلما تبنى الأوربيون الفكر العلماني المادي المعادى للدين

عامة ، زاد حقدهم على الإسلام كدين ، ومازال الغرب يرى في الإسلام والمسلمين العدو الذي لا تنتهي عداوتهم له .

وقد ذكر أن الشعب المصري إبان الحملة الفرنسية- حكاما ومحكومين- كان يرفض الفرنسيين ، أما عند الاحتلال الإنجليزي العسكري لمصر عام ١٨٨٢م ، وبعد أن ظهر تيار التغريب (العلمانية) في البلاد على أيدي الحكام ، وبعد أن أضعف محمد علي باشا وضع علماء الأزهر ورجاله ، وعرّف متعلمو الأمة بالغرب من خلال البعثات والإرساليات لأوربا ، ودخل الأجانب في ظل الامتيازات الأجنبية ، تغيرت الأوضاع .

فالخديوي توفيق يرحب بحماية الإنجليز له ، ويثبت حكمه من خلال احتلالهم العسكري للبلاد ، والمقاومة للاحتلال هي للجيش المصري ، ووزارة البارودي وعرابي تطالب بنظام حكم ينبغي عليه ألا يعتدي على أمة مستقلة تنادي بحكم نيابي ، وهي ترى بريطانيا دولة متحضرة متقدمة لها سبق وريادة ، ومصر في ظل حكم أسرة محمد علي تدين بولاء اسمي فقط للدولة العثمانية .

وهذا كله يشير إلى التغير الكبير الذي وقع في الأمة ، ونؤكد هذه الملاحظة بأنه لما عرض القائد الإنجليزي (نلسن) على (محمد كريم) حاكم الإسكندرية حماية الأسطول الإنجليزي له لمواجهة الحملة الفرنسية رفض تلك الحماية قائلا له: (هذه بلاد السلطان) يعنى السلطان العثماني .

وتبدو أهمية هذه العبارة في إبراز الارتباط بالدولة العثمانية ، وأصالة ذلك في الوجدان المصري ، كرمز له ما وراءه من علاقة بالدين لا تقبل أن يفرط فيها: «وتلك واحدة مما يحسب لذلك الفكر ، ونحن نزنه بموازين الإسلام ، قياسا بما سيلحق به بعد ذلك من أثر التغريب بالفكرة القومية ، لم تكن هذه

الفكرة قد طرأت بعد على هذا المجتمع الذي لم يكن حتى ذلك الحين يرى في غير الدين سببا للتجمع في إطار الوحدة السياسية أو الدولة»[١] .

ولا نبالغ حين نقول: إن الاستعمار امتداد للحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين ، وأن أهداف الحروب الصليبية قد أودعت في ثقة وأمانة في أيدي المستعمرين ليحققوها ، واعترف بذلك بعض الكتاب الأجانب .

فهذا جاردنر يقول: «لقد خاب الصليبيون في انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي ، والحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة (القدس) بقدر ما كانت لتدمير الإسلام» .

وقد استطاع الاستعمار أن يشجع كثيراً من المسلمين على اعتناق الدين المسيحي وعلى حمل الجنسية الأجنبية ، ورتبت على ذلك كثير من الامتيازات ، وأعان الاستعمار الطوائف التبشيرية اليسوعيين والجزويت وغيرهما من الطوائف ، على أن يقوموا بما قاموا به من إفساد وتشويه – مهما غلفوا ذلك بأغلفة من المساعدات والخدمات .

واستطاع الاستعمار أن يصطنع الأسباب لإثارة الفتن والحروب والقلاقل في البلدان الإسلامية ، وبخاصة البلاد التي يحس المستعمرون أن تجمع المسلمين فيها يثير سخطهم مثل: تركيا ومصر والمغرب العربي ومنطقة الشام والجزيرة الفراتية ، فقضى الاستعمار بأساليبه الخبيثة على الاستقرار في هذه الأماكن وجعلها بركانا يغلي ، واستطاع أن يقيم من الإدارات السياسية في داخل بلاد المسلمين ما يطبق عن طريقه سياسته الرامية إلى القضاء على كل نزعة إسلامية أو دعوة إلى توعية المسلمين أو حركة استقلالية .

---

(١) انظر: تطور الفكر السياسي في مصر خلال القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص ٣٥ .

واستطاع الاستعمار أن يقضي على معنويات المسلمين ، وأن يشعرهم بأنهم غرباء في بلادهم بما منحه من امتيازات للأجانب جعلتهم كأنهم أصحاب البلاد الأصليين .

واستطاع كذلك أن يصبغ حياة المسلمين بصبغة الحضارة الغربية ، فيحول كثيرا من المسلمين إلى أعوان وأتباع لهذه الحضارة وأهلها .

واستطاع الاستعمار أيضاً أن يشجع الدعوات القومية كالطورانية والفرعونية ، والفينيقية والبابلية والآشورية والبربرية والقومية العربية ، وكل هذه الدعوات إخماد لفكرة تجمع المسلمين حول الإسلام وليس القوميات .

تحكم الاستعمار في العالم الإسلامي والعالم العربي ، فكان حكامنا والقائمون على أمرنا – حينا طويلا من الزمان – منهم ، فتصرفوا في العالم الإسلامي تصرف المالك في ملكه ، فتصرفوا في البشر فمسخوا شخصياتهم ، وشوهوا أفكارهم ، وحولوا ولاءهم من دينهم إلى الحضارة الغربية ، وتصرفوا في الأرض فزرعوها حسب حاجة مصانعهم ومعاملهم .

وتحكموا في كل المقدرات الاقتصادية للعالم الإسلامي ، حتى فلول الجيوش المنهزمة أمامهم منعوها في كثير من البلدان الإسلامية من أن تتطور أو تزيد ، وجعلوا سلاحها كله وقفا على مصانعهم ، وحالوا بيننا وبين النهضة الصناعية ودعونا بلادا زراعية فحسب .

هؤلاء المستعمرون أداروا دفة السياسة في بلادنا ، فاستوردوا لها من بلادهم النظم والقوانين في الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، ليديروا بلادا وبشرا يوقنون بأن هذه النظم تتصادم مع عقيدتهم ، وتتضارب مع دينهم ومعاملاتهم ، ولا تحقق لهم بناء على ذلك شيئا من نفع ، فضلا عما تلحق بهم من أضرار .

ومن عجب أن وجدوا فينا – معشر المسلمين – من يروج لهم ولمبادئهم، ومن يزري بدينه ومنهجه في الحياة من أجل عرض من أعراضهم.

وقد ملك المستعمرون في بلادنا كل مرافقها وكل خيراتها، وهيمنوا على التعليم والثقافة، وشطروا التعليم شطرين: ديني ودنيوي، ودعموا الثاني وحاربوا الأول، وقصروا الوظائف والمنح والبعثات على المتخرجين في التعليم الذي وضعوا هم مناهجه وخططه، فارتمى الناس على أعتابهم.

وفي كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية في عالمنا الإسلامي الكبير كان لهم نشاط وكيد وتدبير، بحيث فرضوا علينا من النظم والعادات والتقاليد ما يغرينا حقا وما يبعد بنا عن ديننا ونظمه وآدابه.

ولنتحدث عن بعض هذه المجالات:

١ – في مجال التعليم والثقافة:

عندما استولى المستعمرون على بلاد العالم الإسلامي في القرنين الأخيرين كانت معظم بلدان العالم الإسلامي تمزج في تعليمها لأبنائها في المدارس والكتاتيب والمساجد والمعاهد وكافة دور التعليم بين المعلومات والحقائق الدينية الإسلامية وبين المعلومات والحقائق التي تتطلبها حاجات الناس في مجتمعاتهم المتغيرة، وكان التعليم يستهدف التبصير بالدين والدنيا معا.

فلما كان الأمر بأيدي هؤلاء الأعداء وجهوا كل اهتمامهم إلى هذا التعليم فأفسدوه، وفرضوا من خططهم ومناهجهم وموادهم التعليمية ما يؤكد في نفوس المتعلمين احترام فكر الغرب وحضارة الغربيين وثقافتهم من جانب، وما يزرى بالفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية من جانب آخر، ورموا بهذا الشر كل المدارس والمعاهد، وأماكن التعليم في العالم الإسلامي كله، وما استعصى عليهم وعلى خططهم إلا قليل من المعاهد

والمدارس التي كانت تُعْنَى بدراسة علوم الإسلام كالأزهر في مصر وكبعض المساجد التعليمية في قليل من بلدان العالم الإسلامي .

وكانت سببا في أن يوجه لها المستعمرون أعتى ضرباتهم ، فأخذوا يقللون من شأنها ويضيقون في الإنفاق عليها – وهم الذين يملكون وينفقون – ويزرون بالمتخرجين فيها ، ويحاولون عزلها عن الحياة العامة وتشويهها ، وتشويه ما تقوم على تدريسه وتعليمه في أذهان الناس عن طريق الصحف المأجورة والأقلام المشتراة وأدعياء العلم المسيطرين .

ولنضرب على ذلك مثالا واحدا في بلد عربي مسلم ، ذلك هو (الأزهر الشريف) بقيامه على أمر علوم الإسلام ، في مصر البلد الإسلامي ، كما ينص على ذلك دستوره ، وكما هو واقع المواطنين فيه ، فقد لقي الأزهر من حرب المستعمرين وأذنابهم والساخرين منه – تقربا إلى العدو الكافر – بنكاتهم ورسوماتهم ومقالاتهم وبحوثهم وكتبهم ودراساتهم- حرباً لا هوادة فيها ، فضيق المستعمرون وأتباعهم من الحكام عليه وعلى المتخرجين فيه تضييقا لا يزال بعضه باقيا حتى الآن ، وسخر الأتباع منه ومن العلوم التي يقوم على تدريسها ، ومن اللغة العربية المتقعرة كما قالوا التي يدرس بها ، ومن عقليات علمائه ، وما هم عليه من غفلة وسذاجة كما يدعى الأذناب والأتباع ، ومن الزى الذي يلبسون والكلمات التي ينطقون ، وكان وما يزال القصد من هذه الحملة هي أن ينعزل الأزهر برجاله وعلومه عن الحياة ، وعن التأثير والإيجابية في المجتمع .

وليست محاولة انتزاع تدريس اللغة العربية والدين الإسلامي في المدارس العامة من المتخرجين في الأزهر ببعيدة عن الأذهان .

ولقد عمل المستعمر على أن يشن على اللغة العربية الفصحى حربا ضارية على طريق الدعوة إلى استخدام العامية واللهجات الإقليمية المحلية حينا، وإلى استخدام الأحرف اللاتينية بدل الأحرف العربية حينا آخر.

وأنا أعجب أن تصعد حملة الدعوة إلى العامية، وإلى إحياء اللهجات الإقليمية ودراستها والعكوف عليها حتى تصل إلى أن ينادى بها ويؤيدها بعض أعضاء مجمع اللغة العربية – الذي من أبرز وظائفه المحافظة على الفصحى وتقريبها إلى الناس.

والعجيب أن هذه الدعوات ليست إلا صدى لما ردده أعداء الأمة الإسلامية من أمثال كرومر، ودانلوب، وويلككس، وويلمون، وأذنابهم من أمثال: إسكندر معلوف، وفارس عمر وغيرهم، وحشد من أساتذة هؤلاء المستشرقين، فهي حملة ضارية لتغريب اللسان العربي بقتل فصحاه أولا، ثم إحلال لغات أجنبية أو لهجات عامية محل الفصحى، ذلك أن أعداءنا يدركون تماما أن اللغة هي فكر الأمة ووجدانها، وأن لسانها ما هو إلا تعبير عن هذه الأفكار والعواطف.

والحرب الحقيقية لأمة تبدأ بحرب لغتها للقضاء على تاريخها وحضارتها ومسخ حاضرها ومستقبلها[1].

التعليم والثقافة الأجنبية:

يقول شاتليه في تقديمه لأعمال الإرساليات التبشيرية:

«لا شك في أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية في نفوس منتحليها، ولا يتم لها ذلك إلا ببث

---

(١) انظر: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، القسم الأول، إعداد: د/ علي عبد الحليم محمود، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية ، فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يتحكك الإسلام بصحف أوربا ، وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي ، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية ، التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها»[١] .

وقد أدرك المبشرون أنفسهم ذلك ، حتى قال بعض غلاتهم (زويمر): «المدارس أحسن ما يعول عليه المبشرون في التحكك بالمسلمين» .

ونذكر هنا تحليلا بالغ الخطورة ويطابق الواقع الأليم الذي أحدثه التعليم الأوربي في نفوس أبناء المسلمين ، وهو صورة تتكرر في كل إقليم وعلى يد كل كافر محتل مهما اختلفت قوميته وجنسيته .

كتب (ك .ك .برج) الأستاذ بجامعة (ليدن) يقول: ((اضطر الأندونيسيون من جانبهم إلى انتجاع الجامعات الهولندية لاستكمال دراستهم ، وعلى ذلك سكنت في عقل الشباب الاندونيسي الممتاز وقلبه – في أحسن فترات حياته استعدادا – أفكار وآراء مستمدة من الخصائص الهولندية ، والثقافة الهولندية ، مختلفة أتم الاختلاف عن الأفكار التي كانت التقاليد تدعو إلى اعتناقها واحترامها في أندونيسيا .

وفي الجملة ، ففي حين أن المعلمين الهولنديين كانوا غير قادرين- بسبب انتمائهم لشعب نبذ وحدته الروحية منذ قرون- على أن يجلسوا محل الثقافة القديمة ونظام التعليم القديمة ثقافة جديدة ونظاما في التعليم جديدا لهما ما لسابقيهما من القوة الذاتية ، والتماسك والملاءمة لحال البلاد .

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ، ص: ١٧ ، ١٨ .

نجد أولئك المعلمين من جهة أخرى ينسفون بقوة ثقافتهم الغربية من نفوس الناس اعتقادهم بالعادات القديمة واحترامهم لها ، ومعنى هذا أنهم يوهنون أساس المجتمع القديم وأساس الإسلام أيضا .

إن التعليم الأوربي يعمل على قلب وجهة نظر الناس قلباً لا يقف عند حد ، وقوة الضربة التي تعانيها الثقافة الأهلية كل يوم إنما يحس بها تمام الإحساس الأندونيسيون الذين هم أكبر سناً ، أما الجيل الجديد فقد شب بين أحضان النظام الجديد ، ولم يظهره المعلم الأوربي على شيء من الثقافة الأهلية ، حتى إن هذا الجيل لا يحس بما بين الثقافتين من فرق إحساسا قويا .

إن تغيير نزعة الشباب الأندونيسي المستنير إزاء ثقافته القديمة بتأثير التعليم الأوربي وبتأثير البيئة الهولندية يشبه ما حدث عند الشباب المصري ، منذ نصف قرن أو ثلاثة أرباع قرن ، ومسلك الشباب الأندونيسي إزاء التعليم الغربي يسير على مثل ما سار في مصر ، يظهر الشباب عداءه للعقلية الغربية ، ولكنه لا يستطيع في الوقت نفسه الاستغناء عن الثقافة الغربية . . وهو ينزع قومية شديدة ، ولكنه رغم ذلك منقطع من وجوه كثيرة – بسبب ثقافته الغربية– عن جمهور الأمة التي ولد فيها . . .»[(١)] .

ويقول: «للكثير من صغار المثقفين مسلك إزاء الإسلام يختلف عن مسلك الجيل السابق أتم الاختلاف ، فقد أصبحوا بتأثير التعليم العلماني لا يعبأون بالدين في الجملة»[(٢)] .

(١) انظر: وجهة الإسلام ، ص١٩٠ – ١٩٢ ، ترجمة أبو ريدة .

(٢) المرجع السابق .

٢- التغريب :

الحياة الاجتماعية وما يسودها من قيم خلقية وآداب سلوكية ، وما يحيط بها من عادات وأعراف وتقاليد هدف ضخم لأعداء الإسلام والمسلمين ، فبالسيطرة عليها أو تغريبها يستطيع الأعداء أن يسودوا المجتمعات الإسلامية .

وفي هذا المجال كان لمحاولة تغريب المرأة أولوية ، ففي إفساد المرأة إسراع بالمجتمع كله نحو الفساد ، وكانت الضربة الأولى بخلع الحجاب ، ففعلت ، وشجعها على ذلك الغافلون من أبناء دينها ، ثم نادوا بأن تتجرد من ملابسها شيئا وراء شيء ، ووجدت المرأة من أبنائها من يشجعها على ذلك ويزينه لها .

ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى أصبح اختلاط البنات والبنين شيئاً مُسَلّماً به في معاهد التعليم أكثرها وفي الحياة الاجتماعية في أغلبها .

ثم زجوا بالمرأة في ميادين العمل ومزاحمة الرجال ، تقوم بما لم تهيئه لها طبيعتها ، وما لا تستطيعه في كثير من الأحيان ، فخدمت الرجال في الفنادق ، وغنت لهم ورقصت ، وقامت بالأدوار التمثيلية لتمتعهم بصوتها وجسمها ، وما حرم الله عليها فعله ، حتى غدت سلعة رخيصة تباع وتشترى .

وتجاوزوا ذلك إلى العبث بحقوقها وواجباتها التي فرضتها الشريعة الإسلامية ، والتي هي أكرم أسلوب لحفظ كرامة المرأة ، وصيانة حاضرها ومستقبلها ، فعبثوا بنظام الطلاق في الإسلام ، وعبثوا بنظام الحضانة ، ونظام الزواج ، ونظام الميراث .

ورأى الاحتلال الحمية الدينية التي قابلتهم بها المقاومة ، وعرفوا أنها صادرة عن الروح الدينية ، وأيقنوا ألا قرار لهم إلا إذا قبضوا على هذه الروح في الأجيال المقبلة من أهلها ، بل الواقع إن خطتهم كانت ترمي إلى أمرين أساسيين:

أحدهما: إنشاء جيل مجانس لهم في ثقافتهم ؛ ليسهل عليهم التفاهم معه .

والثاني: أن تخلو الأجيال المقبلة من الدين ، ومن الثقافة الإسلامية والحمية الدينية ، وكان لا بد لبلوغ هذا الهدف من النظر في الوضع القائم في جو التربية والتعليم وتغييره تغييراً أساسياً . وكان التركيز على بناء الطبقة البديلة قضية حياة أو موت بالنسبة للاحتلال[1] .

يقول د/ محمد حسين في تصوير هذا: «كان المترفون من الأغنياء يتهافتون على ما تخرج المصانع الأوربية من وسائل الترف ، حتى غدت توافه الكماليات من ألزم الضروريات ، وأصبح قصارى ما يبلغه أحدهم من التمدن أن يتقن تقليد الأوربيين في استعمال أدوات المائدة الأوربية ، وأن يحسن حفظ أساليبهم في استعمال الملابس ، والتمييز بين ما ينبغي أن يستعمل منها في مختلف المناسبات ، وأن يحسن استقبال النساء والتودد إليهن ، والتلطف في معاملتهن ، وأن يعود من سفرته السنوية إلى أوربا حيث يقضي شهور الصيف ليتبجح في ندوات الفارغين بمغامراته ، ويدير لسانه بألوان من الرطانات ، ثم يرسل أبناءه وبناته إلى المعاهد الأجنبية مباهاة ، وإتماما لما يريد أن يسبغ على نفسه ، وعلى بيته من جو أوربي خالص ، يظن أنه هو المقياس الحق للمدنية والرقى»[2] .

وبمرور الوقت وتحت حراسة الاحتلال ، بدأ تيار التفرنج والتغريب يقوى ويشتد ، وتتربى عليه أجيال وطلائع ، وأخذ العدو الكافر يشد أزرها ويمكن لها في قلب أمتها ، ويفتح لها طريق القيادة والشهرة ، ويسلط عليها أضواء الدعاية لتصبح المثال الذي ينبغي تقليده . وظهرت آثار هذه الكارثة حين تولى هذا

---

(١) انظر: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، القسم الثاني ، إعداد د/ عبد الستار فتح الله سعيد ، ص: ٢٥٨ .

(٢) الاتجاهات الوطنية ٢/ ١٨٤ .

التيار قيادة أمته في شتى مجالات الحياة وتحت شعارات خادعة من الإصلاح الاجتماعي والتقدم والحضارة . . .إلخ .

وصحب ذلك خطة ضارية لعزل دعاة الطابع الإسلامي عن الحياة وحصرهم في أضيق نطاق ، وإبعادهم عن مجالات التأثير والتوجيه .

ويقودنا د/ محمد حسين إلى أمثلة واقعية مما جرى في مصر وهي نماذج لما حدث في العالم الإسلامي المنكوب بحكم الكفار والمخدوعين بحضارته الزائفة: «فقد أدى نظام التوظف منذ عهد إسماعيل ، وفي عهد الاحتلال الإنجليزي خاصة ، إلى اختفاء أصحاب الثقافة الدينية من ميادين الإصلاح ، وتخلفهم عن ركب الحياة وانحصار وظائفهم في المساجد ، وأصبحت الوظائف الحكومية ، وأدوات التوجيه الاجتماعي في أيدي أصحاب الثقافة الأوربية الذين ينشئون مشاريعهم الاجتماعية والعمرانية على نمط ما تعلموه»[1] .

واستخلف المحتل الذين نشأوا في أحضانه على قومهم ، وأصبحت المناصب في الدولة في قبضة هذه العصبة من المتفرنجين ، وهذه النتيجة كانت لها آثارها المفزعة التي سجل منها المستشرق الإنجليزي (جب) حيث قال: «ربما كانت أسلم نتيجة نقررها هي أن نقول: إن هناك طبقتين رئيستين: طبقة عليا تشمل أفراداً من القادة ، ولكنها تشمل أيضا أكبر مراكز الفكر الإسلامي تأثيرا وفيها يظهر أثر الأفكار الغربية ظهوراً قوياً .

وطبقة دنيا تشمل جمهور الرأي الإسلامي . . وفيها نجد أثر الأفكار الغربية ضيقا إلى حد ما ، وإن ندر أن تقاوم هذه الطبقة أفكار الغرب ، إلا في جزيرة العرب ، وما دام الزعماء هم الذين يعتد بهم- ولاسيما زعماء الجيل الناشئ-

---

(١) الاتجاهات الوطنية ١/ ٢٢٥ .

استطعنا أن نستنبط أن الجزء الأكبر من العالم الإسلامي سيكون بعد قليل من الزمان قد أخذ نهائيا بوجهة نظر لا سلطان للدين عليها ، إلا إذا طرأ عامل جديد ، وغير اتجاه التيارات الموجودة إلى ناحية أخرى»[1] .

وكانت هذه الطبقة البديلة هي الوسيلة المتفردة لحسم المعركة مع منهاج الإسلام ، وكلما أمعنت في (هضم) الحضارة الغربية ، وتحويلها إلى خلاياها ، وخلايا أمتها كلما قرب ذلك أمد الصراع ، وقطع الطريق على مستقبل البعث الإسلامي المخوف .

يقول جب: «وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح الذي نسبر به غور التأثير الذي أحدثته الثقافة الإسلامية في العالم الإسلامي يجب أن ننفذ إلى لباب الأمور ، وأن ننفذ أولا إلى الحركات التي تقوم على تشرب الأفكار الغربية تشربا يبعث على الابتكار بعد استعداد داخلي قوي ، وكل ما عدا هذا فهو سطحي ، ومهما شق الأمر فلا بد من بذل الجهد لتبين تلك العناصر التي تكون حقا صرح (ثقافة جديدة) من مجموعة العناصر المنقولة التي تراكمت في العالم الإسلامي ، والتي كثيرا ما تكون قشورا زائفة .

والتعليم هو أكبر العوامل الصحيحة التي تعمل على الاستغراب- والحق أنه العامل الوحيد- إن فهمنا من كلمة تعليم كل ما تدل عليه (المدرس ، والفني ، والجامعي ، والأخذ بأساليب الغرب في الإدارة والسياسة وتربية الرأي العام بالصحافة خاصة ، والتي تتميز بنزعة علمانية غالبة كما يرى»[2] .

---

(١) انظر: وجهة الإسلام ، ص٢١٩ وما بعدها .

(٢) انظر: وجهة الإسلام ، ص ٢٠٨ – ٢١٧ .



الحصاد المر للثلاثي النكد

١-الاستشراق

٢-التبشير

٣-الاستعمار

الفصل

الثالث

المبحث الأول

في المجال السياسي

أولاً : سقوط الخلافة والدعوة إلى القومية:

إن عداء أوربا للدولة العثمانية لم يأت من فراغ ، بل له جذور تمتد في عمق التاريخ أزمانا بعيدة سايرت عمق النفس الأوربية وتكوينها ، حتى أصبح هذا العداء يكوّن النسيج الذي تقوم عليه تلك النفس .

والأوربي ينظر للإسلام على أنه الدين الوحيد الذي أضر بالمسيحية ، ووقف عائقا أمام انتشارها ، وذلك لما يتضمنه من مبادئ سهلة ، تتطابق مع الفطرة السليمة ، يعرف طريقه إلى القلوب ، وهذه السهولة هي التي جعلت كثيرا من الناس يعتنقونه ويتمسكون به .

هذه نظرة الأوربي للإسلام ، أما نظرته للمسلمين فقد نظرت أوربا إلى الفتوح العثمانية على أنها فتوح إسلامية ، وأصبح من المسلَّم به عندهم أن كل نصر عسكري يحققه العثمانيون إنما هو نصر للإسلام ، وهزيمة للنصرانية .

فباسم الإسلام زالت الدولة البيزنطية ، ودخل المسلمون عاصمتها بقيادة السلطان محمد الفاتح في ٢٠ من جمادى الأولى عام ٨٥٧هـ وغيرت اسمها إلى دار الإسلام ، وشروعه في الاستيلاء على مقر البابوية في روما لا ينساه الأوربي للعثمانيين ، واستطاع من جاء بعده أن يضم بلاداً أوربية أخرى إلى حظيرة الإسلام ، حتى وصل الإسلام إلى حدود فيينا ، وبلغ الشعور الأوربي تجاه الدولة العثمانية أن اعتبرها مصدر الرعب الوحيد في العالم .

لقد أفاقت حكومات وشعوب دول أوربا التي خضعت للدولة العثمانية لتجد نفسها تخضع ولأول مرة في تاريخها لحاكم مسلم بعد أن كانت هي التي تغزو ديار المسلمين .

ومن ثم عملت جاهدة على تصفية هذا الوجود الإسلامي من أراضيها، وأسهمت دول أوربية أخرى- جمع بينها وحدة الهدف، وهو الانتصار للمسيحية والقضاء على الإسلام ودعم مصالحها الاستعمارية- بتوزيع الدولة العثمانية فيما بينها[١].

وتضافرت القوى اليهودية والصليبية للقضاء على الخلافة العثمانية، باعتبارها التجسيد الحي للأمة الإسلامية وقتذاك، فأخذ الغرب يقتطع أجزاءها، فاقتطعت روسيا منذ عهد كاترين سنة ١٧٦٢-١٧٩٦م بعض الأراضي والولايات، ثم توالت بعدها الحملات العسكرية الاستعمارية، فهاجم نابليون مصر عام ١٧٩٨م، ثم احتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠م وتونس عام ١٨٨١م ومراكش عام ١٩١٢م، كما احتلت إيطاليا ليبيا عام ١٩١١م، وكانت الدول متفقة على اقتسام ميراث السلطنة العثمانية عند زوالها من الوجود، فكانت بريطانيا تطمع في بترول الموصل، وضمان إنشاء خط ثان للهند، وهو خط برى يمتد من فلسطين إلى الخليج الفارسي.

وكانت فرنسا تجاهر بأنها ستصيب استقلالها الاقتصادي بما تجنيه من القطن في حلب، ومن الحرير في لبنان والصوف في سوريا.

وكانت إيطاليا مقتنعة بالاستيلاء على القسم الغربي من الأناضول، وكانت روسيا تطمع في قسم من تراقية والأستانة وأرمينيا وكردستان، كما احتلت بريطانيا عدن عام ١٨٣٩م، وبسطت حمايتها على الحج والمحميات من حدود اليمن الجنوبية إلى شرق الجزيرة، وكان الإنجليز قد استولوا على الهند قبل ذلك، وانتزعوا باستعمارهم لها سيادة المسلمين، ثم استولوا على مصر عام

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، د. عبد العزيز الشناوي ١/ ١٤-١٦، مكتبة الأنجلو المصرية ط١، ١٩٨٤م.

١٨٨٢م ، وعلى السودان عام ١٨٩٨م ، واستولت هولندا على جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) وحوصرت أفغانستان تحت الضغط الإنجليزي والروسي ، كما حوصرت إيران .

ولم يكف الغربيون عن إشعال الثورات داخل الدولة العثمانية ، وشجعوا الحركات الانفصالية داخل الدولة بين الترك والعرب ، وحركوا الثورة العربية بواسطة عملائهم ، وأثاروا فتنة القوميات والعصبيات الإقليمية بغرض التفرقة والتفتيت .

وانتهت حركات التطويق والإغارات والتفتيت بإنهاء وجود الدولة الإسلامية في شكلها الأخير - ونعني بذلك الخلافة العثمانية - على يد مصطفى كمال أتاتورك .

ونجح الاستعمار بنوعيه الشرقي والغربي في تفتيت الجسد الواحد ، وحوله إلى دول ودويلات لكل منها حاكم وعلم ونشيد ، وحدود جغرافية مصطنعة ، وغزاها بأفكار القومية والوطنية ، فأصبح ولاء الأمة إما لأشخاص الزعماء والقادة ورجال الحكم والسياسة أو للأفكار والمذاهب والفلسفات الواردة ، وبذلك حول الولاء لله الواحد القهار .

الدعوة إلى القوميات:

عمد الغرب إلى زرع القوميات في العالم الإسلامي بعد أن فتتوا وحدته إلى وحدات صغيرة ، فأتوا له بالقومية كي تظل هذه الوحدات في تباعد دائم ومستمر بعد أن يرحل عنه .

وكان الاستعمار قد استعمل سلاح القومية في ضرب وحدة المسلمين المتمثلة في الدولة العثمانية ، واستطاع عن طريقها (القومية) تمزيق وحدة المسلمين وتمزيق كيانها ، وكان المسلمون من عرب وغير عرب يحيون في ظل

الإسلام ، لا يعرفون تعدد الجنسيات بمعناها القانوني والسياسي الحديث ، بل كانت قوميتهم مملوكة للشريعة الإسلامية ، وبالمبادئ الإنسانية التي أوجدتها تعاليم الإسلام ، وما كانت تعاليم الإسلام لتعترف بالفوارق السياسية والعاطفية التي حركتها القومية المحلية كما شاهدناها في القرن العشرين ، وقد عاش المسلمون أيام الخلافة وهم يشعرون دائما بأنهم يكونون أمة واحدة شعار كل فرد فيها : (أنا ابن الإسلام) كما قال سيدنا سلمان الفارسي ﷺ :

أبي الإسلام لا أبا لي سواه وإن فخروا بعمرو أو تميم

وفي الوقت الذي أخذت فيه الأصداء تتجاوب مع دعوة الجامعة الإسلامية التي أعلنها السلطان عبد الحميد ، أدرك الغرب خطر هذه الدعوة التي تبناها السلطان عبد الحميد ، ولم يخف هذا الشعور داخله ، فيقول لورانس: «إن الخطر الحقيقي كان في نظام الإسلام ، وفي قدرته على التوسع والإخضاع ، وفي حيويته ، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي ، وإذا ما اتحد المسلمون في إمبراطورية واحدة ، أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، وأمكن أن يصبحوا نقمة له أيضا ، أما إذا بقوا متفرقين ، فإنهم يظلون بلا قوة وبلا تأثير»(١) .

ويكشف آخر وهو (إمري ريفر) في كتابه (قضية الإسلام) يقول بلغة الشامت: «إن الوحدة التي احتفظ القرآن بها قروناً بين الشعوب الإسلامية المختلفة الأصول قد ذهبت ، وصار الشعب الإسلامي قوميات شتى»(٢) .

ونتيجة هذا الشعور اتجه الغرب إلى ضرب هذه الجامعة بإيجاد البديل عن الخلافة الإسلامية بإحياء القوميات المحلية والإقليمية الضيقة ؛ للحيلولة دون

---

(١) نقلاً عن: كتاب تاريخ الإسلام ، الأستاذ أنور الجندي ، ٢/ ٧٠٥ ، دار الأنصار .
(٢) المرجع السابق .

تجمع المسلمين فكرياً وسياسياً ، وعمل النفوذ الغربي على تهيئة الاتحاديين منذ وقت بعيد من خلال محافل الماسونية للدور الذي سيقومون به لتمزيق الدولة العثمانية والقضاء على ترابط المسلمين ، فقاموا بتبني فكرة الدعوة إلى الجامعة الطورانية في مقابل الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وسعى الاتحاديون منذ وصولهم إلى الحكم إلى هدم المدينة الإسلامية ، وإحياء القومية التركية على أنقاضها .

وانتشرت الدعوة إلى تمجيد العنصرية التركية ، وإبرازها لروابط القربى بين الأتراك العثمانيين بتراثهم الحضاري التركي الأصيل ، وتخليص الفكر التركي من المؤثرات التي دخلت عليه ، ولاسيما المؤثرات الفارسية والعربية ، وذهب دعاة الحركة الطورانية إلى تمجيد جنكيز خان ؛ لأنه قدم الأتراك وجمعهم تحت راية واحدة ، كما عدوا الحضارة الحيثية والسومرية من مآثر الأتراك القومية ، كما اعتبروا تيمور لنك ، واستيزنيش ، وألب أرسلان ، والسلاجقة ، وأرطغول والعثمانيين ، وجنكيز خان ، وجيوش المغول جميعا على صعيد واحد أجدادهم العظام .

وقد ألقى كثير من المستشرقين في طريق الفكر العثماني مغريات كثيرة لحمله على الانتقال إلى العصبية الجنسية والعرقية ، وقد ظهرت على فترات متوالية ، وكان أهمها:

١ - إعادة طبع كتاب عن تاريخ الترك والمغول منذ أقدم الأزمنة إلى عام ١٤٠٥م ، وهذا الكتاب من تأليف كاتب يهودي وهو (ليون كاهون) ذكر فيه غزوات وغارات المغول الكبار مثل : جنكيز خان وتيمور لنك ، وقد أضفى الكتاب عليهم صور البطولة ، وساعدت الأكاديمية الفرنسية في نشر هذا الكتاب بترويجه ، فالتفتت إليه الأنظار ، وحمله السفير الفرنسي إلى واحد من

كبار أعضاء الاتحاد والترقي هو: ناظم بك الذي أقره وأعجب به، ووضعه أساسا للنهضة الطورانية.

٢ - اشترك مستشرقون آخرون منهم (فون لوكرك) وحاولوا رسم خط الأصول العرقية للترك[1].

وعمل المستشرقون ودعاة القومية على إعداد جيل من الشباب يؤمن بهذه الفكرة ويتبناها ويدعو إليها، وهذا ما حدث مع طلاب البعثات إلى الدول الأوربية وخاصة ألمانيا.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى عملوا على نشر كتب التاريخ الطوراني القديم، وإحياء نماذج تكون في نظرهم القدوة مثل: جنكيز خان، وتيمور لنك وغيرهم.

القومية العربية:

في الوقت الذي كانت تجرى فيه عملية غسيل أدمغة شباب الأتراك وزرع القومية فيهم، وبدل أن يعلن العرب تمسكهم بتعاليم الإسلام حينما أعلن الاتحاديون عنصريتهم الطورانية، كان الاستعمار ومدارس الإرساليات التبشيرية قد زرع القومية في نفوس الكثير، وكان الاستعمار وراء الحركة العربية.

يقول لورانس: «لقد كنت أؤمن بالحركة العربية إيمانا عميقا، وكنت واثقا قبل أن أحضر إلى الحجاز أنها هي الفكرة التي ستمزق الدولة العثمانية شذر مذر»، ويضيف لورانس: «إن الثورة العربية هي في الحقيقة تقطيع أوصال الدولة العثمانية»[2].

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام، مرجع سابق ٢/ ٦٣٨.

(٢) تاريخ الإسلام ٢/ ٦٧٢.

ومن هنا يمكن التعرف على حقيقة الانطلاق العربي من هذه النقطة ، والذي سمي في بعض الأحيان بالثورة العربية الكبرى ، والتي رسم خططها هذا الضابط الإنجليزي (لورانس) والذي أوقع العرب في أكبر خديعة في تاريخهم .

وانتهت حركة القومية العربية الحديثة إلى سلوك خط معارض للإسلام من حيث هو عقيدة وشريعة وسلوك ، بل حاول مفكروها أن يوجهوها بحيث تصبح دينا بدل دين الإسلام .

فهذا أحدهم يقول: «القومية لنا – نحن القوميين العرب – دين له جنته وناره ، ولكن في هذه الدنيا» ، ويقول ساطع الحصري أحد دعاة القومية: «إن الرابطة القومية أقوى وأعم من الرابطة الإسلامية ، وإن روح العروبة ستقتحمها في آخر الأمر» ، ويقول: «إن الوحدة العربية أفضل من الوحدة الإسلامية وأسهل» .

ويحكم الحصري على معارض الوحدة العربية بالوحدة الإسلامية أنهم خالفوا أبسط مقتضيات العقل والمنطق مخالفة صريحة .

أي عقل هذا؟! وأي منطق هذا؟! هل هو منطق المسلم أم منطق الكفر؟! إن الحصري لم يتحرج من أن يعلنها صراحة أن أي شيء يوحد العرب يؤمن به حتى لو كان الكفر[١] .

إحياء القوميات القديمة:

لم يكتف الاستعمار بتقسيم الأمة الإسلامية إلى عربية وطورانية ، فذهب إلى تفتيت القومية العربية إلى عدة قوميات ، وذلك بإحياء القوميات البائدة القديمة ، وذلك للقضاء على الواقع الفكري الإسلامي المسيطر خلال أربعة عشر قرناً ؛ رغبة في إزاحته وتمزيقه .

---

(١) انظر مثل هذه الأقوال في : فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ، أ/ صالح بن عبد الله العبود ، دار طيبة – الرياض ، ط١ ، ١٩٨٢م .

أعانت الدول المحتلة- كلٌ في منطقة نفوذه- على تدعيم قداسة هذه الأوطان الجديدة في نفوس الناس بأسلوب علمي منظم، وذلك بمساعدتها على إحياء التاريخ القديم لكل قطر من هذه الأقطار.

وعمد الغرب إلى استصحاب العلماء، وجلب البعوث من أجل التنقيب عن الآثار القديمة والأوابد، وإبراز معالمها، وإلى إنشاء المتاحف لبعث التاريخ القديم في كل جزء من أجزاء العالم الإسلامي، وتلوين كل بلد بفنون الجاهلية من فن ونحت وتصوير.

وعمد إلى الأساطير القديمة فأحياها في شكل مسرحيات وقصص وآداب، وأخذ يلوّن الحياة بتقاليد وعادات وشعارات وشارات مستمدة من الماضي السحيق، كما أنه أخذ يدعو إلى استبدال اللهجات السوقية لكل نزعة باللغة العربية والكتابة بالحروف اللاتينية، وهذه الدعوة إلى إحياء النزعات الجاهلية في حملها دعوة إلى ربط الحاضر بماض قديم، والتنكر لمقومات الحياة الإسلامية.

واستيقظت العصبيات الجاهلية، وراح كل بلد يفاخر البلاد الأخرى بمجده العريق، وشغلت الصحف بالكلام عن الكشوف الأثرية الجديدة، وما تدل عليه من حضارات البابليين، والآشوريين، والكلدانيين، والحيثيين، والفينيقيين، والفراعنة، وكانت أصابع الغربيين واضحة في هذه الجهود.

فعلى سبيل المثال لا الحصر: أن ثرياً أمريكياً يهودي الأصل هو روكفلر بن روكفلر الكبير صاحب الملايين قد أعلن عن تبرعه بعشرة ملايين دولار أمريكي سنة ١٩٣٦م، وهو ما يعادل مليون جنيه مصري وقتذاك لإنشاء متحف للآثار الفرعونية في مصر، يلحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن[1].

---

(١) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ص١٣٢، ١٣٣.

وعندما جاء الاستعمار إلى مصر أراد عزلها وإخراجها عن الدائرة الإسلامية، فطرح شعار «مصر للمصريين».

يقول الأستاذ أنور الجندي: «أخذ ينادى بالفرعونية، ونشط لكي يجعل لمصر من الفرعونية حضارة؛ ليصرف المسلمين في مصر عن الاعتزاز بحضارتهم الإسلامية إلى الاعتزاز بالحضارة الفرعونية، وأخذ يحرك المشاعر، ويعمق الأحاسيس تجاه هذه النزعة الجاهلية، وجعلها أساسا للأدب والفنون والأزياء والشارات، وضخَّم الغرب هذا التراث عن طريق الجامعات والصحافة، والتماثيل التي أقامها في ميادين المدن المصرية».

ولكن على الرغم من التماثيل والمومياء، وكل قطع الآثار التي حصل عليها، والتي أفنوا سنين عديدة في جمعها، فإن هذه الدعوة إلى الفرعونية لم تجد الآذان الصاغية لدى المفكرين والأدباء، فهذا محمد حسين هيكل يقول في مقدمة كتابه (في منزل الوحي): «وانقلبت ألتمس في تاريخ الفراعنة ما قد يصلح لنهضة... فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو»[1].

وظهرت الدعوة إلى الفارسية في الوقت الذي كان الاتحاديون يتحدثون فيه عن العصبية التركية التي تطورت إلى طورانية، والدعوة إلى الفارسية دعوة يقصد بها ربط إيران بكل قديم لها قبل الإسلام من لغة وعادات واحتفالات، كما يقصد بها فصل إيران عن كل شعوب الأمة الإسلامية.

وحتى تحقق الدعوة إلى الفارسية أهدافها هذه راح الغرب يعمل ما يلي:

١ - تنقية اللغة الفارسية الحديثة مما أسموه (الدخيل) وهو اللغة العربية، وعهدوا بذلك إلى المجمع اللغوي الإيراني الذي أسس سنة ١٩٣٧م.

---

(١) انظر: الأخطاء والشبهات، أنور الجندي، ص١٥١.

٢ – اتخاذ الساسانية أساساً للثقافة وربطها بالثقافة الغربية .

٣ – ربط الشعب الإيراني المسلم بسلالة الشعوب الهندوأوربية ، والقول بأنه لا يمت إلى العرب بصلة ، لا بنسب ولا بدين .

٤ – إيجاد الصراع وتعميقه بين (الشعب الإيراني والعرب) ليعمق الغرب سيطرته الكاملة على هذه المنطقة وبقاءه فيها .

٥ – ومع كل ما استهدفت إليه هذه الدعوة إلى الفارسية المجوسية ، وما صاحبها من إحياء كل قديم فارسي من لغة وعادات واحتفالات وشعارات ، وتاريخ يعود إلى ألوف من السنين ، إلا أنها شهدت هزيمة منكرة بعد أن ظن القائمون على الدعوة إليها أنهم نجحوا[١] .

وكانت الدعوة إلى الفينيقية تقوم على إرجاع لبنان إلى أصول فينيقية أو صليبية ، وإلى الأخذ بلغة فينيقية والكتابة بالحروف اللاتينية ، وإلى اتخاذ الفينيقية مصدرا حضاريا وتاريخيا وفكريا ، وهي دعوة تستهدف فوق هذا اتخاذ لبنان قاعدة فكرية وثقافية وحضارية تنطلق منه حركة التغريب الواسعة[٢] .

ويظهر لنا أن إحياء القوميات المحلية والإقليميات الضيقة إنما هو هدف مقصود وغرض واضح يهدف إلى الحيلولة دون تجمع العرب والمسلمين فكريا وسياسيا ، والمعروف أن وحدة الفكر هي أساس الوحدة السياسية ، ويفصح لنا عن هذه النية التي باتت تكيد للمسلمين (لورانس) إذ يقول:

«إن الخطر الحقيقي كان في نظام الإسلام ، وفي قدرته على التوسع والإخضاع وفي حيويته ، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي ، وإذا ما اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي ، شكيب أرسلان ١/ ١٦٤ ، ١٩٤ .

(٢) انظر: الشبهات والأخطاء ، أنور الجندي ، ص:٣٠٠ .

وخطرا ، وأمكن أن يصبحوا نقمة عليه أيضا ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون بلا قوة ولا تأثير»[١] .

ونجح الاستعمار في صبغ كل قطر بصبغة قومية تتفق معه ، وقسَّم الأمة الواحدة إلى مجموعة من الأجزاء والأمصار ، فظهرت القومية في التفرقة نتيجة للمخططات الاستعمارية التي وضعت البدائل الفكرية والسياسية والتربوية على الأرض الإسلامية على شكل لم يحدث ما يشبهه في مختلف مناطق الاستعمار في العالم ، فنبش القبور وقراءة الحجارة والصخور لتثبيت الكيانات ، ودعم الدويلات بأسماء مختلفة مثل الفن الشعبي ، وغير ذلك من المصطلحات .

يقول الشيخ محمد الغزالي: «إن القومية العربية بهذا المفهوم الكفور لا وجود لها إلا في أذهان بعض المارقين الآثمين ، وهي – بهذا المفهوم – خدعة صليبية لنقل الجماهير عن دينها الحبيب ، نعم هي بهذا المفهوم عملة زيفتها أوربا الحاقدة على الإسلام ، وروجتها بين قصار النظر أو ضعاف اليقين ؛ لتجعل منها بديلا تلتف حوله الجماهير ، بدل أن يلتفوا حول (إسلامهم) ويتعلقوا بأهدابه»[٢] .

ثانياً : سيادة القوانين الوضعية وإقصاء الشريعة:

تمثل قضية تطبيق الشريعة الإسلامية إحدى أهم الإشكاليات التي يواجهها المسلم المعاصر ، فهو يؤمن عقديا بأنه لا يكتمل إيمانه بغير أن تحكمه شريعة الله ، كما يؤمن حضاريا بأنها تشكل ذاتية أمته ، وأساس حضارتها ، وأساسها الإنساني .

(١، ٢) حقيقة القومية العربية ، محمد الغزالي ، ص:١٢٥ ، مكتبة دار العروبة .

يقول الأستاذ عمر التلمساني: «إن التفرقة بين الدين والسياسة نغمة منحرفة معنًى، وغريبة مبنًى، وممجوجة فهما، ومستنكرة دينا، والقول بأنه (لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين) اصطلاح غريب، فلم يعرف سلفنا الصالح الدين والسياسة كشيئين مختلفين، فالإسلام لا يعرف شيئا اسمه الدين، وشيئا اسمه السياسة، ولكنه الذي ينظم حياة البشر من جميع نواحيها في كل بقاع الأرض، فمن شاء فليأخذ ومن شاء فليدع، ويوم الدينونة الكبرى: ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[(١)] [(٢)].

وقصة القوانين الوضعية بدأت أول ما بدأت على يد البعثات التعليمية التي بدأت بالمشروع العلماني التدريجي على يد رفاعة الطهطاوي وخلفائه، فأنشأ الخديوي إسماعيل قلم الترجمة، وكلف الطهطاوي بترجمة القوانين الفرنسية، فكانت هذه أول البداية لاستبدال الشريعة الإسلامية، وتنحيتها بشكل رسمي من قبل الخديوي على يد الطهطاوي وتلامذته من أمثال محمد قدري باشا أحد أعلام القانون الذي قام بعبء ترجمة القوانين الأوربية وتقنينها وشرحها بعد الطهطاوي، وقد تخرج على يديه كثير من رواد القانون، حتى وصلنا إلى عبد الرازق السنهوري باشا الذي قدم خدمات جليلة للحكام بإضفاء الشرعية على حكوماتهم التي لا تحكم بشرع الله.

لذلك لا عجب أن يصبح في عهد الخديوي إسماعيل أول مجلس نيابي بالمعنى الغربي، ونواب أقباط لأول مرة في تاريخ مصر: في عهد خلفائه - أي محمد علي - أصبح لهم في المجالس النيابية (كان لهم نائبان من أصل خمسة وسبعين عام ١٨٦٩، وأربعة من أصل ثمانين عام ١٨٨١م).

---

(١) البقرة: ٢٨١.

(٢) نقلا عن: الصحافة الإسلامية في مصر بين عبد الناصر والسادات، محمد منصور هيبة، ص٤٢٣، دار الوفاء ١٩٩٠م.

وعلى الصعيد القضائي فمع الإصلاحات التشريعية والقضائية التي بدأها الخديوي إسماعيل ، أصبح للأقباط – لأول مرة – قضاة ومستشارون في محاكم الاستئناف ، ومنذ عام ١٨٨٣م جرى التقليد على تعيين وزير قبطي واحد في كل وزارة ، ثم ارتفع العدد إلى اثنين عام ١٩٢٤م عندما شكل سعد زغلول وزارته ، وفي العقدين الأول والثاني من القرن العشرين ، تولى اثنان من الأقباط رئاسة الوزارة في مصر ، وهما بطرس غالي (١٩٠٨- ١٩١٠) ويوسف وهبه باشا (١٩١٩ ، ١٩٢٠) .

وقد عمد أنصار التيار العلماني في مصر إلى مهاجمة التشريعات الإسلامية ، والعمل على تأكيد القانون الوضعي ، وتثبيت أقدامه ، ولاسيما بعد إعلان الحماية على مصر من قبل سلطات الاحتلال البريطاني ، وإلغاء منصب القاضي الشرعي الأكبر الذي كان يعين من قبل الدولة العثمانية عليها .

وكان دعاة الفكر الغربي يهاجمون الشريعة الإسلامية بحجة أن القانون الوضعي والأنظمة السياسية الغربية تناسب حاجة المجتمع المصري وأوفى بحاجات الأمة ، وذلك في ولاء للفكر الغربي وأنظمته وقوانينه ، فضلا عن ذلك كان للامتيازات الأجنبية دورها الواضح في فرض القانون الغربي على أنظمة الحكم والسياسة والاجتماع ، وذلك لحمية المؤسسات التبشيرية ومعاهد الإرساليات والأجانب المقيمين في مصر[١] .

والحقيقة أن الأوربيين كانوا يسعون للقضاء على التشريعات الإسلامية في مصر منذ عهد (السيرسكوت) المستشار القضائي الإنجليزي ، وكان رئيس الوزراء نوبار باشا ، رجل المصالح الأوربية في مصر ، يرى ضرورة نقل القوانين الفرنسية إلى اللغة العربية ، والعمل بأحكامها في المحاكم المدنية التي يراد

---

(١) انظر: يقظة الفكر العربي ، الأستاذ: أنور الجندي ، ص٣٢ .

تأسيسها ، وكان البعض من القائمين على الأمر يرى أن يكون القضاء الأهلي مستمدا من الفقه الإسلامي ، على غرار الدولة العثمانية التي قامت بتجربة موفقة ، وذلك بإنشاء قانون مدني مستمد من الأقوال الراجحة على مذهب الإمام أبى حنيفة .

ونشأت في مصر فكرة سن قانون أوسع وأشمل مما تم في الدولة العثمانية ، وأن تؤخذ أحكام القانون المدني المصري من أوفق الآراء والأحوال في جميع المذاهب الفقهية الإسلامية ، وقد عرضت هذه الفكرة على العلماء فاستنكروها ؛ لأنها قائمة في زعمهم على أساس التلفيق بين المذاهب ، باعتبار أن الأخذ بالرخص في مختلف المذاهب غير جائز .

وبناء على ذلك عهد نوبار باشا إلى مسيو مونوري المحامي بالإسكندرية بأن يترجم للمحاكم المدنية قوانين فرنسا المدنية والجنائية والتجارية .

ومن هنا دخلت القوانين الغربية إلى مصر ، وبدأ تطبيقها في المحاكم المدنية ، دون مراعاة لظروف المجتمع وبيئته وعاداته وتقاليده ودينه وشريعته ، ولم تغرب شمس القرن التاسع عشر إلا وكانت التقنيات الوضعية قد شملت معظم العلاقات المدنية والتجارية ، والقوانين الجنائية ، ونظم الحكم ، وإجراءاتها ، وبقي للشريعة الإسلامية مجال الأحوال الشخصية ، تقضي فيها المحاكم الشرعية(١) .

وحينما اندلعت الحرب العالمية الأولى ، وأعلنت إنجلترا الحماية على مصر ، وألغت منصب القاضي الشرعي الأكبر ، الذي كان يعين من قبل الدولة العثمانية عليها ، تألفت لجنة من علماء الأزهر وبعض المدرسين في مدرسة

---

(١) انظر: المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية ، طارق البشرى ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، الهيئة المصرية للكتاب : ١٩٨٠م .

القضاء الشرعي ومدرسة الحقوق ، يرأسها وزير الحقانية ، وذلك لوضع قانون للأحوال الشخصية المتعلقة بأحكام الزواج وما يتبعه ، كالطلاق والفسخ والعدة والنفقة وغيرها ، يستمد هذا القانون مواده من فقه المذاهب الأربعة المشهورة ، ولا يتقيد بمذهب الحنفية وحده ، بل يؤخذ من فقه المذاهب الأخرى ما تراه اللجنة أيسر ، وأكثر انطباقا على مصلحة الناس في هذا العصر .

وفي نهاية عام ١٩٢٦م شكلت لجنة لإصلاح المحاكم الشرعية في مصر ، التي فكر في إنشائها وزير الحقانية ، فانبرت (صحيفة السياسة) ، وطالبت اللجنة أن تفرق بين ما هو دين وما هو شريعة ، معتبرة أن الصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر العبادات قسم قائم بذاته يسمى دينا ، وأن مسائله لا تتغير ولا تتبدل ، أما سائر أبواب الفقه من معاملات مدنية ، وقوانين جنائية ، وأخرى دولية ، فهي مسائل قابلة للتغيير والتعديل والتمحيص ، وأن ما وافق حال الأمم الاجتماعية يجب اتباعه ، وما لا يوافق يجب رفضه ، والنظر في تشريع غيره ، وذهبت السياسة إلى أن ما تحكم به المحاكم الشرعية من الفقه الإسلامي هو آراء للمجتهدين قابلة للتغيير والتهذيب ، وأن قانون الأحوال الشخصية ليس له علاقة بالحلال والحرام ، وهو ليس من الدين في شيء ، ويجب تغييره بما يوافق روح العصر الحاضر .

وتجدر الإشارة إلى أن القائمين على الأمر في مصر كانوا يدعمون ويساندون دعاة الحضارة الغربية والفكر الغربي في هجومهم على الشريعة الإسلامية ، والمحاكم الشرعية ، وتغيير القوانين الإسلامية وتغريبها وعلمنتها ، ففي عام ١٩٣١م دعا إسماعيل صدقي رئيس الحكومة المصرية إلى توحيد القضاء في مصر بإدماج القضاء الشرعي في القضاء الأهلي .

يقول الشهيد عبد القادر عودة: «كانت الشريعة الإسلامية هي القانون الوحيد لكل بلد إسلامي من يوم أن دخله الإسلام، وظلت كذلك حتى كان تسلط الاستعمار على البلاد الإسلامية، فأدخل فيها القوانين الوضعية الأوروبية، أو أغرى حكامها الذين وضعهم تحت حمايته أو تحت رحمته بإدخالها، وكانت الحجة المتكررة في إدخال هذه القوانين أنهم يريدون الأخذ بأسباب المدنية الأوربية والتقدم الأوربي، كأنما التقدم الأوربي والمدنية الغربية راجعة إلى هذه القوانين البشرية، وكأنما تأخر المسلمين وضعفهم راجع إلى شريعتهم السماوية.

وقد وجدت هذه الحجة الفارغة عقولا فارغة في البلاد الإسلامية تصدقها وتؤمن بها، وتلقنها للنشء في معاهد الدراسة وتثبتها في الكتب المدرسية»[1].

وأثيرت معركة دار فيها النقاش حول علماء الإسلام في دفاعهم عن الشريعة والسائرين في ركاب الغرب الثقافي.

وبعد انحسار موجة الاستعمار العسكري، فإن التصرف المنطقي المعقول أن نوصل ما انقطع ونسترجع نظامنا التشريعي الذي حكمنا طوال تاريخنا عندما كنا أحرار الإرادة، وما أصدق الشيخ أحمد شاكر في قوله بإحدى محاضراته: «وكما عرفنا بعد الحرب الماضية كيف نسترد استقلالنا السياسي أو أكثره، فسنعرف الآن كيف نسترد استقلالنا التشريعي، والعقلي كله، وسنعيد للإسلام مجده، إن شاء الله»[2].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، د. عبد العزيز الشناوي ١/ ١٤-١٦، مكتبة الأنجلو المصرية ط١، ١٩٨٤م.

(٢) الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين في مصر، ص:٢٨، دار الكتب السلفية بالقاهرة، سنة ١٩٨٦م.

وذكر الحاضرين في كلمته أن مصر كلها فرحت حين تمكن مندوبوها في مؤتمرات أوربا منذ بضع سنين أن يقنعوا المؤتمرين ليصدروا قرارا بأن الشريعة الإسلامية تصلح أن تكون مصدرا من مصادر القوانين[١] .

وربما تصلح تصرفات الإنجليز بمصر كنموذج طبقته الدول الاستعمارية الأخرى كفرنسا وإيطاليا وغيرها في باقي بلاد المسلمين .

إن ما حدث في مصر يعد نموذجا عظيم الدلالة على ما فعله الاستعماريون لتخريب الشخصية المسلمة من الداخل ، وتفكيك الأمة الإسلامية وتفتيت وحدتها ، ثم توجيه الطعنة القاتلة إليها بإبعادها قسرا عن شرع الله تعالى وإخضاعها لقوانينهم .

ثالثاً : تهميش الأزهر ومحاربة الفكرة الإسلامية :

يقول د/ يحيى إسماعيل:

«كان الأزهر الشريف لمصر بمنزلة الروح من الجسد ، وهو للعالم الإسلامي والعربي درة التاج لجبينه ، والعافية لدينه ، به صان الله لهم الدين ، وأسبغ عليهم النعمة ، فلم تعرف الأمة التطرف من بعض أبنائها ، ولم يظهر الإرهاب بين صفوفها إلا بعد أن أدارت ظهرها له ، وغفلت عن حقه عليها ، وذلك الحق الذي كان به علماء الأزهر وسط الناس ، حيثما حلوا ، المفْزَع عند كل ملمة ، والسند عند كل نازلة ، وهم الدليل الهادي لكل أمر من أمورها .

وَفَّت لهم الأمة فوفوا لها ، وليس بخافٍ على أحد ما حل بديارنا وأرضنا من معالم البؤس ، ونذر الحرب بأيدي الإرهاب الأسود ، والأفكار والمواقف المتطرفة البغيضة ، وقد كان نصيب العلماء من ذلك غير قليل ، ساعد عليه

---

(١) المرجع السابق ص ١٢ .

إغفال أمرهم والتنكر الرسمي وشبه الرسمي لحقهم، والإهمال المتعمد من وسائل الإعلام لمكانتهم وقدرهم»[(١)].

كان الأزهر على مر التاريخ رائداً للأمة بفضل رجاله، وعزائم أبنائه، يقود كفاحها ويحمي بيضتها.

يقول الجبرتي: «تفرق الفرنسيون في صحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وأحدثوا فيه، وقد انتقم الشيخ سليمان الحلبي للأزهر، فقتل قائد الحملة الفرنسية في سبيل الله، وأعدم مرفوع الرأس طالبا الشهادة، ولقد قبض على الشيخ أحمد الجوسقي، والشيخ أحمد الشرقاوي، والشيخ عبد الله الشبراوي، والشيخ يوسف المصيلحي، وعَرُّوهم من ثيابهم، وصعدوا بهم إلى القلعة، وقتلوهم بالبنادق، وألقوهم من السور خلف القلعة، ولم تعرف لهم قبور»، هؤلاء هم شيوخ الأزهر، وأعلام الجهاد والكفاح، والعلم والعمل.

ولكن تم احتواء وتهميش دور الأزهر عبر حقب تاريخية متعاقبة من محمد علي باشا، مروراً بالحقبة الخديوية والملكية حتى العهد الجمهوري، وكان من الأسباب التي أدت إلى تهميش المؤسسات الدينية، منها:

١-عدم استقلالية علماء الأزهر ماليا:

وحل الأوقاف الأهلية مما أضعفهم وجعلهم مرتبطين بالحكومة.

يقول د/ إبراهيم البيومي غانم: «إن التحولات العميقة التي جرت على صعيد العلاقة بين المجتمع والدولة في تاريخ مصر الحديث والمعاصر قد أفضت تدريجيا إلى حلول الدولة محل المجتمع بشكل شبه كامل ابتداء من منتصف القرن العشرين، وكان لهذا الوضع الجديد تأثيرات مباشرة على نظام الأوقاف بكل أبعاده المؤسسية والوظيفية، بل وعلى بنيته المادية- متمثلة في الأصول الموقوفة

---

(١) جريدة الشعب ٢٦/ ١٢/ ١٩٩٧م.

بكل أبعاده وعلى بنيته التشريعية الفقهية التي نظمته في مؤسسة حكومية تأتمر بأمر سلطة الدولة، وليس بأمر الإرادة الحرة للناس أصحاب المبادرة الأصلية في إنشائها»[١].

ونظرا لهذا التدخل السافر للدولة الحديثة في نظام الوقف فَقَدَ العلماء مورداً أساسياً لأرزاقهم؛ مما أفقدهم استقلالهم الشرعي والعلمي والجهر بالحق في وجه الأنظمة الفاسدة.

٢- عدم استقلالية الأزهر علمياً:

فقد أمسى للرئيس بموجب قانون ١٠٣/ ١٩٦١م تعيين شيخ الأزهر، وكان هذا القانون يجعل الأزهر خاضعا لوزير مختص، بعد ما كان شيخ الأزهر يختار من هيئة كبار العلماء بواسطة العلماء أنفسهم.

٣ – تركيز وسائل الإعلام على رسم صورة نمطية سافرة لعالم الدين:

مما أدى لاهتزاز صورة عالم الدين في قلوب وعقول الأجيال المتعاقبة، وصار النيل من الإسلام وأهله بحجة الإبداع والفن والفكاهة وغير ذلك من السخافات، وطفحت الأفلام والمسرحيات والمسلسلات على كافة المناحي الحياتية.. اقتحمت على الناس بيوتهم، يشوهون ويسخرون من الدين وأهله، تارة بالسخرية من رجل الدين المتنطع والمتقعر، وتارات من الشباب النقي الطاهر.

(١) الأوقاف السياسية في مصر، د/ إبراهيم غانم، ص ٢٨، ٢٩ ، دار الشروق – القاهرة.

المبحث الثاني
في مجال الثقافة والفكر

لما رأى المستشرقون أن عامة المسلمين ينظرون إلى كتاباتهم بعين الريبة ، ويقفون منها موقف الحذر ، وأن تطاولهم على مقدسات المسلمين أثار حفيظة الكثيرين ، فكروا في وسيلة تَنْفُذُ خلالها أفكارهم بنعومة ، ومن غير أن تثير ضجة وحساسية .

فرأوا أن الاعتماد على أناس من بني جلدتنا خير وسيلة تحقق هذا الغرض ، فما كان منهم إلا أن تعهدوا بعض أبنائنا فغذوهم بلبانهم حتى شبوا منها وعليها ، وإذا بهؤلاء الأبناء ناطقين بما يريد الأعداء المربون ، بل وبما كانوا أشد عداوة ، وأجرأ على قول الباطل من سادتهم وأساتذتهم .

وهكذا وجد فينا أقوام ألسنتهم ألسنة العرب وقلوبهم قلوب مستعجمة ، ينفذون إرادة الأعداء بأمانة بلهاء ، ويحملون عنهم عبء محاربة الإسلام .

«وسرت روح الهزيمة في طائفة عريضة ممن تثقفوا بقشور الثقافة الإسلامية أو الأعراف والمفاهيم الإسلامية ، وولد حب التخلص من هذا الانتماء بأي وسيلة . . . .»(١) .

١- سلامة موسى :

ولد سلامة موسى سنة (١٣٠٤هـ - ١٨٨٧م) في قرية قرب مدينة الزقازيق بمصر لأب قبطي يعمل موظفا بالحكومة ، وسرعان ما توفي بعد عامين من مولد ابنه ، والتحق الابن بمدرسة قبطية ، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية بالزقازيق حتى حصوله على الشهادة الابتدائية ، ثم انتقل إلى القاهرة حيث التحق بالمدرسة

---

(١) مجلة الإصلاح ، عدد ٣٤ ، صفر ١٤٠١هـ .

التوفيقية ثم المدرسة الخديوية، حتى حصل على شهادة البكالوريا (الثانوية) سنة (١٣٢١هـ - ١٩٠٣م).

وفي عام ١٩٠٦م بدأت ملامح جديدة في شخصيته، وكما يقول هو: «بدأت أرسم خارطة حياتي سنة ١٩٠٦م، حيث ساء الوسط العائلي، ففررت إلى أوربا، وهناك شرعت أدرس اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وأقرأ من الكتب ما يشع النور في عقلي، ويبعث الشجاعة في قلبي».

الغرب وتكوين الفكر والملامح:

سافر سلامة إلى فرنسا، وقضى بها عاماً اختلط فيه بأوساط المثقفين الفرنسيين وتعرف على جريدة (الأومانينيه) التي كان يصدرها الحزب الاشتراكي الفرنسي، وأثار إعجابه الاهتمام الغربي بدراسة (علوم المصريات) الخاص بالحضارة الفرعونية.

عاد سلامة بعد ذلك إلى مصر، وقضى بها عدة أشهر، ثم عاد مرة أخرى إلى فرنسا وقضى بها سنتين، كانت سنواته تلك في فرنسا سنوات صدمة؛ إذ واجه الحضارة والأفكار الغربية في هذه السن الباكرة مواجهة كاملة، خلقت عنده انبهارا كاملا بالغرب، سواء على المستوى الحضاري أو الفكري أو الاجتماعي، وقرأ سلامة موسى خلال هاتين السنتين كتابات الاشتراكيين الفرنسيين، وتأثر بكبار المفكرين الفرنسيين، خاصة (فولتير) فيلسوف الثورة الفرنسية، كما قرأ كتب (كارل ماركس).

وبعد ثلاث سنوات في باريس عاد إلى القاهرة، وأصدر كتابه: (مقدمة السوبر مان) سنة (١٣٢٨هـ - ١٩١٠م)، وكان كتابا يعبر عن حالة الانبهار بالحضارة الغربية، وتضمن بدايات لأفكاره التي تطورت بعد ذلك، والتي ركزت على ضرورة الانتماء الكامل للغرب، وقطع أي صلة تربط مصر

بالشرق ، وتضمن هجوما على فكرة الدين والإيمان بالغيب ؛ إذ أورد فصلا في هذا الكتاب تحت عنوان: (نشوء فكرة الله) اقتبسه من الكاتب الإنجليزي (جرانت ألين) ينطلق من أساس مادي لفهم الكون ، واقتنع ببعض الأفكار العنصرية عن الزنوج والتي تعتبرهم من أكلة لحوم البشر .

وبعد سنواته الباريسية الثلاث انتقل إلى انجلترا لدراسة الحقوق ، وقضى بها أربع سنوات ، لكنه انصرف إلى القراءة بدلا من الدراسة ، وانضم إلى جمعية العقليين ، والجمعية الفابية ، والتقى بالفيلسوف الإنجليزي (برنارد شو) وتأثر به ، كما التقى بـ(تشارلز داروين) وتأثر بنظريته في التطور التي أثارت الكثير من الجدل والانقسام على مستوى العالم .

بين الأحزاب والصحف:

بعد أن عاد إلى مصر أصدر أول كتاب عن الاشتراكية في العالم العربي سنة (١٣٣١هـ - ١٩١٢م) ، كما أصدر هو وشبلي شميل صحيفة أسبوعية اسمها: (المستقبل) سنة (١٩١٤م) وأغلقت بعد ستة عشر عددا ، ورأس مجلة الهلال عام (١٣٤١هـ - ١٩٢٣) لمدة ست سنوات .

وفي سنة (١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م) أسس المجمع المصري للثقافة العلمية وأصدر مجلة أسماها: (المجلة الجديدة) ، لكن حكومة صدقي باشا أغلقت المجمع ، فقام سلامة بتكوين جمعية (المصري للمصري) وتبنت هذه الجمعية مقاطعة البضائع الإنجليزية ، مستلهمة في ذلك تجربة الزعيم الهندي (غاندي) .

أسس أفكاره التي تبناها:

ساهمت عدة عوامل في تشكيل فكر سلامة موسى ، منها تأثره ببعض الأفكار التي تبناها بعض المسيحيين خاصة الشوام ، والتي عبرت عن رفض الدين ، والإغراق في المادية ، والانبهار بالنموذج الغربي .

وكان تأثر سلامة موسى الأكبر بـ(شبلي شميل) المتوفى (١٣٣٦هـ - ١٩١٧م) وكان شميل أستاذاً في الجامعة الأمريكية، ويعد من أوائل ممثلي الاتجاه المادي الإلحادي في العالم العربي، وكان يرى أن العلم هو الدين الجديد للبشرية، كما كان من أوائل الاشتراكيين العرب، ومن أوائل من دعا إلى النظرية الدارونية المادية بهدف التخلص من دور الدين في الحياة، وكان يرى أن الحقيقة تكمن في المادة.

كما تأثر سلامة موسى بـ(فرح أنطون) المتوفى (١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م) صاحب مجلة (الجامعة) وهو ممن تأثروا تأثراً كاملا بالحضارة الغربية وأفكارها، ويعد أول من كتب العربية عن الفلسفة البوذية والكونفوشيوسية، وبعض أفكار الفلاسفة الأوربيين.

وكان لنظرية دارون أثر كبير أيضا في فكر سلامة، كما تأثر سلامة بمجموعة من الأفكار التي كانت سائدة في أوربا في ذلك الوقت، ومن ذلك الفكر الاشتراكي خاصة الجمعية الفابية البريطانية، والتي أسسها (سيدنى ويب) سنة (١٣٠١هـ - ١٨٨٤م)، وكان من أبرز أعضائها الفيلسوف (برناردشو) وكانت تدعو إلى تحقيق الاشتراكية بالتدرج دون عنف أو ثورة، وتحولت فيما بعد إلى حزب العمال البريطاني.

وكذلك الأمر بالنسبة لأفكار (كارل ماركس) ويقول سلامة في ذلك: (وأحب أن أعترف أنه ليس في العالم من تأثرت به وتربيت عليه، مثل: كارل ماركس، وكنت أتفادى اسمه خشية الاتهام بالشيوعية). كما تأثر بأفكار مدرسة التحليل النفسي لفرويد، ويقول في سيرته الذاتية: (ولقد جمعت بين فرويد وماركس وخرجت منهما بأزكى الثمرات). كما تأثر في أوربا بأجواء الحرية التي كانت سائدة والمظاهرات التي كانت ترفع لافتة (لا رب ولا سيد).

كما تأثر سلامة بأفكار أحمد لطفي السيد، التي دعا فيها إلى تحديد مفهوم جديد للشخصية المصرية يستند إلى أساس يختلف عن الرابطة الشرقية والدينية، ويربط بين الجنسية والمنفعة، وكان أهم ما طرحه في هذا الشأن الدعوة إلى الفرعونية كأساس لانتماء المصريين، ودعا إلى اللغة العامية بدلا من اللغة العربية الفصحى، وذلك لإنهاء الازدواج في اللغة عند المصريين.

الاتجاه الكامل وغير المشروط للغرب:

كان للروافد الفكرية والمتنوعة لسلامة موسى- وليس بينها أي رافد عربي أو شرقي – أثر في فكره وما طرحه من رؤى، فقد عبرت أفكاره عن حالة انبهار كامل بالغرب، حيث رأى ضرورة التخلص من الرابطة الشرقية، والتحرر من كل القيود: قيود الدين والتراث، والأخذ بالحضارة الغربية بكل جوانبها، وأعلن ذلك صراحة بقوله: «هذا هو مذهبي الذي أعمل له طوال حياتي، فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب، وفي كل ما أكتب أحاول أن أجعل قرائي يولون وجوههم نحو الغرب، ويتنصلون من الشرق».

ورسالة المثقف- في هذه الحالة من وجهة نظره- أن يوجه قراءه نحو الغرب؛ لأن «الرابطة الشرقية سخافة، والرابطة الدينية وقاحة»، ومن ثم فالنهضة لن تتحقق إلا بالاتجاه الكامل لأوربا، وغرس قيم وعادات الرجل الأوربي في مجتمعاتنا[1].

وصفه محمد جلال كشك في كتابه (الغزو الفكري) بأنه أخطر عملاء الغزو الفكري، وقال عنه فتحي خليل: «إقليمي عدو للعروبة والإسلام.. عميل من أخطر عملاء الغزو الفكري.. أرادوه أن يتمثل دوراً بعينه.. أن يحمل معول الهدم ليدمر تراثنا العربي، وعقيدتنا الإسلامية، أرادوه أن يكون هو الأداة التي

---

(١) انظر: موقع إسلام أون لاين.

يحركها المستشرقون والمبشرون والخواجات . . فهو على الأقل يحمل اسما مصريا ، وإن كان فجوره وتوقحه وإغراقه في عداوة وطنه ، قد جعل شيخ العملاء (يعقوب صروف) يتشكك في مصريته ، ويصر على أن به عرقا غير مصري»[١] .

جاء سلامة من أوربا يبشرنا بأن الدين رجعية ، وأفكار بالية ، وأن العروبة بداوة وخرافة ، وأن اللغة العربية هي أبشع لغات العالم ، وأحراها بالزوال العاجل .

هكذا أخذوه ودربوه ليعود فيبشر فينا بأننا جزء منهار من العالم ، وكانت أصول اللعبة تقضي أن يحمل معول الهدم من له اسم مصري ؛ لأن خبرة الصيادين تعرف أن الفيلة لا يقودها إلى سجن الصياد الماكر ، إلا فيل عميل أتقن تدريبه ، ليتسلل بين القطيع ، فيألفه القطيع ؛ لأن جلده مثل جلدهم ، ويسمعون له ؛ لأن صوته يشبه صوتهم ، فينقل من حقد قلبه المأجور ، ما لقن من لفظ مسموم ، حتى يغرر بهم ويسوقهم إلى حظيرة الصائد ، ليصنع منها منافض لسجائره ، ومقابض لعصيه ، وكرات يلعب بها ، ويحولها من شموس سيدة الغابة ، إلى مهرجة في السيرك ، ومطية لأطفاله العابثين .

وقد فهم سلامة موسي دوره هذا ، فنراه في الوثيقة التي كتبها إلى وكيل وزارة الداخلية في حكومة محمد محمود يعرض خدماته بأن يتولى هو إحداث انشقاق في الأقباط الملتفين حول الوفد ليقودهم إلى تأييد المعاهدة مع بريطانيا ، ويقول بالحرف الواحد وبخطه : «قد كنت منذ أشهر طلبت الترخيص لي بإصدار جريدة يومية باسم (الدنيا) لكي أخدم الحكومة في الدعوة لها بين

---

(١) سلامة موسى وعصر القلق ، فتحي خليل ، ص٧٣ .

الأقباط» عاش عدوا للعروبة والإسلام ومبشرا بالحضارة الغربية والنفوذ الغربي ، ومات ولم يسر في جنازته من أهل الكتابة إلا تسعة[١] .

سلامة موسى والدعوة للعامية وتمصير الأدب:

رأى موسى أن اللغة العربية لا تخدم الأدب المصري ، ولا تنهض به ، كما أنها تبخر الوطنية المصرية ، وتجعلها تذوب في وعاء القومية العربية ؛ لأن من يتعمق في اللغة العربية الفصحى لا بد أن يشرب روح العرب وأبطالهم بدلا من أن يشرب الروح المصرية وأبطالها ؛ ومن ثم فقد اقترنت الدعوة للعامية بالنزعة إلى الوطنية المصرية أو الفرعونية .

كذلك اتخذ موسى موقفاً سلبياً من الأدب والتراث العربي ، فقد نقد الأدب المصري في تقليده الأدب العربي ، وطالب أدباء مصر بالتعلم من أدباء أوربا التقدميين ، مع الإقلال من الصنعة في الأدب ، وتضمين الأدب الموضوعات الاجتماعية ، وأصدر مجلته (المجلة الجديدة) بهدف تغليب الاتجاهات العلمية على الثقافة العربية .

كان فكر سلامة موسى معبرا عن عدم توازن وأحادية نظر ، فبينما يبدي الرجل الانبهار الكامل بالغرب ، يبدي تعصباً شديداً تجاه الشرق ، وهذه الثنائية في التفكير التي وضعت الشرق في مقابل الغرب ، كشفت عن نوع من الانهزام والاستسلام الحضاري والتنصل من الهوية ، ومحاولة تكريس التبعية الكاملة للآخر ، ولذا نستطيع أن نقول: إن نموذج النهضة الذي طرحه سلامة موسى كان يرتكز على التبعية للغرب ، وليس على بناء نموذج مستقل للنهضة في الشرق .

---

(١) سلامة موسى (المفكر والإنسان) .

واختزال مشروع النهضة في التبعية للغرب فقط لا يعتبر إنجازا فكريا أو ثقافيا، بل هو انهزام نفسي وحضاري، واستبدال بقيود التقاليد التي تعوق النهضة في الشرق قيود الغرب في التبعية والاستعمار، وكلاهما مرفوض في مشاريع النهوض لأي أمة راغبة في التحرر والنهوض والعودة إلى الفعالية الحضارية.

لقد أثارت أفكاره صدمات جعلت الكثير ينفر من مشروعه الفكري، وهو ما فتح عليه جبهات متنوعة من الأعداء والمعارضين، مما جعل الصحف جميعها غير راغبة في نشر مقال له. وكان للآراء الصادمة التي أعلنها سلامة موسى وأصر عليها، أثرها في تعرضه لانتقادات واسعة، واتخاذ الكثيرين موقفاً معادياً منه.

فقد وصفه الأديب مصطفى صادق الرافعي بأنه معاد للإسلام، وكان الأديب عباس محمود العقاد من أشد منتقديه، فبعد ما نشر سلامة موسى (البلاغة العصرية واللغة العربية) أكد أن سلامة موسى «أثبت شيئا هاما، هو أنه غير عربي» ثم قال عنه: «إنه الكاتب الذي يكتب ليحقد، ويحقد ليكتب، ويدين بالمذاهب ليربح منها، ولا يتكلف لها الكلفة في العمل أو في المال».

ثم قال: «إن العلماء يحسبونه على الأدباء، والأدباء يحسبونه على العلماء، لهذا فهو المنبت الذي لا علما قطع ولا أدبا أبقى».

كما هاجمته مجلة الرسالة الأدبية، ووصفته بأنه الكاتب الذي يجيد اللاتينية أكثر من العربية، وهاجمه آخرون بأنه: صفحة يجب أن تطوى من تاريخنا الثقافي.

٢- طه حسين:

ولد طه حسين سنة ١٣٠٧هـ بقرية الكيلو التابعة لمغاغة بمحافظة المنيا في صعيد مصر في أسرة كبيرة، يبلغ تعدادها ثلاثة عشر ولدا وبنتا من إخوته، وقد أصيب في صغره بحمى أفقدته بصره، وهو في السادسة من عمره، أثناء تناوله الطعام مع إخوته فضحكوا عليه، فترك أثرا في نفسه غائرا، جعله يحاول وبكل قوة السخرية من الآخرين ونقدهم وتشويههم.

حاول أبوه كعادة أهل البلاد تحفيظه القرآن على يد أحد المحفظين، ولكنه فشل عدة مرات، وازداد بغضا لمن حوله، خاصة كل من كان له علاقة بالدين والقرآن لفشله السابق، حتى إنه حاول الانتحار وهو في العاشرة من عمره، مما يبين لنا الحالة النفسية المعقدة المملوءة بالغضب والحقد على الآخرين، وخاصة أهل الدين والقرآن منهم؛ مما مهد بذلك تربة صالحة للشيطان وأعوانه أن يبذروا فيها ما شاؤوا من الشك والريب، ورغم صغر سن طه حسين إلا أنه أظهر مكنون صدره عندما جهر بسب ونقد معلمه القرآن، ثم السخرية من إمام مسجد قريته، وكل الرموز الدينية في قريته.

رحلته في الأزهر:

أرسله والده لتلقي علومه بالأزهر، كما هي عادة أهل البلاد، وكان أخوه الكبير الشيخ أحمد قد سبقه لذلك، فالتحق طه حسين بالأزهر، ودخله وهو مشحون بالكره والبغض لكل ما هو ديني ومصري وشرقي، ووجد نفسه أمام أكبر رمز من رموز الإسلام، فانتقلت معركته الصغيرة مع معلمه القرآن وإمام المسجد إلى ثلة من علماء الأزهر. يقول عن نفسه إنه قد احتقر العلم منذ أول يوم سمع فيه درساً من مشايخ الأزهر.

عمل طه حسين منذ دخوله الأزهر على نقد أساتذته ومدرسيه، وعيبهم وبالأخص من يحبهم الطلبة، فاكتسب بذلك عداوة الجميع في الأزهر علماء وطلاب، وكل يوم يزداد بمشايخه طعناً وازدراءً، حتى قرر التحول من دراسة الشرعية إلى دراسة الأدب، ولكنه كان صاحب شخصية معقدة موتورة ضد الجميع، فزاد نقده للجميع، فأمر شيخ الأزهر بطرده وتسقيطه في الامتحانات.

دخوله الصحافة:

ذاع نجم طه حسين كما أراد لنفسه بالنقد والطعن في رمز الدين (الأزهر) والتقطه أحد دعاة التغريب وهو أحمد لطفي السيد، وفتح له السبيل لدخول الجامعة المصرية، وهو في نفس الوقت يواصل هجومه على الأزهر بدعوى التجديد والحرية، ووصل في هجومه لحد الافتراء والكذب والرمي بالكبائر على شيخ الأزهر، وواصل عبثه وشتمه لمشايخ الأزهر بصورة طائشة اعتذر هو عنها في آخر حياته.

عندما دخل الجامعة ذاعت شهرته بحكم أنه أول أزهري وضرير يدخل الجامعة، وسبقته شهرته التي اكتسبها عندما كان يطعن ويهاجم الأزهر وشيوخه، ومكافأة له على جهوده في الطعن على الدين ورموزه قررت الجامعة إيفاده في بعثة إلى فرنسا سنة ١٣٤٠هـ للحصول على رسالة الدكتوراه.

وهناك تلقفه المستشرقون من أمثال: جولد تسهير، وإميل دور كايم، ومانتسيه، وغيرهم من المستشرقين اليهود، ووجدوا فيه ضالتهم المنشودة كما قال القس زويمر: «لا بد أن يقطع الشجرة أحد أغصانها» فأحاطوا بهذا الطالب المسكين المحمل بكل الغيظ والكره لكل ما هو ديني وشرقي، وكل ما يربطه بالتراث.

سهل له هؤلاء إتقانه الفرنسية ، والحصول على الليسانس في سنة ١٣٤٣هـ ، وفي هذه الفترة تزوج الشيخ طه حسين الضرير من امرأة فرنسية جميلة اسمها سوزان ، وهي بالمناسبة ابنة قسيس كاثوليكي ، وكان لهذه المرأة دور مشبوه طوال حياته ، ولم تتكلم العربية قط ، رغم طول عمرها الذي امتد بعد وفاة طه حسين ، وأخذ الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٣٤٤هـ ، ثم عاد إلى مصر ليعين أستاذا لتاريخ الأدب العربي ، ويدخل مرحلة جديدة وخطيرة في نفس الوقت ، بل أخطر مراحل حياته .

مؤلفاته وأفكاره:

حاول طه حسين استغلال لقبه الجديد ، والذي أعطى له زوراً في فرنسا ، كما اعترف بذلك زميل طه حسين في البعثة ، واستغلال منصبه الجديد كأستاذ في الجامعة ؛ ليبث سمومه وأحقاده على الدين وأهله وسط طلابه في الجامعة ، وعلى صفحات الكتب التي ألفها لنشر أفكاره ، واتبع طه حسين أسلوب الإثارة ، وافتعال المعارك مع الآخرين ، ليرى مكانه ويسمع صوته ويروج فكره .

وكانت هناك مجموعة من الأفكار والآراء المسمومة التي عمل في ظلالها طه حسين من خلال المجالات العديدة التي عمل بها (ثقافية – تعليمية – فكرية – أدبية) ، فلم يأل الرجل جهداً في بث سمومه وشكوكه .

ومن ذلك أنه كان يرى ضرورة فصل الدراسات الأدبية عن روح الإسلام ومثله تحت لافتة حرية البحث الأدبي ، فلا حرج في أن يصور الرذيلة كيف شاء ، وهو مذهب إباحي ، كان جزءا من رسالته ومنهجه الذي شاع من خلال أدب المجون والجنس والرذيلة ، ودفع بالأدب إلى أوحال الشهوات والإباحية .

يقول إبراهيم المازني: (ولقد لفتني إلى الدكتور طه حسين ، في كتابه (حديث الأربعاء) أن له ولعاً بتعقب الزناة والفساق والفجرة والزنادقة ، وهو ما حمله- طه حسين- على قوله في العصر العباسي : «إن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك ومجون ، وعصر افتتان وإلحاد على الأخلاق ، والعادات الموروثة والدين» إلى أن قال في وصفه: «خسرت الأخلاق من هذا التطور وربح الأدب» .

كما حاول طه حسين إخضاع الأدب العربي والفكر الإسلامي والتاريخ لمناهج ونظريات الأدب العربي وروحه القائمة على المادية الغربية ، وعلى استعلاء الغرب المستعمر على العرب والمسلمين .

ولم يترك مقولة شاردة لمستشرق حاقد إلا نقلها وادعاها لنفسه ، كما أعلى من شأن الأدب اليوناني القديم ، والفرنسي الحديث ، وشغف بأسلوب الشك والتهكم والظن والادعاء بدون دليل يعتمد على سند علمي صحيح .

ودعا إلى فصل اللغة العربية عن الدين الإسلامي ، وهو هدف تغريبي قديم يرمى إلى إسقاط مكانة اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم ، وقطع الصلات التي تربط الدراسات العربية بالدراسات الإسلامية .

كما سعى إلى محو دور الأزهر الديني داخل المجتمع المصري باستبعاده عن القيام بوظيفة تعليم الدين ؛ لأن مناهجه – كما يزعم – لا تحقق للدارسين عمق الثقافة وحرية الفكر ، وكان يهدف من ذلك إلى خطف دراسات الإسلام من الأزهر ، ونقلها إلى كلية الآداب التي يقوم أسلوب التدريس بها على منهج علماني مادي .

ودعا إلى ما أسماه (تطوير النحو) وكانت هذه دعوة خبيثة ترمي إلى صرف الناس عن دراسة كتب النحو القديم والبلاغة القديمة ، بدعوى أن القواعد القديمة معقدة .

كما زعم طه حسين أن عقلية مصر عقلية يونانية ، وأنه لا بد أن تعود مصر إلى أحضان الفلسفة اليونانية ، ومن ثم كانت دعوته الملحة إلى جعل المثل الأعلى للحضارة يونانيا ، وأن يكون قادة الفكر الإنساني هم: هوميروس وسقراط وأفلاطون وأرسطو فيقول: «لو أن الحضارة الحاضرة أزيلت وأريد تأسيسها حضارة جديدة لكانت فلسفة أرسطو أساسا لها» .

وفي كتابه: (رحلة الربيع) يقول: «إنها أثينا هي التي أرست للأجيال وللإنسانية طريقها الذي سلكته وسنسلكه مدى الحياة» .

وفي كتابه (حديث الأربعاء) اهتم بنشر أخبار الشعراء الماجنين والفاسقين والعشاق والزناة في الدولة الأموية والعباسية ، وأسقط ذلك على العصر كله ، فقال عن قرن من القرون الفاضلة بنص حديث رسول الله ﷺ: «إن العصر الذي دالت فيه الدولة الأموية ، وقامت فيه الدولة العباسية قد كان عصر شك وعبث ومجون» وكان طه حسين قد نقل هذا الكتاب من كتاب الأغاني للأصفهاني المعروف بتشيعه الشديد وعداوته للأمويين والعباسيين على حد السواء .

وهذا الكتاب يموج بالأمثلة ، أمثلة الفسق والفجور والتهتك والاستهتار ويدعو إليها ، ويحض عليها ، وإن ما ذكره من قصص أبي نواس وجماعته لينفر منه ذلك الأدب الذي يَدَّعي أنه يحترمه ويحميه ، فقد جاء في ذلك الكتاب من مخالفة الآداب والحض على الفجور والفسق ما يهدم الجبال الراسيات ، ويقوض أركان الفضيلة ويهدم صرح الأدب .

ومن أمثلة ذلك قوله: «كان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتدينون ويقيمون الصلاة ، ولكنهم كانوا يعبثون في هذا كما يعبثون في غيره ، وربما قضوا الوقت الطويل عاكفين على الفجر (بضم الفاء) ، ثم يذكرون

الصلاة فيقيمونها ، ولعلهم أقاموا الصلاة في مثل هذه الحال يوما وأمهم أحد الندماء فغلط وهو يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] فاستحالت الصلاة من خشوع الله إلى استهزاء بهذا الإمام الجاهل» ، إلى أن قال: «وإذا أردنا مثالا يختصر هذا العصر وشيخه فهذا المثال هو أبو نواس الذي نتخذ من درسه سبيلا إلى درس العصر كله» .

وقد أعد مجاهرة أبي نواس بالمعصية ضربا من الصدق ، وعدم الجهر بالمعاصي نوعا من الكذب لأنه إخفاء للواقع .

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي: «إن طه حسين لم يجد في الأدب القديم ما يستحق أن يبعث وينشر إلا أخبار المجونين الذين ابتلي بهم الأدب العربي كما ابتلى الأدب الفرنسي بأمثال أوسكار وايد ، وجان كوكنو ، نعنى أبا نواس ووالبة والخليع ومن إليهم ، ممن نشر طه حسين أخبارهم في (حديث الأربعاء) .

ومن الغريب أن تلك الأخبار الآجنة والأشعار الماجنة قد عرضها صاحب الكتاب في ثوب البحث الأدبي باسم التجديد ، كأن البحث والتجديد في الأدب ستار تحارب الفضيلة من ورائه ، ووسيلة للدخول إلى النفوس بما لم يكن أولا لتلك الوسيلة تداخل عليها .

وصاحب الكتاب قد دل بكتاباته على أنه ممن يرى إخلاء الفن من قيود الفضيلة ، فلا يكون هناك على الفنان حرج في أن يصور الرذيلة كيف يشاء بريشته أو قلمه مادام يصورها كما هي ، وهو مذهب تنزه عنه من أهل كل فن عظماؤهم ، وحاربه من أهل كل عصر زعماء الإصلاح فيه ، أمثال: كارليل ورسكن وماتيوا رنولد» .

---

(١) الإخلاص: ١ .

حاول الدكتور طه حسين أن يثير نظرية خبيثة بادعائه أن الأدب العربي يجب أن يدرس لذاته لا أن يدرس لغيره من فقه أو شرع ، وأن اتصال اللغة بالقرآن والدين يجعلها مقدسة مبتذلة في آن واحد ، مقدسة لأنها لغة القرآن والدين ، ومبتذلة لأنها لا تدرس في نفسها ، ولأن درسها إضافي .

يقول الدكتور طه حسين: «لتكن قاعدتنا إذن أن الأدب ليس علما من علوم الوسائل يدرس لفهم القرآن والحديث فقط ، وإنما هو علم يدرس لنفسه ، ويقصد به قبل كل شيء تذوق الجمال الفني فيما يؤثر من الكلام» .

والأدب لا ينبغي ألا يستقل قط عن الأخلاق استقلالاً يجعله لا يبالي أو وافق رذائلها أو خالف فضائلها ، فإن الله قد خلق الإنسان وحدة متماسكة ، لا أوصالا مفصولة ، وإذا كان الخلق الكريم والعاطفة النبيلة والدين الصحيح ضروريا للإنسان ، فلن يكون لمن يهمه رقى الإنسان بد من محاربة كل ما يضعف ذلك فيه ، فنّاً كان أو غير فن ، أدبا كان أو تمثيلاً أو تصويرا ، أو ما تشاء أن تسمى من الفنون .

وفي كتابه (على هامش السيرة) ، وهو كتاب كتبه بعد اشتداد الهجوم عليه بسبب كتبه السابقة فقرر كتابة بعض الكتب الدينية ، والتي من خلالها يبث سمومه وشروره المملوء بها قلبه الحاقد ، فملأ هذا الكتاب بالأكاذيب والأباطيل والأساطير التي ليست من التاريخ في شيء ، وغرضه من ذلك كله التشكيك في مصادر التشريع الإسلامي والتنفير من سيرة خير خلق الله .

وهكذا ظل طه حسين طوال حياته مسخرا قلمه ولسانه وإمكانياته كلها من أجل هدف واحد ، وهو تشويه الإسلام والتشكيك فيه ، والدعوة إلى العلمانية ، والتقليد الأعمى للغرب ، حتى قيل عنه: إنه مستشرق ولكن بلسان عربي ، وتعرض لكثير من المضايقات وهاجمه العام والخاص ، وأبغضه القريب

والبعيد، وعاداه العالم والجاهل، ومع ذلك خلعت عليه الألقاب الكبيرة، وصار عميدا لكلية الآداب، ثم وزيرا للمعارف، ثم عزل من منصبه بعد قدوم الثورة، وأخذ مكانه في الظل وقد تقدمت به السن يهاجم الكتاب والأدباء، وكل من له نزعة دينية، وظل على عقيدته حتى مات في ٢ شوال سنة ١٣٩٣هـ، بعد أن خدع الكثيرين وانبهر به الكثيرون، ولم يكن هو في واقع أمره إلا ذنبا للمستشرقين ولسانا للحاقدين، وثمرة خبيثة من ثمار الغزو الفكري الصليبي للإسلام وأهله.

طائفة من أقواله في كتبه ومقالاته:

أنكر طه حسين حقيقة قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وصرح بتكذيب التوراة والقرآن، حيث يقول بالنص في كتاب (الشعر الجاهلي): «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة.. أمر هذه القصة إذن واضح، فهي حديثة العهد ظهرت قبل الإسلام، واستغلها الإسلام لسبب ديني وسياسي، وإذن فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف على أصل اللغة العربية الفصحى».

ويقول في نفس الكتاب: «فالأمر ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يكون من صفوة بني هاشم، وفي القرآن سورة تسمى الجن أنبأت أن الجن استمعوا إلى النبي».

ويقول: «وليس من اليسير، بل ليس من الممكن، أن نصدق أن القرآن كان جديدا كله عن العرب، فلو كان كذلك لما فهموه، ولما وعوه ولا آمن به بعضهم، ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر».

ويقول في كتابه (في الصيف): «إذا كان من حق الناس جميعا أن يقرؤوا الكتب الدينية السماوية يدرسون ويتذوقون جمالها الفني، فلماذا لا يكون من حقهم أن يعلنوا آراءهم في هذه الكتب، هي موضوع للبحث الفني والعلمي بقطع النظر عن مكانتها الدينية».

وفي كتابه (الفتنة الكبرى) تناول طه حسين الخلافة الإسلامية بقوله: « لقد كانت الخلافة الإسلامية تجربة جريئة، توشك أن تكون مغامرة، ولكنها لم تنته إلى غايتها، ولم يكن من الممكن أن تنتهي إلى غايتها لأنها أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجرى فيه، سابقة بها هذا العصر».

٢- أحمد لطفي السيد:

في قرية برقين من قرى السنبلاوين التابعة لمحافظة الدقهلية بمصر ولد أحمد لطفي السيد في (٤ من ذي القعدة ١٢٨٨هـ - ١٥من يناير ١٨٧٢م)، ونشأ في أسرة على جانب من الثراء، فأبوه السيد باشا أبو علي كان عمدة للقرية ومن أعيانها، فعُنِيَ بتعليم ولده، فألحقه بكتاب القرية، حيث تعلم مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمدرسة المنصورة الابتدائية سنة (١٣٠٠هـ - ١٨٨٢م)، وبعد ثلاث سنوات من الدراسة انتقل إلى القاهرة، والتحق بالمدرسة الخديوية الثانوية، وظل بها حتى أتم دراسته الثانوية سنة (١٣٠٧هـ - ١٨٨٩م) ثم التحق بمدرسة الحقوق.

وفي أثناء دراسته تعرف على الشيخ محمد عبده الذي شجعه لما رأى فيه من أمارات النبوغ وميله إلى الحرية واحترام الحقوق، وقدرته على الكتابة والإنشاء، وكان من أثر هذا التشجيع أن قام أحمد لطفي السيد وجماعة من نابغي مدرسة الحقوق بإنشاء مجلة (التشريع)، كما التقى بجمال الدين الأفغاني في أثناء زيارته لاستانبول سنة (١٣١١هـ - ١٨٩٣م) وتأثر بأفكاره.

في معترك الحياة:

بعد حصول أحمد لطفي السيد على ليسانس الحقوق سنة (١٣١٢هـ - ١٨٩٤م) عمل بالنيابة، وتدرج في مناصبها حتى عين نائبا للأحكام بالفيوم سنة (١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م)، وفي أثناء هذه الفترة اشترك مع صديقه القديم عبد العزيز فهمي الذي التقى به في المدرسة الثانوية بالقاهرة، في تأسيس جمعية سرية باسم (تحرير مصر)، فلما نما خبرها إلى الخديوي (عباس حلمي) سعى إليها عن طريق مصطفى كامل، زميل أحمد لطفي السيد في مدرسة الحقوق، وكان الخديوي عباس حلمي يسعى للتحرر من قبضة الاحتلال البريطاني، وممارسة سلطانه، فتقرب إلى الأمة، واستعان بشبابها الناهض لتحقيق أهدافه.

وكان من أمر هذا الاتصال أن تم الاتفاق على تأليف حزب وطني بزعامة الخديوي، وعلى سفر أحمد لطفي السيد إلى سويسرا، والإقامة بها سنة لاكتساب الجنسية، والعودة إلى مصر لإصدار جريدة تقاوم الاحتلال البريطاني، محتميا بجنسيته المكتسبة، وقد عقد أول اجتماع للحزب السري الجديد بمنزل محمد فريد برئاسة الخديوي عباس حلمي، وعضوية مصطفى كامل، وأحمد لطفي السيد، ومحمد عثمان، وغيرهم.

وفي جنيف التحق أحمد لطفي السيد بجامعتها، وعكف على دراسة الآداب والفلسفة، وزامله في الدراسة الشيخ محمد عبده الذي كان يزور سويسرا في ذلك الوقت، وعاد أحمد لطفي السيد إلى القاهرة دون أن ينجح في الحصول على الجنسية؛ لرفض الباب العالي العثماني تجنسه بها، وفي الوقت نفسه قدم تقريرا إلى الخديوي جاء فيه:

«إن مصر لا يمكن أن تستقل إلا بمجهود أبنائها، وإن المصلحة الوطنية تقضي بأن يرأس سمو الخديوي حركة شاملة للتعليم العام»، وكان هذا هو

رأى الشيخ محمد عبده الذي جعل من التربية والتعليم بعد عودته من المنفى خطته للإصلاح .

وعاد أحمد لطفي السيد إلى وظيفته في النيابة ، وظل حتى ترك العمل بالقضاء سنة (١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م) ، واشتغل بالمحاماة ، ثم لم يلبس أن ضاق بها ، فتركها إلى العمل بالصحافة والسياسة .

حزب الأمة وصحيفة الجريدة:

بعد أن ترك أحمد لطفي السيد العمل الحكومي اشترك مع جماعة من أعيان مصر في تأسيس حزب الأمة سنة (١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م) ، وتولى هو سكرتارية الحزب ، ورأس صحيفته المعروفة باسم (الجريدة) ، وقد استمرت رئاسته للجريدة سبع سنوات وبضعة أشهر ، توقفت بعدها تماما ، بعد أن لفظ حزب الأمة أنفاسه الأخيرة .

وكانت سياسة الجريدة تقوم على الدعوة إلى فكرة (مصر للمصريين) ومهاجمة الجامعة الإسلامية التي كان يدعو إليها السلطان عبد الحميد الثاني ، ويعبر أحمد لطفي السيد عن هذا بقوله: «نريد المصري والاحتفاظ به ، والغيرة عليه كغيرة التركي على وطنه ، والإنجليزي على قوميته ، لا أن نجعل أنفسنا وبلادنا على المشاع ، وسط ما يسمى بالجامعة الإسلامية» .

وازدادت السياسة هذه وضوحا بدعوته إلى حياد مصر من هجوم إيطاليا على ليبيا حين رأى تعاطف المصريين مع الدولة العثمانية ، وقيامهم بجمع التبرعات ، وحشد المؤن والأسلحة لإرسالها إلى الجيش العثماني في طرابلس بليبيا ، يقول لطفي السيد:

«وقد أخذت أنبه على استحياء إلى موقف مصر من هذه الحرب ، وهي أن تكون على الحياد ، وأن سيادة تركيا لا تجلب لمصر منفعة ولا تدفع عنها ضراً» ،

غير أن دعوته لم تلق استجابة ، وضاعت وسط عواطف المصريين ، وتعلق قلوبهم بدولة الخلافة العثمانية .

وسلكت الجريدة مسلكا مهادنا مع الاحتلال البريطاني ، بل نوهت بالتحسن المادي والإداري الذي وصلت إليه مصر في عهد الاحتلال ، وقبل أن يرحل اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر إلى بلاده أقيم له حفل وداع بالأوبرا في (ربيع الأول ١٣٢٥هـ - مايو ١٩٠٧م) ، وكان في مقدمة المحتفلين أعضاء حزب الأمة ، وأفردت الجريدة ملحقا عن حياة المعتمد البريطاني وأعماله في مصر ، فأشادت بأعماله المالية والاقتصادية ، ونددت بأعماله السياسية ؛ «لأنه حرم مصر من حياة سياسية تطمح إليها كل أمة حية» .

مديراً للمكتبة:

وبعد توقف الحرب وإغلاق الجريدة عُيِّنَ أحمد لطفي السيد مديراً لدار الكتب خلفاً للدكتور (شاده) الألماني ، وفي دار الكتب انفسح له الوقت ، فترجم بعض أعمال أرسطو ، ودعا إلى ترجمة الكتب الأخرى ، وندب من وثق بهم للاضطلاع بنقل الثقافة الغربية إلى العربية ، موقنا أن النهضات في بواكيرها إنما تقوم على الترجمة التي هي بمثابة التمهيد ، بالاحتذاء ثم الخلق والأصالة .

ويذكر له أنه في أثناء عمله بدار الكتب أنشأ مجمعا لغويا عرف باسم (مجمع دار الكتب) ، تولى رئاسته الشيخ محمد أبو الفضل الجيزواي ، واشترك في عضويته حفني ناصف وعاطف بركات وغيرهما ، غير أن هذا المجمع الوليد لم تطل به الحياة ، فانطوت صفحته بعد عام من إنشائه .

العودة إلى العمل السياسي:

بعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى سنة (١٣٣٧هـ - ١٩١٨م) استقال أحمد لطفي السيد من دار الكتب ، واشترك مع سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوي وغيرهم في تأليف وفد للمطالبة بالاستقلال ، وكانت نتيجة

المطالبة أن نُفي سعد زغلول ورفيقاه إلى خارج البلاد ، فاشتعلت البلاد بثورة ١٩١٩م التي أقضت مضاجع الاحتلال ، وظل أحمد لطفي السيد في القاهرة يحرر بيانات الوفد ومذكراته ، وتطور الأمر إلى رضوخ بريطانيا للتفاوض ، وتشكلت وزارة حسين باشا ، فأفرجت عن الزعماء المنفيين ، وسافر لطفي السيد مع الوفد المصري إلى باريس ، لعرض مطالب مصر على مؤتمر السلام المنعقد في فرساي .

مديراً للجامعة المصرية:

ظل أحمد لطفي مديرا لدار الكتب حتى مارس ١٩٢٥م ، قبل أن يعين مديرا للجامعة المصرية بعد أن أصبحت حكومية ، وفي عهده اتسعت الجامعة فضمت إليها كلية الهندسة ، والحقوق ، والتجارة ، والزراعة ، والطب البيطري وغيرها .

كما قبلت الجامعة سنة (١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م) أول مجموعة من الفتيات للالتحاق بها دون ضجة أو دعاية لهذا الأمر في الصحف ، وسارت الأوضاع في هدوء حتى تخرجت أول دفعة من الطالبات سنة (١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م) وكانت ثلاث طالبات في كلية الآداب ، وواحدة في كلية الحقوق ، وكان ذلك مأثرة له في سبيل النهوض بالمرأة ، والمحافظة على حقها في التعليم .

ما بعد الجامعة:

ظل أحمد لطفي السيد مديرا للجامعة حتى استقال منها سنة (١٣٦٢هـ - ١٩٤١م) بعد أن اطمأن إلى أوضاعها ، ثم دعاه أحمد ماهر ليكون عضوا في الهيئة التي كونها لدراسة مقترحات الحلفاء لإنشاء منظمة دولية جديدة تحل محل عصبة الأمم ، كما اشترك في وزارة إسماعيل صدقي سنة (١٩٤٦م) وزيرا للخارجية ، وعضوا في هيئة المفاوضات بين مصر وبريطانيا التي عرفت بمفاوضات (صدقي – بيفن) غير أنها فشلت ، وخرج لطفي السيد من الوزارة

التي كانت قد شكلت برئاسة صدقي لمواجهة المد الشعبي المطالب بالتحرر والاستقلال، ولم يشترك بعد ذلك في أعمال سياسية أخرى.

ولم يترك لطفي السيد مؤلفات على كثرة ما كتبه في (الجريدة) ولم يتهيأ مما كتب سوى ثلاثة مؤلفات جمعها له إسماعيل مظهر هي: (المنتخبات) في جزأين، و(تأملات) و(صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية) بالإضافة إلى مذاكراته التي بعنوان (قصة حياتي).

وترجم لطفي السيد عن الفرنسية كتب أرسطو: الأخلاق، الكون والفساد، الطبيعة، السياسة.

انحرافاته:

١ - من أعظم انحرافاته كما يقول ألبرت حوراني: «لم يكن مقتنعا كأساتذته بأن المجتمع الإسلامي أفضل من المجتمع اللاإسلامي»[١] وتوضيح ذلك: أن الدين سواء كان الإسلام أو غيره لا يعنيه كأحد العوامل المكونة للمجتمع.

٢ - دعوته إلى العلمانية وعزل الإسلام عن أن يكون مرجعا لسلوك الفرد والمجتمع إلى مجرد علاقة بين العبد وربه يحتفظ بها في ضميره.

٣ - دعوته إلى الوطنية الضيقة والفرعونية؛ حيث استبدل لطفي رباط الأخوة الإسلامية بهذا الرباط الجاهلي.

يقول ألبرت حوراني في كتابه (الفكر العربي في عصر النهضة): «كان لطفي كغيره من المفكرين المصريين لا يحدد الأمة على أساس اللغة أو الدين، بل على أساس الأرض، وهو لم يفكر بأمة إسلامية أو عربية بل بأمة مصرية، أمة القاطنين أرض مصر»[٢].

---

(١) الفكر العربي في عصر النهضة، ص٢١١.
(٢) ص ٢١٦.

وكان يرى أن «لمصر في نظره ماضيان: الماضي الفرعوني والماضي العربي، ومن المهم أن يدرس المصريون الماضي الفرعوني لا للاعتزاز به فحسب، بل لأنه يلقنهم قوانين النمو والارتقاء»[1].

وقد نادى بهوية مصرية وطنية تستند في تاريخها المتواصل، الذي لم يكن الحكم الإسلامي فيه إلا مجرد فصل واحد.

(١) المصدر السابق ص: ٢١٦، ٢١٨.



صور حياتية لضياع الهوية الإسلامية

الفصل الرابع

صور حياتية
لضياع الهوية الإسلامية

من الواضح أن وجوه معركة التحدي المعاصر والتي ساحتها الرئيسية (الهوية) ترمى- كما رمت في القديم- إلى محاولة استئصال العقيدة الإسلامية، أو على الأقل محاولة تشويهها؛ لأنه واضح للعيان أثر العقيدة الإسلامية في استقامة الهوية والحفاظ عليها، ولأن الهوية هي رمز المسلم، ولا تتشكل من عنصر واحد أو من جانب معرفي واحد، تعددت مجالات التحدي بتعدد صوره وأشكاله؛ فكانت التحديات السياسية والفكرية والنفسية والخلقية والاجتماعية والاقتصادية، ولكل واحد من هذه المجالات خطط وأسلحة، منها الظاهر والخفي، وبعضها هجومي، وآخر دفاعي، وهنا حقيقة في غاية الأهمية في مسألة الهوية، وهي أن التحول المفاجئ من شأنه أن يشيع نوعاً من الاضطراب ولا يصل إلى النتائج المطلوبة، وأينما ذهب المؤثر عاد كل شيء إلى أصله.

لذا فقد فهم أعداء الإسلام ضرورة أن يتم التحول وفق مفهوم التطهير التدريجي للهوية الإسلامية لمحاولة إخراجها من إسلاميتها وإحلال المضمون الغربي محلها، ومن العجيب أن الثقافة الإسلامية نفسها قد تكون عاملاً مهماً في عملية التحويل. يقول أحد المنصرين: «المسلمون في حاجة لأن يتم اللقاء بهم داخل إطار الإسلام»، ويقول أيضاً: «من البديهي أن الناس يكونون أكثر رغبة في تقبل الإنجيل عندما يقدم إليهم بطريقة ملائمة غير غريبة عن ثقافتهم»[1] وبهذا – ووفق اعتقادهم – ينخلع المسلم من هويته بهويته ذاتها، ويتنصل من عبادته بعبادته نفسها، ويتجرع الثقافة الغربية بأوان إسلامية، وسيعظم التأثير طبعاً إذا جاء بألسنة عربية، أو كتب بأقلام عربية، ولذا كان

---

(١) المسلم المتنصر وثقافته لـ (هارفي – كون).

دأب الغرب في أن يتربى جيل من المثقفين في أحضانه ثم ينشرون ما تعلموه على أبناء قومهم بلسان عربي مبين . . .!

أيدلوجية التحطيم:

إن أخطر ما يواجه الهوية الإسلامية هي محاولة فصلها عن مصادرها ، أو محاولة تشويه تلك المصادر ؛ فكان تشويه التاريخ الإسلامي واعتباره فترة مظلمة من تاريخ الأمة ، وتصويره على أنه كان مسرحاً للظلم والفساد ، حيث مات العدل والإنصاف وماتت الفضيلة والعفاف على بلاط الأمويين والعباسيين وبأيدي خلفائهم ، وعلى الجانب الآخر تصدير حملات الاستيلاء على الشرق الإسلامي بأنها النور الذي جاء من أوروبا لينير ظلام الشرق الإسلامي ، وأنها اليد الحنونة التي ستأخذ بأيدي هؤلاء الضعفاء المساكين من لجو البحر إلى بر الأمان ، وكان أيضاً محاولة التشكيك في السنة النبوية ورفضها في مقابل الاعتماد على القرآن ، فظهر القرآنيون منكرو السنة وهم في الحقيقة ينكرون كل ما هو إسلامي ، وما هذا إلا صدى لدعوات قديمة .

فقد ظهرت في سماء المجتمع الإسلامي الصافي دعوات باطلة حتى من داخله ، فظهرت الشعوبية التي تمجد العنصرية على حساب الانتماء الإسلامي والتي تحاول أن يعود الناس إلى الجاهلية الأولى ، فالشعوبيون وغيرهم لم يستطيعوا مواجهة الفاتحين مواجهة سافرة بالحرب ، فانتهزوا فرصة الحرب الفكرية ووضعوا كتباً محشوة بالآراء والمذاهب الدينية القديمة في بلادهم .

ثم توالى نفث هذه السموم في البلاد ، فكانت الراوندية الذين انتهزوا فرصة قيام أبي مسلم الخراساني بالدعوة إلى العباسيين في خراسان فروجوا معتقداتهم القديمة عن الحلول والتناسخ ، وزعموا أن روح الإله انتقلت إلى علي وأبنائه من بعده حتى اتصلت بأبي مسلم الثائر ضد الأمويين ، ونادوا على

هذا الأساس بأن أبا جعفر المنصور هو ربهم الأعلى ، وقد أخمدت الفتنة بمقتل أبي مسلم الخراساني على يد أبي جعفر ورمى رأسه من أسوار بغداد التي كانت تحاط بسور عليه ألف من الروانديين لينشغلوا بالمال الذي عرض لهم .

ومثل هذه الفتنة التي تريد تسميم الفكر الإسلامي كانت فتنة الخرمية- نسبة إلى (خرما) زوجة (مزدك) زعيم الإباحية القديمة عند الفرس ، وهؤلاء قد استعانوا بالبيزنطيين ضد الدولة الإسلامية ، وكذلك جماعة الحشاشين القائلين بالظاهر والباطن ، إلى غير ذلكم من السموم التي استهدفت تشويه العقيدة الإسلامية ومسخ هوية الأمة ، هذه الأفكار وغيرها وجدت من يغذيها ويحميها فظلت آثارها في الأمة الإسلامية فكراً وسلوكاً .

أولاً: في الإعلام

للإعلام بصفة عامة جوانب خير وجوانب شر ، غير أن حظ الأمة الإسلامية من ذلك الإعلام كان أقرب إلى الشر منه إلى الخير ، وأنا هنا أقصد الإعلام عامة بين مقروء ومسموع ومشاهد ، ونظرة واحدة في بعض الإحصائيات قد تقفنا على حقائق هامة ، ففي دراسة أعدها الدكتور جاك شاهين أستاذ علوم الاتصال الجماهيري بجامعة ألينوي الأمريكية رصد فيها نيات الإعلام الأمريكي تجاه الإسلام والمسلمين ، فالإعلام الأمريكي يصور العرب الأمريكيين أنهم غرباء ويشكلون خطراً على الأمن القومي ، وأنهم يقفون جنباً إلى جنب مع مهربي المخدرات والمخربين ويؤازرون النشاط الإرهابي ، وتخرج المكتبات الأمريكية سنوياً مئات الكتب المعادية للإسلام ، وتحمل عناوين مثل (ميزان الإسلام) ، (الإسلام الملتهب) وغيرها ، وحتى في الكتب المدرسية المقررة على الطلاب يقدم المسلم فيها على أنه: راعي غنم يعيش في الخيام ، ويرتدي العباءة ، ويتزوج عدداً غير نهائي من النساء ، ويطلق كما يشاء ، ولا همّ له إلا الجنس والعنف ، وهو يخطف الطائرات ويدمر المنشآت . وأنتجت هوليوود ما بين عامي ١٩٨٦- ١٩٩٥م ما يقارب ١٥٠ فيلماً أظهرت فيها صورة بغيضة للعرب والمسلمين ، ففي العشرينات كان العربي تاجر عبيد وحشيش ، وفي السبعينيات والثمانينيات صار شيخاً بترولياً .

أما الآن في القرن الحادي والعشرين فهو إرهابي محترف ، يصلي ثم يقتل ، فهذه هي صورة العربي المسلم في الإعلام الأمريكي أو الغربي بصفة عامة ، ومع قتامة هذه الصورة إلا أنها غير مستغربة من الغرب ؛ لأنه لا يرانا إلا من زاويته ، زاوية المصلحة والمنفعة ، أما إعلامنا نحن فكان من المفترض أن يقدم شخصية المسلم بالصورة التي تليق به ، والتي توازي مع العكس صورة المسلم

في الإعلام الغربي في تشويه تلك الصورة ، فالمتدين في إعلامنا رمز سخرية واستهزاء وتعصب ، أما أي شخص آخر فهو (اللطيف) ، (الظريف) ، (المتمدن) الذي يعرف كيف تسير الحياة .

وبالتالي كيف يمكن أن يتعامل معها ، حتى وإن حاول الإعلام أن ينقد سلوكاً معيناً فإنه لا يحسن تقديم البديل الجيد ، فبديل الشخص المتدين المتعصب يكون بشخص آخر متحرر في فكره ، ولا خطر عليه إن شرب الخمور أو أنشأ علاقات غير شرعية ، وهذا الانطباع يتبادر إلى ذهن أي مشاهد للإعلام العربي .

حلقة لا تنتهي :

فحلقات الغزو الفكري مستمرة منذ أول لقاء جمع بين الفكر الإسلامي والغرب ، ولن ينتهي أبداً ، وقد تختلف أشكاله وآلياته . وسأسوق بعض الأقوال شاهداً على أن هذا الغزو كان له أثره الخطير على عقائدنا وعلى أخلاقنا وكذلك هويتنا ، فقد جاء في كتاب (الطفل والأمور الجنسية) وهو الكتاب الذي يحمل رقم ١٢ من سلسلة عنوانها: كيف تفهم الأطفال وهو كتاب ظهر بالإنجليزية ثم اجتهدت مؤسسة أمريكية على نشره وترجمته إلى العربية جاء في هذا الكتاب: إن الكثيرين من الآباء اليوم لا يكترثون للظهور مجردين من الثياب أمام أطفالهم الصغار ، وهذا أمر لم يكن يحدث في الماضي إلا نادراً ، فيرى الصغار أبويهم وهم يخلعون ملابسهم أو يرتدونها ، فإن كان في وسع الآباء أن يفعلوا ذلك دون شعور بالحرج أو الاضطراب ، فإن ذلك يكون مراناً طبيعياً بصورة طبيعية ؛ لأنه يعود الطفل الشعور بأن الجنس ليس أمراً مشيناً كما يساعد على إشباع فضوله فيما يتعلق بأجسام الكبار . ا هـ .

وجاء أيضاً في نفس الكتاب فيما يتعلق بـالاختلاط في المـدارس والنـوادي: إذا حدث استلطاف بين بعض البنين والبنات فينبغي النظر إليه على أنه نوع من الصداقة، وليس غراماً أو عشقاً، فالمعاكسات البريئة قـد تبعـث في صـداقتهما دفئاً كانا يفتقران إليه، وقد تولد فيهمـا الشـعور بأنـه يتوقـع منهمـا أن يسـلكا مسلك الكبار. اهـ.

ويقول أحد الكتـاب الأمـريكيين(1): «مـن أراد أن يكـون رجـلاً ينبغـي أن ينشق على السائد المألوف، ومن أراد أن يجمع ثمـر النخيـل الخالـد ينبغـي ألا يعوقه ما يسميه الناس خيراً، بل يجـب عليـه أن يكتشـف إن كـان ذلـك خـيراً حقاً. لا شيء في النهاية مقدس سوى نزاهة عقلك». اهـ.

وأمثال هذا الكلام كثير، مع أن هذه الأفكار نفسها هي التي جعلت الغرب في دوامة من القضايا الاجتماعية لا تنتهي، وكثرت مـن أجـل ذلـك معـدلات الجريمة والعنف والأمراض النفسية كالاكتئاب، وزادت أيضاً معدلات الانتحار والإحصائيات تزداد يوماً بعد يوم.

وهنا تكمن خطورة مثل هذه الأفكـار ومـن خلالهـا نعـرف النوايـا السـيئة والضمائر الملتوية والحقد الدفين، مع أننا نقول إن صـدور هـذه الأفكـار لـيس غريباً منهم، أما أن تصدر من أفواه تتكلم بالعربية وبأقلام عربية فهذا هو الأمر الغريب العجيب، فقد دأب مفكرو الغرب على أن يوجدوا فئة عربية يطلقـون عليهم فيما بعد لفظ مفكرين ومبدعين، وتفتح أمـامهم كـل المغـاليق وينـالون الأوسمة والمراكز الأدبية حتى يتكلموا بهذه الأفكار وأمثالها، بـل قـد يبـدعون ويأتون بما عجز عنه ذلك المفكر الغربي، ومن هذا الباب ظهرت مجموعـة مـن الروايات والتي تبنت نشرها مؤسسات ثقافية حكومية في بعض الـدول العربيـة

---

(1) انظر هذه الأقوال في كتاب: (الإسلام في مواجهة التحديات).

أمثال (وليمة لأعشاب البحر) والتي ما استطعت أن آتي بنماذج منها لوقاحة ما فيها من إسفاف وتعد على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ ، ومع الأسف سميت إبداعاً وسمي مؤلفها أديباً ومفكراً مبدعاً .

لندع لغة الأرقام تتحدث :

على الرغم من دقة الأرقام إلا أنها في تقلبات مستمرة ، فإحصائيات اليوم قد تتغير غداً كما أن إحصائيات أمس تفارق إحصائيات اليوم ، وسنحاول استخدام هذه اللغة حتى يمكننا أن نقف على مدى خطورة الموقف ، وبالطبع لن نستطيع أن نحصي كل الأرقام المتعلقة بآليات تحطيم الهوية ، وذلك لتعددها كما أسلفنا ، فقط سنتناول أرقاماً وإحصائيات خاصة بالإعلام ودوره وآثاره .

فقد أظهرت دراسة قام بها مجموعة من الباحثين[١] أن وسائل الإعلام مجتمعة لا يتجاوز تأثيرها ٣٠% من قوة تأثير التليفزيون أو الإعلام المشاهد . وأظهرت الدراسة كذلك أن الطالب عقب تخرجه من المرحلة الثانوية يكون قد أمضى في حجرات الدراسة أكثر من ١٠٨٠٠ ساعة ، بل إن معدل حضور بعض الطلاب في الجامعة يقدر سنوياً بـ٦٠٠ ساعة ، بينما متوسط اليونسكو أن شبكات التلفزيون العربية تستورد ٣٣% من إجمالي البث ، وتبلغ نسبة البرامج الأجنبية في بعض الدول العربية نحو ٦٩% من مجموع البرامج الثقافية .

ومما يؤكد عدم مصداقية الصورة المنقولة إلينا في كثير من القضايا- خاصة المتعلقة بالأحداث اليومية الإخبارية- أن ٩٠% من الأخبار التي يتناقلها العالم من نتاج خمس وكالات عالمية فقط ، اثنتان أمريكيتان وواحدة إنجليزية وأخرى فرنسية وأخرى روسية .

---

(١) هذه الإحصائيات مأخوذة من كتاب (الإسلام والعولمة) عن دراسة للدكتور/ ناصر العمر .

أما فيما يخص استغلال المرأة في الإعلام فحدث ولا حرج ، ففي تحليل لما يقارب ٣٥٦ إعلاناً تلفزيونياً كانت النتيجة كالآتي:

- استخدمت صورة المرأة في ٣٠٠ إعلان كررت قرابة ٣٠٠٠ مرة في ٩٠ يوماً .
- ٤٢٪ من الإعلانات التي ظهرت فيها المرأة لا تخص المرأة أصلاً .
- سن النساء اللاتي ظهرن في الإعلانات من ١٥ – ٣٠ سنة .
- اعتمدت ٧٦٪ من الإعلانات على مواصفات خاصة في المرأة كالجمال والجاذبية وحركة الجسد .

وأظهرت إحصائية أخرى من السلبيات المنعكسة على الأسرة (خاصة النساء) بسبب متابعة القنوات الفضائية بجميع مشاربها أن ٨٥٪ يحرصن على مشاهدة القنوات التي تعرض المشاهد الإباحية ، ٥٣٪ قلت لديهن تأدية الفرائض الدينية ، و٣٢٪ فتر تحصيلهن الدراسي ، و٤٢٪ يتطلعن للزواج المبكر ولو كان عرفياً ، و٤٢٪ تعرضن للإصابة بأمراض النساء نتيجة ممارسة عادات خاطئة .

ولا شك أن هذه الأرقام وتلك الإحصائيات ستؤثر على العنصر الثالث من عناصر بناء الأسرة وهم الأطفال ، فكل ما يراه الطفل ينطبع في مخيلته وتختزن في ذاكرته . ومن هنا تأتي خطورة ما يعرض على الأطفال من الصور والإعلانات ومختلف الدعايات ، تذكر الإحصائيات أن ٩٨,٦٪ من الأطفال يشاهدون الإعلانات بصفة منتظمة ، و٩٦٪ من الأطفال يتعرفون على المشروبات المعلن عنها بسهولة ، و٩٦٪ قالوا إن هناك إعلانات يحبونها ، فيحفظون نص الدعاية ويقلدون المعلن .

وهذا يقفنا على أن الإعلانات لم تعد وسيلة ترويجية ، بل صارت عند البعض هدفاً في ذاتها ، وما فيها صار مادة مؤثرة في تكوين الشخصية الذاتية عند الأطفال ، ولا عجب بعد ذلك أن نرى السلوك العدواني أو السلوك المنحرف عن الصواب هو الطابع المميز لكثير من الصغار .

ما علاقة ذلك بالهوية ؟

سبق أن قلنا إن التحول لا يأتي بصورة مباشرة ، بل بصورة التحول التدريجي المسبوق بكثير من المقدمات والتي من خلالها تزول العلاقة بين الأسباب والآثار ، فنعاني حينها من الآثار . ولا يمكننا تحديد الأسباب لتعددها وتداخلاتها الهلامية مع الآثار ، فنبحث حينئذ عن الدواء في غير مكانه الصحيح ، ونكون كمن يبحث في النور عما ضاع منه في الظلام ، وتزداد المشكلات بمرور الأوقات لتصبح مشكلاتنا أشبه ما تكون بكرة الثلج يزداد حجمها كلما استدارت يمنة أو يسرة .

هذه الصورة التي نقلناها من خلال هذه الإحصائيات قد تبدو للبعض مشوبة بلون من القتامة التي تعجز الرؤية الصحيحة ومن ثم تتعاظم المشكلة وقد تبدو للبعض على أنها شيء طبيعي وصورة عادية لمرحلة الانفتاح الحضاري ولا يمكن أن تصل الآثار المتخوف منها إلى هذه الدرجة ، والحقيقة أن تلك النظرتين على خطأ .

فلا شك أن الصورة فيها شيء من القتامة ولكن تدفع إلى العمل لا إلى اليأس ، ولا شك كذلك أن لها من الآثار الكثير قد تبينه بعض الإحصاءات الخاصة بالابتكارات والاختراعات: فقد نبهت هيئة اليونسكو في تقريرها العلمي إلى تدني نصيب الدول العربية من براءات الاختراع التكنولوجي على مستوى العالم ، حيث بلغ نصيب أوروبا منها ٤٧,٢٪ ، وأمريكا الشمالية

٣٣,٤٪، واليابان والدول الصناعية الجديدة ١٦,٦٪، وبقي حوالي ٢,٦٪ تتنافس فيه باقي دول العالم، فما حظنا نحن من هذا الجزء المتبقي. أكرر أن هذا لا يدعونا إلى اليأس والاستلاب، بل إلى العمل والانفتاح على الآخر، مع الحفاظ على ثوابتنا وهويتنا والتي إن فقدناها صرنا صورة واحدة من صور الغرب، ذلك الذي يسير بسرعة الصاروخ، ولكن بجناح واحد، فما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.

الآثار السلبية على الأجيال والناشئة:

لقد شاع مصل الغزو الثقافي وتأكد وانتشر على ألسنة الدعاة والخطباء بعد ثورة البث المباشر عبر الأقمار الصناعية لكي تشكل غزواً جديداً لن تفلح الرقابة والمنع في مواجهته، وخصوصاً أن بعض الدراسات أظهرت أن الطالب عندما يتخرج من المرحلة الثانوية يكون قد أمضى أمام جهاز التلفاز قرابة ١٥ ألف ساعة، بينما لا يكون أمضى في قاعات الدراسة أكثر من ١٠٨٠٠ ساعة على أقصى تقدير، ومعدل حضور بعض الطلاب في الجامعة ٦٠٠ ساعة سنوياً، بينما متوسط جلوسهم أمام التلفاز ألف ساعة سنوياً.

ولا يمكن إنكار تأثير تلك الوسائل الجذابة، وخاصة على النشء، فقد ذكر تقرير اليونسكو أن: «إدخال وسائل إعلام جديدة- وخاصة التلفزيون- في المجتمعات التقليدية، أدى إلى زعزعة عادات ترجع إلى مئات السنين وممارسات حضارية كرسها الزمن».

ومن الآثار الخطيرة للثقافة المرئية التشكيك في عقيدة المسلمين والهوية العربية، وإضعاف عقيدة الولاء والبراء وتقليد الغرب، خاصة لدى فئة المراهقين والنشء بلا معرفة بأبعاد ومخاطر هذا التقليد الأعمى.

كما أن وسائل «الثقافة البصرية» تساهم في إضعاف مستوى التحصيل العلمي لدى الناشئة والانصراف عن الجدية في طلب العلم، وشيوع الخمول والكسل وعدم الجدية، بالإضافة إلى عادة السهر المرذولة، وإضعاف مستوى التلاميذ في اللغة العربية بسبب سيطرة العامية في أكثر من فضائية.

ومن الآثار الخطيرة التي يدركها الجميع الحض على العنف والجريمة، وشيوع الرذيلة ومخاطبة الغرائز، وتأخر الزواج وتفشي الطلاق، وافتتان المرأة بالأزياء، وعمليات التجميل التي تلعب بخلق الله وفطرته التي فطر الناس عليها، هذا غير الأضرار الصحية الناتجة عن إدمان المشاهدة مثل السمنة للأطفال، والترهل الفكري والإشعاعات التي تؤذى العين.

صناعة القدوات الكاذبة [١]:

ولعل أخطر ما تقدمه الثقافة هي القدوات المنحرفة والبيئة الاجتماعية والنفسية التي يعيشها أولئك القدوات، بحيث يصبح هؤلاء كتابا مفتوحا أمام المشاهدين تتابعهم الوسائل المرئية وتكمل الصورة حولهم الوسائل المقروءة، فنعرف ما يلبس هؤلاء وما يأكلون وأين يقضون أجازاتهم في الصيف، وما هي ذكرياتهم مع رمضان، بحيث يصبح هؤلاء هم الصورة التي تملأ الشاشات ولا تدع مجالاً لغيرها.

هذه القدوات التي قدمت لنا على أنها رموز المجتمع وشخصياته العامة، لم تعد مجرد اجتهادات تصل بأصحابها إلى وجودهم تحت الأضواء في كل حال من أحوال حياتهم، بل تحولت إلى صناعة لها أدواتها ووسائلها، فلم تعد صناعة النجوم تعتمد على موهبة النجم تمثيلاً أو غناء، فهذه مرحلة انتهت مع صيحة الفضائيات، وأصبحت الماكينة الإعلامية التي تصاحب النجم

(١) انظر كتابنا: شيء من الحقيقة.

والإمكانات المادية التي تقف خلفه، وكمية العلاقات التي يتمتع بها، متطلبات فاصلة في وصول هذه الشخصيات إلى الأضواء.

«هنا نحن أمام (نجومية) ولسنا أمام (نجوم) والنجومية قد صارت نمطاً ثقافياً تصنعه وتنتجه ثقافة الصورة، متجاوزة دور الفرد الرمز ودور الفرد النجم، وقد حل مكان ذلك مفهوم النجومية له شروطه وخصائصه، ويقوم بها أفراد يمثلون الدور بدوران سريع ومباشر».

«جاء الفيديو كليب ليقلب معادلات الذوق والجمال وليؤسس لمدرسة جديدة في الفن، وتتحول معه صيغ الإرسال والاستقبال، وتتعاضد معه مبتكرات الموضة والتجميل؛ لتحقق منظومة التأثير الحديث ولتخلق له صيغته الخاصة، حتى زال معه شرط (الصوت) في الغناء وحل محله شكل الوجه والجسم محل أي شرط آخر، وسعت كثيرات من الفنانات إلى صياغة أنفسهن حسب شروط اللعبة الجديدة، وأجرين عمليات جراحية طبية لتعديل أشكال الوجه والجسد لخلق شكل نموذجي يتطلبه سوق الفن.. وبعض المذيعات أصبحن زبائن مستديمات في عيادات التجميل من أجل صناعة الشكل المطلوب والمحافظة عليه».

وهكذا وبسبب هذا التدافع الجسدي المادي انتشرت عادة اللعب بفطرة الله وخلق الله بين نساء المسلمين خصوصاً ممن بهرتهن الصورة، وسيطرت عليهن فكرة الجمال الجسدي بعد أن ذبل الجمال الروحي بسبب هذه الضربات القاتلة التي توجهها وسائل الإعلام المرئية للروح.

إن ما نشاهده في أحيان كثيرة على ملابس أولادنا وبناتنا وأسلوب ترتيب شعورهم ومأكلهم إنما يعكس طبيعة التفكير الذي يستقر في وجدانهم، ونوعية المراجع التي تكون عقلياتهم، بحيث لم يعد في الساحة مكان لشخصية فكرية أو

دينية أو فلسفية أو ثقافية لكي تسلط عليها الأضواء وتأخذ نصيبها من التكريم ، بل تم احتكار هذا المكان للشخصيات السطحية التي ترضى بأن تستسلم لصانع النجوم ولديها خامة بقابلية عالية للتصنيع ، ولم يعد من الضروري أن يمتلك النجم مهارات شخصية لافتة ، بل عليه فقط أن يكون ذا فائدة ومردود مادي في موقعه حتى يحافظ على تلك النجومية المصطنعة .

الإعلام من صناعة العقول إلى صناعة القبول:

لعل بعضنا يذكر فكرة الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان في الثمانينات ومشروعه «حرب النجوم» والذي تذكر بعض المصادر الصحفية أنه تبناه متأثراً بخلفيته الهوليوودية باعتباره ممثلاً سابقاً ، وكان مشروع حرب النجوم في وقتها مثار انتقاد شديد من مختلف المتخصصين والعلماء والسياسيين ، باعتباره خيالياً من جهة ، ومكلفاً جداً من جهة ثانية .

وعلى الرغم من كل السخرية التي نالها هذا المشروع ، كان يرى ريغان فيه وسيلة لاتقاء أي هجوم سوفييتي مبكر على الولايات المتحدة ، بالإضافة إلى نفس ديني مسيحي بضرورة انتصار الغرب المؤمن على الروس الملحدين وهزيمة إمبراطورية الشر كما كان يراها ، فالذي يمتلك الأجواء في السماء هو الذي يحقق الانتصار ، وقد رأينا ذلك في أمثلة كثيرة بعضها في الحرب العربية مع إسرائيل ، وكيف كانت النكسة بسبب فقدان الفضاء الجوي العربي في أول ساعات المعركة بعد قصف الطائرات العربية الباسلة وهي جاثمة على أرضية المطارات ، كما رأينا هذا التفوق العسكري الواضح بشكل لا يقبل اللبس في حرب الولايات المتحدة في أفغانستان ، حيث يفتقد نظام طالبان إلى هذه التقنية ، وحرب الولايات المتحدة مع العراق المحاصر أكثر من عشر سنوات ، والذي كان سلاحه الجوي إما قابعاً في المطارات يعاني من نقصان قطع الغيار

أو في ضيافة الدول المجاورة ، حيث تحولت تلك الحروب إلى إلكترونية تعرضت فيها القوات العسكرية الأفغانية والعراقية إلى ما يشبه الأهداف المكشوفة السهلة ، وساهمت في حسم المعركة في وقت قياسي أصاب العالم بالذهول .

نذكّر في هذه المقدمة بحرب النجوم والصراع على الفضاء لكي نلفت الانتباه إلى حرب نجوم جديدة تدور في سماء العالم ، ولكن أسلحتها ليست الطائرات المقاتلة وأجهزة الرصد الإلكتروني وغيرها من المعدات العسكرية ، بل أسلحتها الأقمار الصناعية ، ومحطات البث الفضائي ، والقنوات الفضائية وشبكات الإنترنت ووسائل الإعلام ، ومهمتها الكبرى تغيير الهويات وتبديل القناعات وزراعة الأقطار الجديدة المناسبة لعصر العولمة والتفوق الأمريكي .

الفتاة هي الضحية:

إن خطورة البث الفضائي المنحل لا تكمن في الآثار المباشرة من تقليد ومحاكاة وتأثر شخصي وعقلي بما هو معروض ، بل تمتد تلك الآثار إلى ما هو أبعد من ذلك من خراب بيوت وحالات طلاق وعنوسة وانحرافات أخلاقية للشباب والفتيات ، فالشاب الذي يرى تلك الفتاة المصنوعة بمصانع عمليات التجميل والتي تظهر له بأبهى حلة وبأكبر كمية من المكياج وأقل كمية من الملابس ، وهي تقف أمامه على شاشة التلفاز مخالفة المثل العربي الشهير (تجوع الحرة ولا تأكل بثديها) تفعل فعلها الخبيث في نفس الشاب ، ويكون في عقله الباطن مواصفات خاصة للجمال للمرأة التي سيقترن بها في المستقبل ، فهو يريدها مثل الفنانة الفلانية أو المطربة العلانية ، وعندما يتقدم للزواج لا يجد هذه المواصفات في البنت التي تقدم لخطبتها ؛ لأن تلك البنت قد ربيت على الطهر والعفاف وخلق الحياء والحشمة ، وبالتالي يحدث الانفصام بين ما تخيله ذلك الشاب وبين الواقع الذي أقامه ، والنهاية إما أن يعرض هذا الشاب عن

الزواج ، أو يفشل زواجه بعد عدة أشهر ، أو يعيش حياة زوجية تعيسة لأنه كان زواج أجساد لا زواج أرواح ، وهنا يكمن الخلل الذي تزيده اتساعاً تلك الفضائيات المأجورة .

إن بناتنا المراهقات أخطر مسؤولية اجتماعية لدينا وسط هذه الفوضى الأخلاقية . وكم سمعنا عن قصص يندى لها الجبين كانت فيها فتياتنا هن الضحايا لمثل تلك السموم التي تنشر عبر الفضائيات ، ففي إحدى رسائل الماجستير العربية التي نوقشت في إحدى الدول العربية وكان عنوانها: «صورة المرأة في إعلانات التلفزيون» تبين التالي:

١ – تحليل مضمون (٣٥٦) إعلاناً تلفزيونياً ، بلغ إجمالي تكرارها (٣٤٠٩) مرات خلال ٩٠ يوماً فقط .

٢ – مسح شامل لإدارة الإعلانات بالتلفزيون .

٣ – مقابلات مع عدد من مديري وكالات الإعلان ؛ وقد توصل الباحث إلى عدد من النتائج من أهمها:

أ – استخدمت صورة المرأة وصوتها في (٣٠٠) إعلان من (٣٥٦) ، كررت قرابة (٣٠٠٠) مرة في (٩٠) يوماً .

ب – ٤٢٪ من الإعلانات التي ظهرت فيها المرأة لا تخص المرأة .

ج – سن النساء اللاتي خرجن في الدعاية من (١٥–٣٠) سنة فقط .

د – ٧٦٪ من الإعلانات اعتمدت على مواصفات خاصة في المرأة كالجمال والجاذبية ، و٥١٪ على حركة جسد المرأة ، و١٢,٥٪ من هذه الإعلانات استخدمت فيها ألفاظ جنسية .

هـ – إن الصورة التي تقدم للمرأة في الإعلان منتقاة وليست عشوائية .

وقد ذكر الدكتور ناصر العمر في كتاب «البث المباشر» بعض الآثار الاجتماعية المترتبة على بعض برامج البث المباشر ومنها:

١ – التأخر في الزواج ، وتفشي الطلاق ، ومحاربة تعدد الزوجات ولقاءات الفتى والفتاة بعد الخطبة وقبل العقد برضا الأهل .

٢ – انصراف المرأة للأزياء العالمية وآخر صرعات الموضة وتقليد المرأة الغربية في كثير من أسلوب حياتها ، كالخروج من المنزل ومحادثة الرجال .

٣ – سيطرة المرأة على الرجل ، وضعف القوامة بدعوى الحرية وتساوي الحقوق .

٤ – دخول كثير من العادات الغربية إلى بيوت المسلمين ، والإعجاب بالنمط الغربي للحياة .

٥ – ضعف القيام بحقوق الوالدين وقطع الأرحام ، وتفكك الأسر ، وإهمال حقوق الجيران .

٦ – الأنانية وحب الذات ، وضعف الروح الجماعية ، وعدم نصرة المظلوم .

٧ – إبراز أبطال لا حقيقة لهم على حساب أبطال الإسلام ، وسعي الفرد لتقليد هؤلاء .

فإذا ما أضفنا إلى كل تلك التوابل الفضائية العربية التي تقوم على دغدغة الغرائز الجنسية من أجل جني المزيد من المشاهدين ، وبالتالي الفوز بأكبر كمية من كعكة الإعلانات ، فإذا ما أضفنا إلى ذلك البث الفضائي الغربي وتأثيراته الأخلاقية المدمرة ، فإن للمسألة أبعاداً أخرى خطيرة تضرب في عمق الكيان النفسي والعقلي والعاطفي لدى المشاهد المسلم الذي كان قبل بضع سنوات فقط لا يتخيل أن يرى ١٠٪ مما يراه الآن .

وأنا أذكر أنه في نهاية عقد الثمانينات من القرن الماضي زارنا أحد وكلاء الإعلام من وزارة الإعلام الكويتية في جمعية الإصلاح الاجتماعي وتبين لنا بشكل واضح خطورة ما هو قادم في مجال الإعلام والمسؤولية الملقاة على عاتق المصلحين والدعاة، وإني أرى كل نبوءاته تتحقق هذه الأيام.

وفي دراسة بعنوان: «قراءة هادفة في القنوات الفضائية» كتبها عبد العزيز الخضر (مجلة البيان – العدد ١٤٣) بين فيها ما للفضائيات من سلبيات عامة تطرق لها باحثون في المجال التلفزيوني تنشأ عادة من خلال المشاهدة، حيث تتعرض بعض البرامج لموضوعات مهمة ولكن بصورة مسطحة قد توهم المشاهد غير المتمرس بالقراءة أنه اكتسب ثقافة ومعرفة في هذا الشأن أو ذاك.

نظراً لكثافة المادة الفنية المتحررة من بعض المعايير الأخلاقية والمفاهيم الإسلامية في البث الفضائي لدى أغلب القنوات التي لا تناسب المجتمع المسلم سيكون هناك تأثير سلبي في بعض المثل والقيم السلوكية كالحياء والحشمة لدى المرأة مثلاً. وقد يبرز خلل في بعض الأسس الإسلامية في العقيدة والروابط الاجتماعية للمجتمع المسلم، وهذا التأثير عادة ما يكون بطيئاً جداً في المجتمعات.

التركيز على النواحي الترفيهية والقضايا الهامشية، يصنع مشاهداً كسولاً لا يتحمل المسؤولية، مستهلكاً ضعيف الإنتاجية، وغير جاد في النهوض بمجتمعه وفي فهم المشكلات التي تعيق نموه، وساهمت الفضائيات العربية في تسويق ضخم للأغنية الساقطة، وشجعت أعداداً كبيرة للالتحاق بركب أهل الطرب وممارسة الغناء وخاصة المرأة التي لديها بعض الملامح الجميلة، فأصبح الطريق سريعاً للشهرة والمال لفتيات يفترض ألا تتجاوز شهرتهن أزقة ومواخير

الفنادق . وأصبحت الحفلات الغنائية التي قد تتجاوز تذكرة الدخول فيها ١٠٠ دولار متاحة للمشاهد وهو في منزله دون أن يدفع دولاراً واحداً .

وأفرزت وسائل الإعلام زيادة التبعية للآخر ؛ نظراً لكثافة المادة المستوردة والمادة المحلية المقلدة لما هو مستورد ، فأصبح الطريق ميسراً لذوبان الهوية لدى أفراد المجتمع ، وهناك قائمة من المخاطر تتسلل بصور مختلفة ووفقاً لظروف البيئة الاجتماعية فيما يتعلق بانتشار العنف والانحرافات والمخدرات ؛ وهي ظواهر تعتبر مثل هذه الوسائل مساعدة لها .

وأصبحت المجتمعات المحافظة هي الأكثر تضرراً من انتشار بث منفلت من كثير من القيم ومظاهر الحشمة والسلوك الأخلاقي ، والمجتمعات غير المحافظة ربما تستفيد وتكتسب بعض القيم الجيدة نظراً لوجود قنوات أخرى محافظة نسبياً تعطي نوعاً من المقارنات فيما بينها .

وهناك سلبيات متعددة تقليدية يدركها الكثيرون وهي شائعة في أدبيات الهجوم على الإعلام التلفزيوني ، وبعضهم قد يبالغ فيربط أشياء وظواهر كثيرة بها ، كانتشار السرقة أو ضعف مستوى الطالب التعليمي أو كثرة الطلاق وغيرها ، وبعض آخر تكون حاضرة في ذهنه بشكل متوازن دون مبالغات .

واستدرك الكاتب بعض الإيجابيات لتجربة الفضائيات ، منها:

كما أن للتلفزيون أضرارا في العالم النامي ، إلا أن له بعض الفوائد للأفراد في إيصال الثقافة العامة وتعميمها ؛ إذ له دور تثقيفي واضح في بعض القضايا استطاع أن ينقلها إلى جماهير واسعة ؛ حيث توفرت لهم دون بذل أي جهد أو نفقات مالية ثقيلة ؛ فتوفر كثير من المعلومات حتى للفرد الأمي ، مما أدى إلى توسيع دائرة المعرفة ، بغض النظر عن العزلة التي كانت في الماضي .

ساهمت الفضائيات في تقريب تعارف الشعوب العربية بعضها ببعض وفهم بعض الخصائص لكل إقليم ، وألغت حدود الزمان والمكان فيما بينهم ، ووحدت مشاعرهم في مناسبات كثيرة ، وأدت إلى شيء من التبادل الثقافي مما يكوّن أرضية مناسبة لأي تقارب وتعاون في المستقبل .

قد يكون على الفائدة السابقة بعض التحفظ ؛ لأنها تحمل في طياتها كثيراً من السلبيات إذا تم النظر إليها من منطلق إقليمي في مجتمع محافظ يتميز بسلامة العادات والمفاهيم العقدية لديه ، بحجة أنه يتضرر من هذا الانفتاح الذي قد ينقل له بمرور الوقت ، وهذا التحفظ في مكانه ، ولكن الذي ينظر إلى الخارطة العربية ولديه خلفية معرفية بثقافتها وعاداتها ومستوى الوعي الديني لديها سيجد أن المجتمعات المحافظة التي لديها وعي عقدي قد تتضرر ، ولكنها أقلية لا تمثل نسبة عالية من المجتمعات العربية . وبالمقابل تستفيد المجتمعات غير المحافظة والتي لديها نقص في الوعي الديني والعقدي وبعض البدع ، والاستفادة تأتي من اطلاعها على أحوال مجتمعات محافظة من خلال قنواتها وبرامجها الثقافية والدينية .

المسلم في البلاد الأجنبية في الغرب والشرق الذي يشعر بالغربة لابتعاده عن بلاده الإسلامية ولغته من أكثر المستفيدين من هذا البث ؛ لأنه يمثل له حلقة وصل ببلده ويخفف من وطأة التغريب ، مع أن أكثر هذه القنوات تحمل في بثها كثيراً من التغريب الناطق باللغة العربية ، ومن هنا تبقى أقل ضرراً وتربطه ببعض المفاهيم الإسلامية التي يفقدها في بيئته الأجنبية .

من أكثر الفئات المستفيدة من هذا البث هم النخب المثقفة بكافة اتجاهاتها في العالم العربي ؛ فلقد أتاحت لهم الاطلاع من خلال هذه القنوات العربية في كل بلد على بيئات مختلفة وسياسات حكومية متنوعة ، ورؤية شخصيات مختصة في

الشؤون الثقافية والسياسية وغيرها من خلال الشاشة والاتصال معها في البرامج المباشرة، وقد أزاحت هذه الفضائيات عقبات ضخمة من سفر وتكاليف ووقت طويل، وأتاحت لها بث أفكارهم وهمومهم نظراً لحضورهم البارز في البرامج الجادة مع الاعتراف بأن بعض توجهات هذه النخب عليها تحفظات كثيرة.

لعبة الخداع الإعلامي:

فإذا ما أضفنا إلى جميع ما سبق التضليل والخداع الإعلامي المبرمج الذي تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية في سوق السياسة والأفكار لإخفاء الحقائق، وإظهار معلومات أخرى بعيدة عن الحقيقة تحقيقاً لمصالح الساسة الأمريكان، لأدركنا عمق المأزق الذي نعيشه، فبعد أن كانت وسائل الإعلام تقوم على مهمة توعية وتربية الناشئة وتثقيفهم وصناعة عقولهم، تحولت وسائل الإعلام إلى ما يسميه المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي «صناعة القبول» وهي صناعة إعلامية تقوم على إيهام الجمهور بأن السياسة الموجودة هي السياسة التي يوافق عليها الشعب حتى لو كانت هذه السياسة في حقيقتها ضد مصالحه.

ويؤكد نعوم تشومسكي في كتابه "Media Control" على نظرية «الثورة في فن الديمقراطية»، موضحاً الخداع الإعلامي فيقول: «إنه بالإمكان استخدام ما يسمى بـ(الثورة في فن الديمقراطية) لصنع الإجماع، أي الحصول على موافقة الشعب على أمور لا يريدها، وذلك بفضل التقنيات الجديدة للدعاية، وكان يعتقد أن تلك الفكرة جيدة وضرورية في الواقع. فهي ضرورية- كما يرى- لأن المصالح العامة تغيب عن الرأي العام كلية» ولا يمكن أن يفهمها أو يتعامل

معها سوى طبقة من المختصين من المسؤولين الأذكياء جداً، بحيث يستطيعون تحديد معالم الأمور.

تؤكد هذه النظرية أن نخبة صغيرة فقط تتمثل في جماعة المفكرين هي وحدها تستطيع فهم المصالح العامة، وما تهتم به جميعاً، وتدرك أن هذه الأمور تغيب عن ذهن عامة الناس. يعود تاريخ وجهة النظر هذه إلى مئات السنين.

من السهل القيام بذلك في الدول التي تدّعى شمولية دكتاتورية أو عسكرية هذه الأيام؛ إذ ما عليك إلا أن ترفع الهراوة فوق رؤوسهم، وإن خرجوا عن الخط تحط الهراوات على رؤوسهم. ولكن بما أن المجتمع قد أصبح أكثر حرية وديمقراطية، لن يكون بمقدورك فعل ذلك؛ ولهذا عليك أن تلجأ إلى تقنية الدعاية لمنطق واضح.

فالدعاية لدى الديمقراطية كالهراوة لدى الفاشية. ذلك تصرف حكيم وجيد؛ لأن المصالح العامة، مرة أخرى، تغيب عن أذهان الرعاع، فهم غير قادرين على تحديد معالمها، فالقادرون على صناعة هندسة القبول: «هم أولئك الذين يملكون الموارد والسلطة على إنجاز ذلك». ويعرج نعوم تشومسكي على تعريف النفاق بشكل يلازم السلوك الأمريكي، فيقول تعريف المنافق الوارد في الأناجيل على النحو التالي: «المنافقون هم الذين يطبقون على غيرهم معايير يرفضون تطبيقها على أنفسهم».

ثانياً: في الحجاب

ما هو القصد من ترويج مفهوم الموضات والأزياء؟[1]:

إن أفراد هذه الأمة مطالبون -ذكوراً وإناثاً- بتبليغ دعوة الإسلام لغير المسلمين، كلٌّ حسب استطاعته. ولعل منطلق ذلك استشعار المسلم والمسلمة ضخامة المسؤولية الملقاة على عاتقهما في دعوة الآخرين، والحرص الشديد على إنقاذ الناس من نار الضلالة وجحيمها، إلى جنة الإسلام ونعيمها.

كما ينطلق المسلم والمسلمة - كل في دعوتهما - لإقامة الحجة وتبليغ الرسالة، فمن أسلم فلنفسه ومن ضل فعليها. والداعية في الغرب يدفعه حرصه على إزالة الشبهات وتصحيح المغالطات، إلى بذل قصارى جهده لتقديم نموذج صحيح للإسلام المفترى عليه.

وللدعوة مهارات وأساليب متنوعة، لسنا بصددها هنا، إنما نقف هنا لتسليط الضوء على الحجاب في أمريكا تحديدًا، ومن خلال واقع عاصرته وشاهدته رأي عين وسمعته ممن أثق بهم.

لقد أصبحت متيقناً أن الحجاب دعوة صامتة أبلغ من ألف موعظة، فلسان الحال أبلغ من المقال.

شاب اعتنق الإسلام بسبب الحجاب!!

التأثر بالحجاب وما يحمله من قيم نبيلة، ليس مقتصرًا على الجنس النسائي، بل يشمل الرجال أيضاً.

قامت باستضافتي إحدى المؤسسات الإسلامية لدورة تدريبية في شيكاغو، وما إن وصلت المطار إلا واستقبلني أمريكي مسلم اسمه (كريم)، ودار بيننا الحوار التالي:

---

(١) حتى لا يتناثر العقد، خالد بن عبد الرحمن الشايع، إعلامي خليجي ومستشار في الشؤون الإغاثية والدعوية، ومعد برامج خاصة بالمرأة والأسرة، ومدرب في مجال الإعلام والعلاقات العامة.

* سألني من أين أنت؟

- قلت أنا من الخليج العربي وتحديداً من الكويت .

* بادرني قائلا: أنتم محظوظون ؛ لأنكم مسلمون بالفطرة ، ولا داعي ليعرفكم أحد بالإسلام .

- أجبته قائلا: الحمد لله على نعمة الإسلام ، وماذا عنك؟!

* قال لقد أسلمت منذ زمن قريب . . . .والحمد لله .

- وماذا كان سبب إسلامك؟ لاسيما وأن الإعلام الأمريكي لا يألو جهداً في تشويه صورة الإسلام؟

* أجابني قائلا: لن تصدق إن قلت لك الحجاب!!

- وكيف ذلك؟!

* أجاب لقد كانت حياتي مثل سائر شباب أمريكا ، لا هَمَّ لنا إلا الترفيه والشرب والجنس ، وكنت مراهقاً أعيش صراعاً أو خلافاً دائماً مع والدي كما هو حال غيري .

وأضاف قائلاً: وفي أحد الأيام رأيت في الجامعة طالبة تغطي رأسها وجسمها ، وكانت مختلفة عن غيرها من الطالبات ، فقلت في نفسي: لماذا تلبس نساء المسلمين ذلك؟! وظلت صورة الحجاب وتلك الفتاة في ذهني وتولَّد لدي شعور للتعرف على الإسلام .

وبعد أيام وفي إحدى المحاضرات كان لطالب مسلم (ماليزي) وطالبة مسلمة محجبة عرض موجز عن الإسلام .

بعدها قمت أبحث وأقرأ عن الإسلام وأعلنت إسلامي ، وأنا الآن أعمل في مجال الدعوة .

الحجاب.. دعوة لقيمة مفقودة:

إن ارتداء الحجاب في أمريكا وسيلة دعوية بالغة التأثير ، حيث يرمز إلى الحشمة والعفة في بلد تموج فيه الفتن والانفلات وانحطاط القيم والحياة الصاخبة .

فالنفوس السليمة تميل إلى الستر والاحتشام وتنبذ التعري ، وما يحمله الحجاب من قيم هو محل تقدير المنصفين من غير المسلمين ، فهذا مثلا د . هنري ماكو وهو يهودي صهيوني - على حد وصفه لنفسه- يشيد بما يتضمنه الحجاب من قيم فضيلة ، إذ يقول: «لست خبيراً في شؤون النساء المسلمات ، وأحب الجمال النسائي كثيراً مما لا يدعوني للدفاع عن البرقع أو الحجاب ، لكني أدافع عن بعض القيم التي يمثلها الحجاب لي» .

وهذه فتاة نصرانية في مدينة «سياتل» أمامها المغريات كثيرة ، وزخارف الحياة متنوعة لاسيما في مجتمعها ، حيث لا ضوابط أخلاقية ، إلا أنها اختارت الإسلام واعتنقته ، وعندما سئلت عن سبب ذلك قالت: «قراري باعتناق الإسلام جاء بسبب ما رأيته من مظاهر الحشمة والحجاب والحياء بين المسلمات»[1] .

فتاة يهودية تتحجب.. حتى تنجو من التحرشات:

طالبة يهودية في إحدى جامعات (لوس أنجلوس) كانت تتعرض للمعاكسة السمجة والتحرش الفج عند ناصية يتجمع لديها شباب من الأغرار الذين لا أخلاق لهم .

تحركت فيها دواعي الحركات النسائية التي تنكر على الرجال ظنهم أنهم خير من النساء وأقوى ، واتخذت إجراءً توسمت فيه أنه يمحو الفوارق بينها

---

(١) كتاب حتى لا يتناثر العقد .

وبين هؤلاء الرجال ، فحلقت شعرها لكن النتيجة لم تتغير ، فالتحرشات بها لا تزال مستمرة .

وأخيراً خطر لها أن تضع غطاء رأس كالذي ترتديه الطالبات المسلمات ، ومرت في نفس المكان الذي يتواجد فيه الشباب الذين اعتادوا على التحرش بها ، ولكن هذه المرة -ولكونها متحجبة- لم يحاول أحد أن يتعرض لها ، ومرت بكل احترام .

يعلم المتسكعون والعابثون باصطياد الفتيات أن المحجبة ليست ضالتهم المنشودة ، وأنهم لن يظفروا منها بشيء ، فهي تجسد الحشمة التي يستحيل النيل منها ، والوقار الذي لا يليق معه العبث .

فالحجاب وقاية من تحرشات الماجنين ، وأمان من تطاول اللاهثين وراء المتعة الحرام .

الحجاب هوية شخصية:

إن حجاب المسلمة – بالإضافة لكونه فريضة ربانية – فهو أبلغ رسالة دعوية وخير وسيلة للتعريف وبيان الهوية الإسلامية ، تماما كما يحمل أحدنا بطاقة شخصية للتعريف به ، أو جواز سفر لتحديد تبعيته لبلده ، فكذلك الحجاب .

التقى أحد الأساتذة الأمريكان بطالبتين مسلمتين ، إحداهن سافرة والثانية محجبة ، فصافح الأولى ، وقال للثانية: أعلم أنك مسلمة من ارتدائك الحجاب ، وأنا أحترم دينك ولن أصافحك!! فأصيبت الأولى بالصدمة .

إن حجاب المسلمة في أمريكا والغرب تعبير عن الهوية الإسلامية في زمن تلوثت وتشوهت فيه الهوية لدى بعض المسلمين والمسلمات .

إعلان ناجح للحجاب في جريدة نيويورك تايمز:

ضمن استراتيجية مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية – أنشط المؤسسات الإسلامية في الولايات المتحدة- لتقوية الوجود الإسلامي في أمريكا من خلال التواصل مع الرأي العام الأمريكي ، ولتصحيح صورة المسلمين ، فقد قامت بنشر إعلان يسلط الضوء على الدور النشط للمرأة المسلمة المحجبة .

يقول الإعلان الذي نشر في جريدة نيويورك تايمز إحدى أكبر الصحف الأمريكية – على لسان فتاة مسلمة: إنها اختارت أن ترتدي الحجاب ؛ لأنه أمر مهم لعقيدتها ، ولكونها فخورة بكونها مسلمة ، وأن الإسلام يشجع الرجل والمرأة على الاحتشام .

وهكذا نجح الأفاضل في مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (كير) في استخدام مهارات العلاقات العامة في التخاطب مع الجمهور ، وبيان مضمون ومفهوم الحجاب .

وقد لقي إعلان المتحجبة وهي تقول: «الحجاب هو رمز ثقتي بنفسي واحترامي لها» ردود أفعال واسعة في الساحة الأمريكية ، وأشاد العديد من غير المسلمين بحشمة الفتاة المسلمة ، وأن الإعلان قد ترك أثره في النفوس .

ثورة ضد الهوية الإسلامية؟

لم تكد تمر أسابيع معدودة على صدور قرار الرئيس الفرنسي جاك شيراك بحظر ارتداء الحجاب للطالبات المسلمات في المدارس الفرنسية ، حتى اندلعت في أوروبا جدالات ونقاشات واسعة حول قضية الحجاب في المجتمعات الأوروبية بشكل عام ، وبدا أن هناك بوادر «ثورة» ـ غير معلنة ـ ضد الحجاب الإسلامي في القارة العلمانية سواء في بلجيكا أو في ألمانيا ؛ وبالطبع فقد انطلقت شرارتها الأولى في فرنسا .

ولعل ما يثير الغرابة والاستهجان من هذه القضية هو ذلك التناقض الذي تقع فيه أوروبا ؛ فهي من ناحية تعد القارة الأولى التي تحترم الحريات الفردية وتقدسها ، ولكنها من ناحية أخرى تفرض قيوداً على الحريات الدينية تحت غطاء سياسي ، وتقدم مسوغات وحججاً واهية تقلل إلى حد كبير من نقاء الصورة التي رسمتها أوروبا طيلة القرون الماضية في أذهان وعقول الشعوب الأخرى . وواقع الأمر ؛ فإنه لتحري الموضوعية والحيادية في تناول قضية الحجاب في أوروبا تجدر الإشارة إلى أن هذه المسألة ما هي إلا مجرد وجه واحد من الصورة الكلية التي للمسلمين في أوروبا ، أي أن مناقشة هذا الأمر يجب ألاَّ ينظر إليها منفردة ، بل بتناول حقيقة التعايش الإسلامي في أوروبا .

أوروبا العلمانية في مواجهة أوروبا الدينية:

بادئ ذي بدء تجدر الإشارة إلى أن قضية الحريات الدينية ـ خاصة فيما يتعلق بالمسلمين في أوروبا ـ ترتبط ببعدين أساسيين:

أولهما: يتعلق بمدى القدرة على الحفاظ على أكبر قدر من التوازن بين ممارسة الحريات ، وبين فصل الانعكاسات السياسية لهذه الحريات عن المجتمعات الأوروبية ، أي فصل الدين عن الدولة فيما يعرف مجازاً بـ«العلمانية» .

والبعد الثاني: هو مدى التأثير الذي يمكن أن تتركه ممارسات المسلمين في أوروبا على غيرهم من ذوي الديانات الأخرى . وباختبار هذين البعدين يتضح لنا حقيقة الإشكالية التي تواجهها أوروبا في كيفية الحفاظ على منهجيتها العلمانية من جهة ، والضغوط التي تمارسها لتقليل الصبغة الدينية لبعض الممارسات الحياتية في المجتمع الأوروبي . ويغلف هذين البعدين بالطبع نوع من خصوصية العلاقة بين مسلمي أوروبا وغيرهم من ذوي الديانات الأخرى ؛

فأوروبا التي يعيش فيها ما يقرب من ثلاثين مليون مسلم ـ وفق بعض التقديرات ـ تجد نفسها مضطرة للاعتراف بخصوصية هؤلاء المسلمين، وهي ظلت لعقود طويلة تحافظ على هذه الخصوصية.

بيد أن ما يثير اللغط والتضارب هو مدى قدرة أوروبا على استيعاب وامتصاص المشاعر والتقاليد الإسلامية بها، وهي ظلت أيضاً لسنوات طويلة تحاول جاهدة الحفاظ على آلية الامتصاص هذه؛ بيد أن الأمر قد اتخذ منحى آخر حين ترددت الأحاديث حول المدى المسموح به لممارسة الطقوس والعادات الدينية الإسلامية في البلدان الأوروبية، وهو ما قد يقذف في الأذهان فكرة عدم استعداد أوروبا لامتصاص المزيد من السلوكيات والتصرفات الإسلامية في مجتمعاتها، ولربما يدفعها في هذا المنحى وجود هواجس قوية حذرة تجاه هذه السلوكيات يدعمها القلق من أمرين:

أولهما: التخوف من أن تتأثر بقية الشعوب الأوروبية بهذه السلوكيات، وهو ما قد يمثل خطراً داهماً على الطبيعة المسيحية لأوروبا.

والأمر الثاني: هو ارتباط الصورة الذهنية للمسلمين في أوروبا بالعنف والإرهاب، ولا ننسى في هذا الصدد الإشارة إلى الدور المؤثر الذي لعبته أحداث سبتمبر في رسم الصورة السيئة الحالية للمسلمين بشكل عام، وكلا الأمرين ربما يدفعان أوروبا إلى مراجعة استراتيجياتها ونهجها في التعاطي مع إشكالية الأقليات المسلمة الموجودة على أراضيها.

الحجاب وعلمانية المدارس في أوروبا:

لعل ما أثار الجلبة والبلبلة في قضية الحجاب «الفرنسي» هو أنه جاء متناقضاً مع ما تعود عليه المسلمون في الغرب عموماً وفي أوروبا على وجه الخصوص؛ فالمسلمون في أوروبا يتمتعون بحقوق وحريات تفوق ما كانوا يمارسونه في

بلادهم الأصلية بمراحل عديدة ؛ ولذا يصبح من الصعب عليهم تقبل فكرة تقليص هذه الحريات أو العبث بها تحت أي مسمى أو ادعاءات لا تخلو من الجهل السياسي . فغالبية الدول الأوروبية لا تمتلك تشريعات حول وضع رموز دينية في المدرسة ، تاركين للمدارس والسلطات المحلية حرية تدبير هذه الأمور حالة بحالة ، لكن هناك حالة خاصة هي تركيا البلد المسلم الذي يتمتع بنظام علماني ؛ حيث ارتداء الحجاب محظور في المدارس والجامعات والمباني العامة ، وقد بقيت مسألة الرموز الدينية في المدارس موضع نقاش متجدد في فرنسا وألمانيا ، وفي الأولى تم البت فيها بمنع أي رموز دينية إسلامية كانت أو غيرها ، وفي ألمانيا فإن التشريع حول الرموز الدينية في المدرسة هو من اختصاص المقاطعات المحلية التي تمتلك الصلاحيات في مجال التربية والتعليم .

وفي نهاية سبتمبر الماضي اعتبرت المحكمة الدستورية أن سلطات مقاطعة (بادن ـ فورتمبرغ ـ جنوب غرب ألمانيا) لا يمكنها أن تمنع مدرِّسة من أصل أفغاني من ارتداء الحجاب في الصف ، لكنها أكدت على أن المناطق يمكنها إصدار قوانين تمنع ارتداء ملابس لها دلالة دينية في المدارس الحكومية ، مع الحرص على التوصل إلى «تشريع يقبله الجميع» .

ولنضع خطوطاً طويلة وعديدة حول هذه العبارة الأخيرة ، فلا يجوز لأي مقاطعة فرض إجراء معين يتعلق بالحريات الدينية إلا بعد الحصول على الموافقة والقبول لهذا الإجراء .

ويذكر أن مقاطعتي «بادن ـ فورتمبرغ وبافاريا» قد رفعتا الصلبان في الصفوف (اللتان يحكمهما المحافظون وكذلك مقاطعة برلين التي يحكمها الاجتماعيون الديموقراطيون والشيوعيون الجدد) وتستعدان لإصدار تشريعات لمنع وضع الحجاب .

في حين لا تمتلك بلجيكا قانوناً فدرالياً يحكم وضع علامات دينية في المدارس التي لها في المقابل حرية وضع أنظمة خاصة بها في هذا الإطار لمنع ارتداء الحجاب إذا اقتضت الضرورة ، وقد عاد الجدل إلى الواجهة وذلك حين أعرب المسلمون عن تحفظهم على قرار اتخذته مدرسة رسمية في منطقة بروكسل بمنع وضع الحجاب خلال العام المدرسي الجديد .

وفي الدول الأخرى لا يثير ارتداء علامات دينية ظاهرة أي جدل بشكل عام:

- ففي بريطانيا يترك لكل مدرسة حرية اعتماد نظامها الداخلي الخاص في ما يختص بالزى المدرسي ، وبشكل عام يسمح بارتداء الحجاب والقلنسوة اليهودية والعمائم ، وفي هولندا يحظر القانون أي تمييز ديني ، ويسمح بشكل عام بوضع الحجاب والرموز الدينية الأخرى في المدارس الرسمية .

- وفي الدنمارك يسمح بوضع الرموز الدينية ، لكنه غير منتشر كثيرا في المدارس .

- ولا تعتمد أسبانيا أي تشريع وطني بهذا الخصوص ، ولا تخضع العلامات الدينية في المدرسة ومنها الحجاب لأي جدل علني ، وفي حال وقوع نزاعات يعود القرار النهائي إلى المناطق التي تتمتع باستقلال ذاتي .

- وفي إيطاليا يسمح قانونان أقرا العام ١٩٢٤ و ١٩٢٧م بوجود علامات خاصة بالديانة الكاثوليكية في المدارس .

وعليه ، فإن التفرقة بين سلوكيات المسلمين وعاداتهم بشكل عام وبين سلوكيات وتصرفات الأديان الأخرى كالمسيحية واليهودية تثير تساؤلات عديدة حول حقيقة التعاطي الأوروبي مع الأقليات المسلمة في أوروبا بشكل عام .

الحجاب وصراع الهوية:

في نفس الوقت فقد لفتت قضية الحجاب في أوروبا إلى إشكالية الصراع بين العنصرية من جهة والمحافظة على الهوية الوطنية داخل البلدان الأوروبية في الجهة الأخرى ، فالمسلمون في أوروبا رغم عددهم القليل إلا أنهم ذوو تأثير كبير في نفوس الآخرين ؛ مما ولد مخاوف من إمكانية انتقال هذا التأثير إلى مستويات وقطاعات عريضة من السكان المحليين . فضلاً عن هذا ترى بعض الدول الأوروبية - ومن بينها فرنسا بالطبع - أن مسألة الحجاب تثير حساسيات داخل جدران المدارس بما قد يؤثر على العملية التعليمية ، ويحدو بها بعيداً عن هدفها الأساسي . بيد أن هذا القول مردود عليه ؛ لأن هناك العديد من المدارس الفرنسية والألمانية والأمريكية في العديد من البلدان الإسلامية تمارس فيها سلوكيات وتقاليد بلدان كل مدرسة دون أن يكون هناك تخوف من امتداد تأثير هذه السلوكيات خارج الصرح التعليمي .

الأكثر من ذلك أن البعض ـ خاصة في فرنسا ـ ينظر للحجاب باعتباره غطاء لمفاهيم إسلامية أخرى ، وينتج في نفس الوقت ثقافة عنيفة ؛ فعلى سبيل المثال بات يُنظر إليه في فرنسا باعتباره عنواناً للأقلية المسلمة التي تعيش هناك ، وتحولت المعاداة والريبة من قطعة القماش إلى النسيج الاجتماعي نفسه ، ومن الحجاب إلى الديانة الإسلامية .

وأصبحت مناطق الحظر تتوسع ، وأخذ إطار الحرية لهذه الأقلية يتقلص شيئاً فشيئاً ، فمن المدرسة أصبح الحديث عن المستشفيات ، وطالب البعض بأن تحترم العلمانية من طرف الطبيب والمريض ؛ حيث تبين أن بعضاً من الطاقم الطبي النسائي يلبسن الحجاب ؛ فقبل أن تكون طبيباً أو مريضاً عليك أن تكون علمانياً ، ثم تم غلق مسبح كان يسمح فيه لسويعات معدودة في الأسبوع للنساء

المسلمات بالترفيه عن أنفسهن بعيداً عن أعين الغرباء ، حتى لا يتناقض مع مياه العلمانية التي ترفض الفصل بين المواطنين! ثم قام رئيس بلدية إحدى الضواحي الباريسية (Nogent sur marne) برفض الإشراف وقبول الزواج المدني لعروس ؛ لأنها رفضت نزع الخمار ، بدعوى عدم احترام القيم العلمانية للدول ؛ لأن مقر البلدية رمز ومكان مبجل للجمهورية ، ثم تلاه رفض أحد مديري المدارس دخول أولياء أمور متحجبات إلى المدرسة لحضور حوار داخلي دعت إليه الدولة لمناقشة دور المدرسة ، بدعوى علمانية المكان .

وكل هذه المظاهر الجديدة في المجتمع الفرنسي ليست شاذة ، ولكنها تعبير خطير عن عقلية جديدة بدأت تُنسج خيوطها في البيت السياسي أولاً ، ثم تفشت في النسيج الاجتماعي ، وهي الخوف والتوجس من هذا الدين ومن أصحابه ، واعتبار أن جزءاً من هذا الوطن غير مرغوب فيه . وبالرغم من أن الرئيس الفرنسي قد حذر من هذا المنعطف ، إلا أن القانون الذي أصدره بحظر الحجاب ، قد يؤدي إلى نتائج خطيرة ترتبط بطبيعة العلاقة بين مختلف الطوائف بعضها ببعض ، وإلى التدرجات الاجتماعية داخل الوطن الواحد ، وسيشعر جزء منه أنه مضطهد ، وأنه مواطن من الدرجة الثانية لاختلافه في المعتقد والدين ، فهل عجز المجتمع الفرنسي عن استيعاب هذا الدين وتفهم ثقافة حامليه والقبول بالظاهرة الإسلامية؟ أم أن الخوف من الاحتواء الإسلامي للثقافة الأوروبية ولتاريخها يسوِّغ مثل هذه القوانين ويبشر بالمزيد منها؟

في نفس الوقت ، فقد كشفت قضية الحجاب في فرنسا عن أن العلمانية لم تعد تمارس حضورها كوعاء حاضن للاختلاف والتعدد - أي لا تمارس علمانيتها - إلا من خلال الأطر الثقافية والاجتماعية المهمشة ، أو تلك المفرغة من أية مضمون أو بنية «عقائدية - نضالية» ، والتي لا تمثل تهديداً لـ «هويتها

الثقافية» وليس لـ «علمانيتها السياسية» ، مثل الجماعات الداعية إلى «عبادة الشيطان» أو «البوذية» أو «الزواج المثلي» أو الحرية الجنسية ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر .

ومن هنا فإن فرنسا لم تخفق في محاولتها دمج المسلمين في المجتمع الفرنسي ، وإنما تعمدت تهميشهم وحصارهم داخل المناطق والجماعات المهمشة ، وحشرهم داخل الأطر المشابهة ، غير المؤهلة بطبيعتها للتمدد والتأثير الثقافي . هنا وهنا فقط تظل العلمانية الفرنسية محتفظة بوظيفتها كمظلة يستظل بها التعدد والاختلاف ؛ وهذا شرط أساسي من الشروط التي تستقي منه العلمانية الفرنسية حيويتها . ولذا فإن فكرة دمج المسلمين في المجتمع الفرنسي ، ربما تكون «واقعاً» ، ولكن عندما يستسلم المسلمون لثقافة فرنسا وهويتها المسيحية ، وليس الانصياع كما يُدَّعى لمبادئ العلمانية ، فليس ثمة مشكلة في الأخيرة ؛ فهي في روحها وقوانينها تقبل هذا الاندماج ، متى تحررت من القيود الحضارية (أو الثقافية) ، وكذلك من أعباء الحفاظ على الجذور المسيحية للهوية الفرنسية .

من جانب آخر قد يسأل سائل: ولماذا تثار حفيظة المسلمين نتيجة إلغاء هذه القطعة من القماش «الحجاب» باعتبارها ليست دليلاً قائماً على إيمان العبد وقربه من ربه خاصة في البلدان المسلمة؟

وهنا يأتي الجواب من مسلمي أوروبا ؛ فالحجاب بالنسبة لهؤلاء ليس مجرد سترة تستتر بها الفتاة أو المرأة المسلمة التزاماً بتعاليم دينها ، بقدر ما هو تعبير عن الهوية الإسلامية والتخوف من انصهارها في الهوية الغربية المسيحية كما يأمل الأوروبيون ، وعليه يصبح التفريط في حق ارتداء الحجاب بمثابة التفريط في ركن أصيل من أركان الهوية الإسلامية التي يجاهد المسلمون في أوروبا للتمسك بها والمحافظة عليها .

ثقافة الحجاب وسلوكه :

بعد أن نمت وانتشرت الصحوة الإسلامية المباركة في بلاد العرب والمسلمين ، بل وفي العالم كله ، كان من نتائج ذلك انحياز قطاعات عريضة من نسائنا وفتياتنا للمشروع الإسلامي والثقافة الإسلامية والسلوك الإسلامي والمظهر الإسلامي .

وارتدت طالبات الجامعة والمدارس والموظفات وربات المنازل الحجاب الشرعي على نطاق واسع ، تعبيراً عن الهوية الإسلامية والالتزام بالإسلام وأخلاق الإسلام .

إلا أنه في السنوات الأخيرة ، بدأت تنتشر ظاهرة ارتداء الكثير من الفتيات والنساء زيًا يفرغ الحجاب من مضمونه ، ويحسبه الكثيرون من الحجاب وما هو من الحجاب ، عبر ارتداء الملابس الطويلة والمجسمة في نفس الوقت ، وكذلك ارتداء الطرحة ، ولكن مع النمص ووضع الماكياج والعطور .

الأمر السلبي في هذه الظاهرة أنها كانت من ناحية التفافًا على الحجاب وثقافته ، ومن ناحية أخرى اتخذها العلمانيون وسيلة يوجهون من خلالها خناجرهم وسهامهم المسمومة تجاه الإسلاميين والفكرة الإسلامية عموماً ، ويقولون إن كثيراً من المحجبات الآن يرتدين الملابس المثيرة ، التي هي أكثر إثارة وإغراءً من ملابس المتبرجات ، وإنه من المألوف أن نرى كثيراً من هؤلاء يتأبطن أيدي الشباب في مناظر خليعة في الشوارع والميادين ، فلماذا إذاً يصدعون رؤوسنا مطالبين بالحجاب؟

إن الزي هوية ، وجزء أساسي من الدين ، وشكل ونوعية الحجاب مؤشر على قوة إيمان المحجبة ، فإذا كان تدينها مبدئياً وقوياً ، فسوف تكون قدوتها

المسلمات الأوائل وزوجات الرسول ﷺ، ولذلك فلن تتنازل أبداً عن شروط ومواصفات الحجاب الطويل الذي لا يصف ولا يشف وليس حجاباً للزينة .

أما إذا كان تدين الفتاة أو المرأة مهزوزاً وضعيفاً ، فسوف تقل شروط حجابها ، ولن تلتزم بالشروط الشرعية المطلوبة .

ولذلك فليس هناك في الشارع الإسلامي ثقة في تدين الفتاة أو المرأة التي ترتدي الإيشارب والبنطلون الجينز وتضع المساحيق والعطور .

ومن حيث المضمون فلا يمكن تصور أن التي ترتدي هذا الحجاب المعيب قد قرأت في العلوم الشرعية أو الثقافة الإسلامية والعقيدة ، لكي يكون حجابها تعبيرًا صادقًا وأمينًا عن تدينها ، وإنما غالب الأمر أن هذا الحجاب شكلي ، وأنه عرض لمرض القلب ، ودليل على حب الدنيا والتعلق بها ، أو هو دليل على عدم وضوح الرؤية .

إننا نستطيع أن نقول: إن هناك ما يمكن أن نسميه (عقلية الحجاب) فالحجاب ليس خرقة تلف الرأس وحسب ، كما يحب البعض تشبيهه ، لكنه قبل أن يكون لباساً فإن له عقلية وثقافة ونفسية خاصة به في الخلق والتعامل ، فالصلاة لن تغني عن صاحبها شيئاً ما لم تمنعه عن المعاصي والرذائل ، والزكاة لن تنفع من سَبَّ هذا وكفّر ذاك وسرق الثالث وافترى على الرابع .. إلخ . ولن تغني كل العبادات عمّن لم تدخل فؤاده طاعة الرحمن وخشية الله ، فالدين المعاملة ، وما بعث خير الأنام إلا ليتمم مكارم الأخلاق .

إن السعي لملاحقة الموضة قضية اجتماعية خطيرة ، فالنفس البشرية تتوق دائمًا للجمال وتعجب به ، ولذلك أمر الله عباده بالتزين والتجمل في غير إسراف ، مع التأكيد على أن لباس التقوى هو الساتر الحقيقي للإنسان ، والمسلم يعمل على الاهتمام بمظهره الخارجي ، كُلٌّ حسب طاقته وقدرته ، وكل

هذا مباح ولا غبار عليه مادام لا يتعدى حدود الشريعة الآمرة بستر العورة للرجال والنساء على السواء ، فالتجمل والاعتدال فيه والانضباط أمر حسن ومحمود ، أما الإسراف فيه والتقليد الأعمى لكل ما يبتدع على أيدي أعداء الإسلام فهو المذموم الذي لا يحبه الله تعالى ولا يرضاه لعباده .

إن ستر شعر الرأس ليس هو الغرض من الحجاب ، وإنما الحجاب عبادة واجبة يأثم المفرط فيها ، وكما أن للصلاة صفةً ، من خالفها فقد خالف صحيح الدين ، فكذلك الحجاب له صفة لا يجوز مخالفتها ، فشروط الحجاب معروفة وهي: أن يكون ساترا للبدن ، عدا الوجه والكفين ، وواسعا لا يصف ، وسميكا لا يشف ، ولا يلفت الأنظار ، وألا يكون زينة في ذاته ، وألا يكون لباس شهرة .

إن التي ترتدي الخمار الساتر بشروطه قد التزمت بالفريضة ، وتعلوها المتنفلة التي تحب أن تقدم النافلة مع أداء الفريضة ، والنافلة ما زاد تطوعا عند الإنسان في طاعته وعبادته قربة لوجه الله سبحانه وتعالى ؛ وهي التي ترتدي النقاب . لكن التي ترتدي حجاب الموضة ، لا تؤدي فريضة دينية ، وما ترتديه قد يكون نوعاً من الاحتشام تفادياً للتبرج ، لكنه ليس حجاباً ، لأن الحجاب ثقافة ثم سلوك وخلق .

الحجاب العصري.. تحرره الموضة أم الحضارة الإسلامية؟

تحول (الحجاب العصري) إلى ظاهرة يقابلها البعض بالتفكه ، والبعض الآخر بالانتقاد الشديد ، ولا تكاد تخلو معظم البلدان العربية والإسلامية من هذه الظاهرة ، التي فتحت لها هامشا للتناول ، خاصة في المواقع والمنتديات الإلكترونية ، وعلى صفحات الجرائد والمجلات ، حيث تتم الاستعانة بالرسومات الكاريكاتورية لتحليل وانتقاد الظاهرة .

تحول (الحجاب العصري) إلى ظاهرة يقابلها البعض بالتفكه، وغالبا ما ينتهي المتتبع إلى خلاصة نقاش ترى أن بعض (المحجبات) يتشددن في وضع غطاء الرأس ويتسامحن في بقية الملابس التي تغطي بقية الجسد، وذهب حس الفكاهة الذي يميز الشباب المغربي والعربي إلى حد استحداث عبارات جديدة لوصف هذا النوع من الحجاب، مثل (الحجاب العصري)، أو الـ (فوق) أفغاني والـ(تحت) (أمريكاني)، لوصف لباس من يزاوج ويجمع بين غطاء الرأس، رمز المحافظة والتقليد، والجينز والتنورة، رموز الحداثة والانفتاح.

وبمثل هذا الوصف، الذي جمع أفغانستان وأمريكا في عبارة واحدة، يتوجه بعض الشباب، في مراكش وغيرها من المدن المغربية، إلى الفتيات المحسوبات على فريق (الحجاب العصري)، وتتفاوت طريقة تعامل هؤلاء الفتيات مع تحرشات هؤلاء الشباب، فمنهن من يتابعن طريقهن غير مكترثات لما سمعته من كلام، في وقت تختار فيه أخريات جرأة الرد، بكلام يحاولن أن يثبتن من خلاله أن كل واحدة حرة في طريقة لباسها، وأن ما تقوم به يبقى اختيارا شخصيا لا دخل لأحد فيه.

جريدة الشرق الأوسط حاولت أن تأخذ رأي أحد الشباب، الذي صادف أن كان بصدد التحرش بفتاة اختارت (الحجاب العصري) لباسا. بدا الشاب مقتنعا بالسلوك الذي قام به، قائلاً: «إنهن يجمعن المتناقضات، حين يضعن غطاء رأس، وقميصا وتنورة، أو جينزا ضيقا. إنه لباس يثير الضحك، لو كانت هذه الفتاة تلبس الجينز من دون غطاء رأس ما لفتت انتباهي، وكذلك سيكون الحال لو أنها اختارت أن تلبس الحجاب وفق طقوسه، لكن ما لا أتفق معه هو أن تضع على وجهها ألوانا تكفي لرسم لوحة، وعطرا نفاذا يثير الغرائز».

وعلى شاكلة الشاب المراكشي، يضع البعض مقارنات بين (الحجاب العصري)، الذي يقولون عنه: إنه صار (يزاحم ويشوش) على الحجاب (التقليدي) بعدما تحول اللباس، الذي يرافق غطاء الرأس، من لباس فضفاض له ألوان قاتمة إلى زي شفاف، يتوسل كل الألوان، أو ضيق يلتصق بالأجساد، كما يتميز غطاء الرأس بألوانه الفاتحة وأشكاله وأحجامه المختلفة، مع تفاوت في الطريقة التي تنسق بها بعض (المحجبات العصريات) طريقة لباسهن.

من جهتهن، لا تجد (بطلات) الجمع بين غطاء الرأس والجينز والتنورات حرجا في التأكيد على أن لهن كامل الحق في مسايرة الموضة.

تقول سعاد، وهي موظفة في إحدى الوكالات البنكية بمراكش: «إن الحجاب العصري يقدمني بمظهر جيد ولا يخفي جمالي، قبل أن تستدرك: المهم أني مستورة أكثر من أخريات».

لكن يبقى الرأي العام منقسما بشأن (الحجاب العصري) إلى شطرين: أحدهما يعترف بهذا النوع ويتقبله، والآخر يرفضه أو يتعامل معه بتحفظ، معتبراً أن كل غلو في إظهار الزينة هو مظهر من مظاهر الفتنة والتبرج، يتناقض والأهداف التي يتوخاها الشرع من الحجاب، حتى وإن كانت صاحبته تضع غطاء رأس.

ولا يخفي حميد، وهو أستاذ جامعي، امتعاضه ممن يلبسن (الحجاب العصري)، ويقول: «من المثير أنك إذا صادف ونظرت إلى إحداهن تحسب نفسك كما لو أنك في إيطاليا أو فرنسا، وحين ترفع رأسك قليلا، يفاجئك غطاء الرأس، الذي تعلن من خلاله تحجبها، وكأن المشكلة في الشعر والرأس، إن غطته جاز لها أن تكشف ما دون ذلك. ونظرا للإثارة التي ترتبط بالمحجبات

العصريات صار من الأفضل أن تكشف الفتاة عن شعرها وأن تلبس الجلباب التقليدي، مثلا . فهذا أفضل من أن تغطي الرأس وتكشف عن الباقي» .

وذهب الدكتور حسن المجاهيد، متخصص في علم الاجتماع وأستاذ بجامعة (القاضي عياض) بمراكش، إلى أن المنظور السوسيولوجي يتحدد، في كل تناول للظاهرة الاجتماعية، من خلال مجموعة من الوظائف، وهو أمر ينطبق على ظاهرة الحجاب، بامتياز .

ورأى المجاهيد، في حديث لـ(الشرق الأوسط): «أن الوظائف المرتبطة بظاهرة الحجاب، تتحدد في الوظيفة الاجتماعية، والوظيفة الثقافية، والوظيفة الاقتصادية، والوظيفة السيكولوجية، حيث تطرح (الاجتماعية) سؤال الانسجام مع المجتمع، الذي يمثل المرأة وفق منظور محدد سلفاً، فيما تقوم (الاقتصادية) على الاعتناء بالمظهر، الشيء الذي يتطلب مصاريف كبيرة، وحين نستحضر ضعف القدرة الشرائية عند أغلبية المغاربة يمكن القول:

إن المرأة تجد في الحجاب فرصة للتخفيف أو التخلص من متطلبات الموضة وصرعة الاعتناء بالشعر، مثلا، ولذلك فالموظفة، مثلا، التي سيكون عليها أن تقف كل صباح أمام المرآة لتصفيف شعرها، ستكتفي بوضع غطاء على شعرها» .

أما الوظيفة السيكولوجية، فتعني أن «أي إنسان يسعى نحو خلق نوع من التوازن في شخصيته، وهو في بحثه عن الانسجام مع المجتمع، يخلق له إطارا للتوازن الشخصي» .

فيما يبرز، من خلال الوظيفة الثقافية، أن «الحضارة العربية والإسلامية تتميز عن بقية الحضارات والثقافات الأخرى بمجموعة مقومات، بينها أننا في العالم الإسلامي نجعل من الحجاب رمزا دينيا وعنوانا لهويتنا الثقافية أيضا» .

وتوسع الجاهيد في تناوله للظاهرة، فقال: «إن استعمالات الحجاب أخذت أشكالا كثيرة، منها ما تحركه ضرورات الموضة والتجارة وتوجهات المؤسسات الاقتصادية الكبرى، حيث صرنا إلى اجتهاد غير مسبوق في إبراز أشكال اللباس»، مشددا على أن «المظاهر لا تعبر بالضرورة عن المضامين».

وبخصوص الجمع بين الرموز، من قبيل الحجاب، كرمز للهوية الإسلامية، والجينز، كرمز للحداثة والتفتح، رأى الجاهيد: «أن كل ذلك يمثل بحثا عن نوع من التوازن في شخصية الفرد. فنحن ليس لدينا نموذج ثقافي موحد، بل لدينا مجموعة ثقافات تتعايش مجتمعة، وهي ثقافات تجمع بين التقليد والحداثة، وهذا واقع ينسحب على كل مناحي الحياة، وهو ما نجده في طريقة تدبيرنا، ومن ذلك طريقة تأثيثنا للمنازل ودور السكن، حيث يكون لدينا في المنزل نفسه، صالون عصري وآخر تقليدي، ولأن مجتمعنا لم يفرض نموذجه الخاص به، سنظل نعيش على إيقاع مثل هذه الظواهر التي تتتابع، فيما تبني لمضمونها وظائف خاصة تؤطرها».

ثالثاً : في العبادة

لقد فهم سلفنا الصالح العبادة بمفهومها الشامل الذي أراده الله - عز وجل ، وهو أنها تشمل كل نشاط في حياة الإنسان كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [1] ، فأصبحت حياتهم وحياة من سار على نهجهم حافلة بالأعمال العظيمة من تقوية الدولة المسلمة وتربية دائمة للرعايا وتعليم القرآن والعلم وجهاد الكافرين والمنافقين ، وقيام على أمور المسلمين ، وتنفيذا لأهداف التمكين ، فنجد مثلا العلامة آق شمس الدين وهو من العلماء الذين كانوا معاصرين لعصر السلطان محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية والذين شاركوا في الفتح ، نجده يجمع بين دوره في توجيه الأمة وتعليمها وتوظيف علم النبات والطب والصيدلة لمصلحة المسلمين . لقد كان هذا الشيخ يعبد الله - عز وجل - بالعلم الديني والدنيوي والأمثلة على مثل هذا العالم كثيرة .

إن النهضة التي حققتها الأمة الإسلامية في عصورها الزاهية كانت في كل المستويات ،العلمية والشعبية والحكومية والعسكرية ، وكانت حركة الأمة تعبيرا صادقا لمفهوم العبودية الشامل . أما في العصور المتأخرة فقد انحصر مفهوم العبادة عند كثير من المسلمين - إلا من رحم ربي - في الشعائر التعبدية التي أصبحت تؤدى كعادة موروثة ليس لها من أثر في حياة ممارسيها (اللهم إلا ما تستغرق من زمن لأدائها) ، وتم عزل العبادة عن بقية الإسلام حتى كأن الإسلام ، منحصر فيها دون بقية الأجزاء كأحكام المعاملات أو العلاقات المالية . ومع أن أكثر الناس - إن لم نقل كلهم - يعلمون أن الإسلام ليس هو

---

(١) الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣ .

العبادات المفروضة فحسب ، إلا أنهم أهملوا الجوانب الأخرى وغضوا الطرف عنها وأنزلوا مرتبتها . ودعا فريق من المرشدين إلى الإعراض عما سوى هذه العبادات ؛ فالجهاد وإنكار المنكر ورد الطغيان والاستعمار ومقاومة الظلم والعمل في جميع ما ينفع المسلمين من الأمور العامة ، كل ذلك أصبح في نظر هذا الفريق من الناس يعتبر فضولاً يشغل عن الله وعبادته ، وبينما كانت مقاييس الصلاح والتقوى في الإسلام شاملة لجميع الواجبات التي أوجبها الإسلام من عبادات خاصة وجهاد وعلم وعدل وأصبحت تلك المقاييس محصورة في العبادات ، وهكذا فإن انحصار مفهوم العبادة أدى إلى عزل العبادة عن بقية أجزاء النظام الإسلامي الشامل .

المفهوم الصحيح للعبادة ومظاهر انحرافه وضعفه :

اختلفت أقوال العلماء في مفهوم العبادة وتعريفها ، وهذا الاختلاف هو من اختلاف التنوع لا التضاد ، أي: إن هذه التعريفات يكمل بعضها بعضاً ، والإلمام بكل هذه الأقوال ينتج عنه المفهوم الصحيح للعبادة ، ومن هذه الأقوال:

قول ابن القيم (رحمه الله تعالى):

«أصل العبادة: محبة الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحب كله لله ، فلا يحب معه سواه ، وإنما يحب لأجله وفيه ، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه ، فمحبتنا لهم من تمام محبته ، وليست محبة معه ، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه ، وإذا كانت المحبة له حقيقة عبوديته وسرها: فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه»(١) .

---

(١) مدارج السالكين ، لابن القيم ، ١/ ٩١ .

وقوله في موطن آخر:

«العبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع»[1].

ويعرفها شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله تعالى) فيقول: «العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[2].

وعلى ضوء ذلك: لا يكون العبد متحققاً بوصف العبودية إلا بأصلين عظيمين:

١- الإخلاص لله - جل وعلا.

٢- متابعة الرسول ﷺ.

ومما سبق بيانه من النقولات وغيرها يتضح لنا جليّاً معنى العبادة الحقة التي أمرنا الله - عز وجل - أن نتعبد له بها، ويمكن تلخيص هذا المعنى العظيم وتلك الحقيقة الضخمة فيما يلي:

* **العبادة الحقة:** تعني تمام المحبة مع تمام الخضوع والتذلل لله - عز وجل - الذي يعني طاعته - سبحانه - والانقياد لأمره، ومحبة ما يحب، وبغض ما يكره، واتباع رسوله ﷺ فيما أمر ونهى وما سَنَّ وما شرع، من غير زيادة ولا نقصان؛ وإلا.. فما قيمة محبة وخضوع لا يثمران طاعة واتباعاً وقبولاً والتزاماً؟

العبادة الحقة تفرض على العبد أن يكون في كل أوقاته وتحركاته وسكناته مصبوغاً بصبغة العبودية، لا يخرج عنها في أي لحظة من اللحظات.

ومن صرف شيئاً من العبادة لغير الله - تعالى - فهو مشرك، تجب البراءة منه ومن شركه، ولا تصح العبادة إلا بهذه البراءة.

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم، ١/ ٧٧.

(٢) العبودية لابن تيمية، ص٤، ت: بشير عيون.

مفهوم العبادة في الإسلام وآثاره على المسلم:

إذا ذكرت كلمة العبادة فإنه قد يتبادر إلى ذهن بعض المسلمين أن العبادة محصورة في الشعائر التعبدية كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وتلاوة القرآن، والذكر، أما المعاملات المختلفة، والأخلاق، والآداب، والعادات، فليس لها علاقة بالعبادة، لا شك أن هذا المفهوم من المفاهيم المغلوطة التي يجب تصحيحها، ولكي نصحح هذا المفهوم نقول:

إن العبادة التي خلقنا الله من أجلها لا تقتصر على ركعات يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم والليلة، أو صيام أيام معدودات من كل عام، أو إخراج الزكاة الواجبة التي هي جزء يسير من المال، أو حج البيت الحرام لمن استطاع إليه سبيلا. إن هذه الشعائر التعبدية - على عظم منزلتها في الإسلام - إنما هي جزء من العبادة لله، وليست هي كل العبادة التي أمرنا الله بها، وهذه الشعائر التعبدية لا تستغرق من حياة المسلم إلا جزءا يسيرا، فهل يصح أن يمضي أغلب وقت المسلم دون عبادة الله - عز وجل؟ والمسلم يعلم أنه لم يخلق إلا لعبادة الله، والمسلم يقرأ في كتاب ربه المجيد الذي يأمره بأن يسخر حياته وأوقاته كلها في عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

وقد سئل شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية - رحمه الله - عن قول الله - عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾(٢)، فما العبادة؟ وما فروعها، وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا؟ فأجاب - رحمه الله - إجابة شافية وافية

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) البقرة: ٢١.

في مؤلفه المشهور (العبودية) فقال: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الأميين، والبهائم، والدعاء، والذكر والتلاوة، وأمثال ذلك من العبادة لله»[1].

من هذا الجواب الشافي يتضح لنا أن للعبادة مفهوما واسعا، فهي تشمل كل جوانب الحياة من عبادات، ومعاملات، وأخلاق وآداب. أما العبادات: فهي إما فرائض كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، ومحبة الله ورسوله، وإخلاص الدين لله، وإما عبادات تطوعية كالذكر والتلاوة. وأما المعاملات: فكالوفاء بحقوق العباد، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى اليتيم والمسكين وابن السبيل، بل وحتى الرفق بالحيوان. وأما الأخلاق فكصدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد.

إن مقتضى العبادة الحقيقية القائمة على الحب التام، والخضوع التام لله رب العالمين: أن يخضع العبد لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، وأن يقدم محاب الله على محاب نفسه وهواه، وأن يخضع وينقاد لشرع الله، فإذا أمره الله أو نهاه، أو أحل له أو حرم عليه، كان موقفه في ذلك ما أمره الله به بأن يقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[2].

ولهذا المفهوم الصحيح للعبادة آثار مباركة يلمسها المسلم في نفسه، وفي الحياة من حوله، ومن هذه الآثار:

---

(١) العبودية لابن تيمية ص٣٨.

(٢) البقرة: ٢٨٥.

أولاً: إذا وعى المسلم حقيقة العبادة في الإسلام، وشموليتها لكل جوانب الحياة، فإن حياته وأعماله تصطبغ بالصبغة الربانية، لأن كل عمل مشروع يقوم به يربطه بربه وخالقه، فهو ينوي به التقرب إلى الله تعالى، ولا شك أن هذه النية الصالحة تدفع المسلم إلى الاستزادة من الأعمال الصالحة التي حث عليها الشرع (سواء في العبادات، أو المعاملات، أو الأخلاق)، كما تدفعه إلى إتقان عمله الدنيوي، وإلى حسن التعامل مع الآخرين.

ثانيا: سلامة شخصية المسلم من الازدواجية والتخبط، لأن العبادة الحقيقية التي يريدها الله بمفهومها الواسع تمنح المسلم وحدة الغاية في حياته كلها، فربه واحد، ودينه واحد، وغايته واحدة، وهي رضا الله - سبحانه وتعالى. قد أخلص في عمله لله تعالى، وعلق قلبه بالله، لا يريد إلا رضاه، لذلك نجد أن هذا المسلم صاحب الشخصية السليمة والسوية، ليس ممن يعبد الله في المسجد فقط، فإذا خرج إلى ميادين الحياة المختلفة عبد شهوته وهواه، وانتهك حرمات الله، كلا إنه يعبد الله وحده لا شريك له في المسجد، وفي غير المسجد، قد سخر حياته كلها في عبادة الله، ودليله في ذلك وحي الله، وغايته رضوان الله تعالى، ممتثلا أمر ربه - عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[١].

ثالثا: تحرير نفوس المؤمنين من عبودية غير الله عز وجل، ونيل الحرية الحقيقية بصرف العبادة كلها لله وحده لا شريك له، وبالتالي تحرير العقول من ظلمات الجهل والأوهام الزائفة، وأيضا تحرير القلب من التعلق بغير الله - عز

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

وجل ، ولا شك أن هذه الحرية الحقيقية هي الطريق إلى تحقيق التوحيد الخالص لله - عز وجل ، والقائم على الحب التام والخضوع التام لله رب العالمين .

رابعا: تحصيل السعادة والحياة الطيبة التي وعد الله بها عباده المؤمنين ، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾(١) ، وهذا بخلاف من أعرض عن توحيد الله وعبادته ، فإن الله قد توعده بالمعيشة الضنك وحياة الشقاء ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾(٢) .

بعض مظاهر الانحراف والضعف في مفهوم العبادة:

المتأمل في حال المسلمين الأليم ، والغربة التي يعيشها أهل الإسلام اليوم ، يجد أن كثيراً من المفاهيم العقدية قد انحرفت عند كثير من عامة المسلمين إلا من رحم الله - عز وجل ، فهناك انحراف في معنى التوحيد والعبادة ، وانحراف في عقيدة اليوم الآخر ، وانحراف في عقيدة القضاء والقدر ، وانحراف . . وانحراف . . ولقد ساهم في هذه الانحرافات غزو أعداء المسلمين لديار المسلمين بثقافاتهم الكافرة وأفكارهم المنحرفة ، وقابل هذا الغزو من الأفكار جهلٌ عند كثير من الأجيال المسلمة بدينها وعقيدتها ، وعجز عند أكثر علماء الأمة عن تعليم الناس والوقوف في وجه هذا الغزو ، (فوافق الغزو قلباً خالياً فتمكنا) .

١- الانحراف في تطبيق شرطي العبادة:

من مظاهر الانحراف في العبادة ـ فهماً وتطبيقاً ـ ما هو منتشر بين أهل البدع والخرافة في القديم والحديث من ترك لأحد شرطي العبادة ـ أو كليهما ـ

---

(١) النحل: ٩٧ .

(٢) طه : ١٢٤ .

واللذين لا تصح العبادة إلا بهما ، ألا وهما: الإخلاص والمتابعة[1] ؛ فترك الإخلاص في العبادة نتج عنه صرف العبادة التي هي لله وحده إلى غيره من الخلق ـ ولو كانوا أنبياء أو ملائكة أو أولياء ـ وهذا صرف للعبادة عن مستحقها ، وحجتهم الداحضة عند ربهم: أنهم يؤمنون بأن الله الخالق الرازق بيده الضر والنفع ، ولكنهم يتوسلون بالصالحين ليقربوهم إلى الله زلفى ؛ وهذا هو الشرك الأكبر الذي من أجله أنزلت الكتب وأرسلت الرسل ، فترى هؤلاء يصرفون العبادة ، بأنواعها المختلفة من ذبح ، ونذر ، وخوف ، ورغبة ، وغير ذلك من أصناف العبادة إلى غير الله - عز وجل .

وهذا من أشد مظاهر الانحراف في العبادة ؛ لأنه شرك أكبر يضاد الإخلاص لله - عز وجل- الذي هو شرط من شروط كلمة التوحيد وقبول العبادة .

ومحل الكلام عن هذا الشرك وأنواعه مبسوط في كتب التوحيد والعقائد[2] .

أما ترك الشرط الثاني لصحة العبادة (وهو المتابعة) فينتج عنه انحرافات كثيرة في العبادة وتطبيقاتها ، حيث ظهرت ألوان وصور من العبادات التي لم يأذن بها الله - عز وجل- ولم يشرعها الرسول ﷺ لأمته ، وبخاصة بين المتصوفة الذين يعطون لمشائخهم حق التشريع ، ويعتبرون أقوالهم وأفعالهم مصدراً من مصادر الاستدلال ، فظهرت بذلك هيئات وصور متعددة للعبادة والأوراد والأذكار ، كلها مبتدعة ، سواء أكان ذلك في كيفيتها ، أو كمها ، أو هيئتها ، أو طريقة أدائها ، أو زمانها ، أو مكانها ، وهذه كلها مردودة على أصحابها ، لأنها تشريع لم يأذن به الله ، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ

---

(١) المراد هنا: إيضاح الانحراف الذي يترتب على ترك هذين الشرطين أو أحدهما .

(٢) مثل: كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله) ، وشروحه المعروفة ، ومن أشهرها: (فتح المجيد) و (تيسير العزيز الحميد) .

بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] ، ولقول الرسول ﷺ : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[2] .

٢- الانحراف في مفهوم العبادة:

وهو النظر إلى العبادة على أنها أداء للشعائر التعبدية من: صلاة ، وصيام ، وحج ، وذبح ، وقراءة قرآن . . . فحسب ، وأن ما سوى ذلك من معاملات ، وأخلاقيات ، ومباحات . . وغيرها ، كل ذلك لا يدخل في العبادة .

نعم إن هذا المفهوم هو السائد عند كثير من المسلمين ، سواء أقالوه بلسان مقالهم أم بلسان حالهم وأعمالهم ، ولا أدل على ذلك من أننا قد نجد ذاك العبد المصلي ، الصائم ، القارئ للقرآن ، بعد فراغه من هذه الشعائر التعبدية لا يتورع أن يغشّ ، أو يرابي ، أو يظلم ، أو يملأ بيته من آلات اللهو ووسائل الإفساد ما الله به عليم ، وكذلك قد نرى المرأة المصلية الصائمة لا تتورع عن التصرف في نفسها بما يخالف الشرع ، من سفور ، أو زينة محرمة ، أو اختلاط . . أو غيره . وإذا نُصِحَ مثل هؤلاء الناس ، قالوا: إنهم من المصلين العابدين ، وقد انتهى وقت العبادة! وهكذا تنحرف الغايات ، وتنشأ اللوثات ، وتفسد النيات ، وذلك كمن يفصل أمر تعليمه وتعليم أولاده عن غاية العبادة لله - عز وجل ، ويربط ذلك بالشهادة التعليمية والمال والوظيفة ، بل يستخدم أي وسيلة توصله إلى ذلك .

إن العبادة بهذا المفهوم المنحرف تجعل المسلم في انفصال وانفصام بين حياته في مسجده وخارج مسجده ؛ لأنه لو كان مفهوم العبادة التي يريدها الله - عز وجل- كما فهمها هذا الصنف من الناس لكانت عبثاً ، ولبقي أكثر الأوقات

---

(١) الشورى: ٢١.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم(١٣٤٣) عن عائشة - رضي الله عنها .

غير معمور بعبادة الله - عز وجل ، وهذا لا يرضاه الباري - جل وعلا ؛ ذلك لأن أوقات الصلوات لا تتعدى ساعتين أو ثلاثاً في اليوم والليلة ، فماذا يكون شأن الساعات الباقية؟ هل تنفق في غير عبادة؟! كلا . . فإن الله -سبحانه- لا يرضى لعباده هذه الحال .

ومن مظاهر الانحراف في مفهوم العبادة وتطبيقها ما عرف عن بعض غلاة المتصوفة وزنادقتهم من أن أداء العبادات والطاعات مرتبط بحصول اليقين المطلق ـ هكذا زعموا ـ فإذا وصل العبد إلى هذا المستوى سقط عنه التكليف ولم يعد في حاجة إلى العبادة التي هي من منازل العامة! ، أما الخاصة ، ومن يسمونهم بالأبدال والأقطاب: فقد بلغوا درجة اليقين التي ترفع عنهم التكاليف والعبادات (نعوذ بالله من هذه الحال) ، ونبرأ إلى الله - عز وجل - من أهل الزندقة والإلحاد [1] .

هذا . . . ومن شطحات الصوفية في مفهوم العبادة أيضاً: المقالة المشهورة عن بعضهم من أنهم «لا يعبدون الله خوفاً من ناره ، ولا طمعاً في جنته ، وإنما حبّاً له وشوقاً إليه» .

وواضح ما في هذا الكلام من تكلف وانحراف عن طريق الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وسؤالهم الله - عز وجل- جنته وتعوذهم به من النار ، يقول شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - في معرض رده على هذه المقالة:

(كان أفضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار ، ولما سأل بعض أصحابه عما يقول في صلاته؟ قال: إني أسأل الله الجنة وأعوذ بالله من النار ، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ .

---

(١) وقد فضح الإمام ابن القيم هؤلاء المتصوفة الزنادقة في (مدارج السالكين) ، ١/ ١٠٣ ، ١٠٤ .

فقال: «**حولهما ندندن**»[١])[٢] .

وقال أحد السلف: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري (أي خارجي)؛ ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد» .

إذن: فالعبادة الحقة هي التي تجمع بين المحبة والخوف والرجاء والذلة والخضوع .

إذن: فالواجب على كل مسلم أن يعلم أنه ما خلق إلا للعبادة، وأن وقته يجب أن يكون في عبادة؛ سواء ما كان منه في الشعائر التعبدية، أو ما كان منه في المعاملات، أو ما كان منه في المباحات، كل ذلك يجب أن يمارسه العبد وشعور العبادة لله - عز وجل - يصاحبه، فيراقب ربه في كل أعماله، وينوي بها التقرب إليه - عز وجل - والاستعانة بها على طاعته .

إن هذا الشعور وهذه النية تجعل العبد في كل أعماله ـ حتى في مباحاته ولذاته ـ عبداً لله، مسلماً وجهه لربه - عز وجل[٣]، ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾[٤] .

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٩١٠)، وأبو داود (٧٩٢)، صححه الألباني .

(٢) تفسير ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] لابن تيمية، تحقيق: عبد العلي حامد، ص١٣ . مجلة البيان، العدد (١٠٤)، ربيع الآخر ١٤١٧، سبتمبر ١٩٩٦م .

(٣) وقد تحدث الأستاذ محمد قطب حول هذا الموضوع حديثا مستفيضاً وفق فيه، عند حديثه عن مفهوم العبادة، انظر كتابه: (مفاهيم ينبغي أن تصحح) .

(٤)الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣ .

٣- الانحراف في التطبيق:

وقد ترتب على الانحراف في مفهوم العبادة انحراف آخر في تطبيق العبادة ، فحتى الشعائر التعبدية التي حُصرت العبادة فيها بحسب ، هي الأخرى نالها ما نالها من الضعف والميل بها عن حقيقتها وغايتها ، وهذه نتيجة متوقعة وبدهية معروفة ؛ فالانحراف في الفهم لابد أن ينتج عنه انحراف في التطبيق ، ويوضح الأستاذ محمد قطب – وفقه الله – هذا الانحراف ، فيقول: « حين صار المطلوب كله هو أداء الشعيرة ، وانحصرت (العبادة) كلها في هذا الأمر ، كان حريًا بهذا اللون من العبادة أن ينحسر أكثر فأكثر ، حتى يصبح المطلوب هو أداء الشعيرة بأي صورة كانت . . ولو كان أداءً آليا بغير روح ، أو أداء تقليديًا يحركه الحرص على التقاليد أكثر مما يحركه الدافع إلى عبادة الله .

وتلك هي الصورة التي انتهت إليها العبادة في الجيل الذي شهد الانهيار» .

ولقد تسبب هذا الانحراف والانحصار في مفهوم العبادة في سلبيات من أهمها:

١-صارت الشعائر التعبدية تؤدَّى بصورة تقليدية ، عديمة الأثر والفائدة حين عزلت عن بقية أمور الإسلام ، فلا تؤدي هذه الشعائر دورها في حياة الإنسان ، فالصلاة التي يخبر الله عنها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(١) لم تعد ذات أثر واقعي في حياة مؤديها من الناس ، إلا من رحم ربي ، فما كان لها أن تُحْدِث هذا الأثر وقد حصرت العبادة في أداء الشعائر التعبدية فحسب .

---

(١) العنكبوت: ٤٥ .

٢- تهاون الناس في بقية جوانب العبادات الأخرى ، إذ لم تعد من العبادة في شيء ؛ فنجد من يصلى الفرائض في المسجد ثم يخرج يحلف كذبا ويغش في بيعه وشرائه ويحتال في معاملاته ويأكل الربا أضعافا مضاعفة ويقع في أعراض الناس ، ثم تراه سادرا في ذلك مرتاح الضمير هادئ الخاطر ، قد أسكت وخزات ضميره وتأنيب نفسه بما (نقره) من ركعات .

٣-العناية بالجانب الفردي الشخصي وإهمال الجوانب الاجتماعية ، فنجد المسلمين قد عنوا بالآداب الفردية والمتعلقة بذات الإنسان أكثر من عنايتهم بالآداب الاجتماعية المتعلقة بالآخرين ، فتجده نظيفا في ذاته ولكنه لا يبالي أن يلقى القمامة في طريق المسلمين ، ناسيا أن إماطة الأذى عن طريق المسلمين من شعب الإيمان ، وهكذا نمت روح الفردية على حساب الروح الاجتماعية .

٤- إقامة العبادة مقام العمل ، والاكتفاء برسومها وشعائرها وبما أحدث فيها من بدع عن اتخاذ الأسباب ؛ فأصبحت قراءة القرآن وتلاوته لفظاً بديلاً عن العمل بما فيه من تفكر في الكون وإقامة العدل و . . . . مع أن ذلك كله من العبادة ، فالرسول ﷺ كان يستعد لقتال المشركين كل الاستعداد كما أمره الله ، ويدعو الله ويبتهل إليه لينصره ، بينما نجد المسلمين اليوم يجعلون الصلاة والدعاء المأثور والمبتدع بديلاً عن الأسباب ، فيلتمسون الرزق والشفاء والنصر لا بأسبابها المشروعة التي جعلها الله سببا وطريقا إليها ، بل بأدعية خاصة يقتصرون على تلاوتها ، وربما اخترعوا لذلك رقى وتمائم وزيارات لأمكنة خاصة وأوراداً ابتدعوها .

إن ما حل بالمسلمين من هزائم عسكرية وأزمات اقتصادية وانحرافات خلقية ومصائب اجتماعية وتلوثات فكرية وجفاف روحي وتأخر حضاري ، كان من أسبابه إفراغ الإسلام من محتواه الأصيل وضياع مفهوم العبادة الشامل .

فيوم كانت ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾(١) عبادة لم يجرؤ أحد على احتلال أراضي المسلمين واستلاب خيراتهم .

ويوم كان (طلب العلم فريضة) عبادة لم يكن هناك تخلف علمي ، بل كانت الأمة المسلمة هي أمة العلم التي علمت أوروبا في مدارسها وجامعاتها .

ويوم كانت ﴿فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ﴾(٢) عبادة ، كانت المجتمعات الإسلامية أغنى مجتمعات الأرض .

ويوم كان « **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» عبادة ، وكان ولي الأمر يستشعر انه راع ومسئول عن رعيته ، لم يكن للفقراء في المجتمع الإسلامي قضية ، لأن العلاج الرباني لمشكلة الفقر كان يطبق في المجتمع الإسلامي عبادة لله .

ويوم كانت ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٣) عبادة لم تكن للمرأة المسلمة قضية ، لأن كل الحقوق والضمانات التي أمر الله بها كانت تؤدى إليها طاعة لله وعبادة لله .

إن الانحراف عن مفهوم العبادة الشامل إلى إفساح المجال للمعتقدات والأفكار الغربية لتتغلغل في الدول الإسلامية ، وكان هذا من أهم أسباب انهيار الخلافة وتفرق المسلمين ، وإلى ظهور الفتور بصورة تؤثر على الهوية الإسلامية .

٤- الانحراف في مصدر التلقي:

ترتب على الانحراف السابق في مفهوم العبادة انحراف أشد خطراً وأسوأ أثراً ، حيث كان الانحراف السابق ذكره منحصراً على مستوى الفرد ، بينما هذا

---

(١) الأنفال: ٦٠ .

(٢) الملك: ١٥ .

(٣) النساء: ١٩ .

الانحراف الذي نحن بصدده يتمثل في النظم التي تحكم في أكثر بلدان المسلمين اليوم، والتي يسعى أربابها إلى عزل الدين عن الحياة وتوجيهها وتنظيمها، وحصره بين جدران المسجد وأداء الشعائر التعبدية، ولسان مقالهم أو حالهم يردد تلك المقولة الجاهلية، والتي قالها أصحاب مدين لنبيهم شعيب - عليه الصلاة والسلام- ويقولها العلمانيون في زماننا:

ما للدين وحجاب المرأة وعملها، ما للدين والسياسة وموالاة الكفار ومحبتهم، ما للدين والاقتصاد، ما للدين والإعلام والتعليم . .!! إلخ، الدين: أن تعبد الله في المسجد، وتقرأ القرآن، وتذكر الله . . . هكذا يزعمون!! أما الحياة فلها نظمها التي تتناسب مع تطورها . . إلى آخر هذا الهذيان والانحراف والفجور.

إن هذا الفهم الأعوج هو ما قاله أهل مدين لنبيهم شعيب بعد أن دعاهم إلى التوحيد وترك البخس والنقص في المكيال والميزان، قال الله - عز وجل: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[1]. إنهم يقولون: يا شعيب: ما دخل عبادتك وصلاتك في حياتنا الاقتصادية، وفي اتباعنا لآبائنا وطاعتهم فيما كانوا يعبدون . . سبحان الله! ما أشبه قلوبهم بقلوب الجاهلين في زماننا هذا، وما أشبه مقولتهم بمقولة العلمانيين المنافقين[2].

---

(١) هود: ٨٧.

(٢) تحدث الأستاذ سيد قطب عن قوله تعالى: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ الآية حديثاً قيماً، فضح فيه منطلقات العلمانيين من الدين وتعاليمه ومحاولاتهم الدائبة لفصل الدين عن الحياة بدعاوى ما أنزل الله بها من سلطان، انظر: الظلال (آية ٨٧ من سورة هود).

والحاصل مما سبق: إذا حصرت العبادة في الشعائر التعبدية فحسب، فما معنى قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾[1]، وما معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[2]، وقد علق العلامة الشنقيطي- رحمه الله- على هذه الآية، قائلاً:

«فهي فتوى سماوية من الخالق - جل وعلا - صرح فيها بأن متبع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله»[3].

إذن: فإن من أخص خصائص العبادة: الطاعة، والاتباع، والخضوع، والانقياد، فكما أن العبادة تأتي بمعنى الدعاء والنسك، فهي تأتي أيضاً بمعنى الطاعة والاتباع، ولكن الجاهلين أو المتجاهلين يريدون حصرها فقط في الشعائر التعبدية والعبادات الخاصة، ثم لا دخل بعد ذلك للعبادة في شؤون الحياة وتسيير دفتها.

وإن الذين يرون هذا الفصل المشين والفصام النكد بين الدين والحياة على قسمين:

إما أن يكونوا جهلة بحقيقة الدين وحقيقة العبادة في الإسلام؛ إذ لم يكن لهم حظ من العلم الشرعي ينير بصائرهم، وإنما غاية ما عندهم ثقافات مشوهة من الغرب أو الشرق تسربت إلى قلوبهم على حين غفلة وخواء، فتمكنت منها، وهؤلاء وأمثالهم من الذين انحرفوا بمفهوم العبادة عن معناها الصحيح بسبب جهلهم، وقد نرى بعضهم من المصلين، الصائمين، التالين للقرآن الكريم!.

---

(١) التوبة: ٣١.

(٢) الأنعام: ١٢١.

(٣) أضواء البيان، ٧/ ١٧٠.

وعلاج هذا الصنف من الناس يكون بالعلم الشرعي ، والرفق بهم حتى يفقهوا هذا الدين بمعناه الصحيح .

والأخطر من أولئك هم الذين يفهمون حقيقة العبادة وحقيقة دين الإسلام ، ولكنهم يستكبرون عن الانقياد لهذا الفهم ، وينطلقون بخبث وغرض سيئ لإثارة الشبهات ، وصرف المسلمين عن دينهم ، وتشويه هذه المفاهيم في نفوسهم ، وهؤلاء إن صلوا أو قاموا ببعض الشعائر فهو نفاق وزندقة ، والحذر من هؤلاء يجب أن يكون على أشده ، كما أن فضح أفكارهم وخططهم هو المتعين ، فهم من المنافقين الذين جاء الأمر الإلهي بمجاهدتهم ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[1] .

مظاهر الفتور في العبادة:

الفتور عن الطاعات له مظاهر عديدة ظاهرة وباطنة ، نذكر منها :

١ - قسوة القلب :

الشعور بقسوة القلب وخشونته ، حتى ليحس الإنسان أن قلبه قد انقلب حجراً صلداً لا يرشح منه شيء ولا يتأثر بشيء ولا يرق لشيء ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةً﴾[2] .

فيحس أن قلبه يجمد شيئا فشيئا ، لا يتأثر بموعظة ولا برؤية بلاء أهل البلاء ، ولا حتى بالقرآن ، وربما دخل المقابر وحمل إليها الأموات وواراهم التراب وكأنه لم ير شيئًا ، حاله كما قال الله: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ

(١) التحريم: ٩ .

(٢) البقرة: ٧٤ .

كَالْحِجَارَةِ﴾ ، فإذا أحسست بقسوة في قلبك وتحجر في عواطفك فاعلم أنه مظهر من مظاهر ضعف الإيمان .

٢- ضيق الصدر والوحشة من الناس :

فيصبح المرء سريع الغضب على من حوله ، قليل الصبر والتحمل لهم ، يضيق ذرعا بأفعالهم ، ويتأفف من أعمالهم ، قد ذهبت عنه سماحة أهل الإيمان ، فلم يعد يألف ويؤلف ، وكلما زادت غفلته وفترته زاد همه وضاق صدره .

٣ - الوحشة بينه وبين الله :

وعلامتها استثقال العبادة ، والتهاون في الطاعة ، وعدم الحزن على فواتها ، فتفوته مواسم العبادة ولا يتأثر ، ويتأخر عن الجُمَعِ والجماعات ولا يحزن ، وعبادته إن أداها فهي مظاهر خالية من الروح: فالصلاة بلا خشوع ، وقراءة القرآن بلا تدبر ، والأذكار عادة ، والدعاء مجرد كلام باللسان مع غياب القلب ، والله لا يقبل دعاء قلب ساهٍ لاهٍ .

٤- الاستهانة بالمكروهات والمشتبهات :

فبعد ما كنت تسأل عما فيه شبهة لتجتنبه حفاظًا على دينك ، ولا تتجرأ أن تقترب مما قيل إنه مكروه ، إذا بك لا ترى بما دون الحرام بأسًا ، فقارفت المكروهات ، وولغت في الشبهات ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام . . . . ، فقادك هذا التساهل إلى رفع الحاجز عن الحرام ، فسهل عليك الوقوع فيه ، فاجترأت على محرمات لم تكن قديما تخطر لك على بال . . وكلما ضعف الإيمان ازداد المرء تفلتا .

٥- عدم الغيرة على محارم الله :

فإن نار الغيرة إنما توقدها جذوة الإيمان ، وقد خبت . . وكيف ينكر المحرَّمَ من وقع فيه؟ وكيف يكره أهل المعاصي من يعيش بينهم ، وربما زاد

القلب إظلاما حتى يرى الحق باطلا والباطل حقا ، والحسن قبيحا والقبيح حسنا .

٦- هجر القرآن الكريم :

عدم التأثر بآيات القرآن الكريم ولا بوعيده وتخويفه ولا من أمره ونهيه ولا في وصفه ليوم القيامة ، فهم يسمعونه كأي كلام آخر ، بل تضيق صدورهم فلا يستطيعون تلاوة القرآن لدقائق معدودة فضلاً عن تلاوة الورد اليومي تجدهم لا يهتمون بذلك .

٧ - التفريط في النوافل :

تكاسل عن أعمال الخير وعن العبادات والتفريط وعدم الاهتمام بها ، فالصلاة يؤديها مجرد حركات ، قيام وقعود ، لا أثر لطمأنينة أو خشوع فيها ، الجسم حاضر ، والقلب سارح ، كذلك التفريط بالسنن الرواتب والشفع والوتر ، وتجدهم يحضرون للصلاة متكاسلين ومتأخرين عن الصفوف الأولى وتكبيرة الإحرام .

٨ - إهمال الذكر :

غفلتهم عن ذكر الله سبحانه وتعالى : فلا يذكرونه بألسنتهم ، ولا يذكرونه عند ما يرون مخلوقاته ، بل تجدهم يثقل عليهم ذكر الله - سبحانه وتعالى .

٩- اعتياد فوات الطاعات :

عدم التحسر على فوات الطاعات . . . المسلم يفوته الفرض والفرضان وأكثر من ذلك وكذلك صلاة الفجر والسنن الرواتب فلا يحزن ولا يندم ولا يتألم من ذلك ، ولا يخجل من الله سبحانه وتعالى ولا من خلق الله ، لاهياً في دنياه ، ناسياً آخرته ، بينما إذا رأى غيره نال شيئاً من حطام الدنيا اعتبر نفسه مغبوناً وسيئ الحظ - أعاذنا الله وإياكم من الغفلة عن طاعة الله - سبحانه وتعالى .

معلوم أن الإيمان لا ينزع من قلب العبد مرة واحدة، وإنما يحمله الشيطان على التهاون في دينه خطوة خطوة، فيدب الضعف إلى إيمانه رويدًا رويدًا.

ولضعف الإيمان في قلب الإنسان علامات تدل عليه ومظاهر يعرف بها.

١٠ - الانشغال بالدنيا:

والحرص عليها، والسعي وراءها، وطلب الجاه فيها، وفي الحديث: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»[1]. فطغيان الدنيا على الآخرة مفسد للدين كما روي عن معاذ ﷺ: «**يا ابن آدم! أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر بنصيبك من الدنيا فانتظمه انتظاما. وإن بدأت بنصيبك من الدنيا فاتك نصيبك من الآخرة وأنت من الدنيا على خطر**».

١١- طول الأمل:

طول الأمل مفسد للقلب؛ فإن من طال أمله نسي الآخرة، وسوَّف في التوبة، ورغب في الدنيا، وكسل عن الطاعة، وأسرع إلى المعصية؛ فيقسو قلبه، لأن رقة القلب بتذكر الموت والقبر والجنة والنار، وطويل الأمل لا يذكر هذه الأشياء.

قال علي بن أبي طالب ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم: اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة».

وفي الأثر: «أربعة من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)، وصححه الألباني.

رابعاً: في الأخلاق

التسيب في حياتنا أوضح من أن يُشار إليه أو يُدلَّ عليه، فمظاهر عديدة في شوارعنا ومدارسنا ومستشفياتنا وفي كثير من مؤسسات الدولة، وفي التعامل مع المال العام (ممتلكات الدولة) وفي غير ذلك من المواقع والأماكن، وهو ألصق بنفوس بعض الناس من كثير من الرغبات، ولذا فهم ينشرونه أينما وجدوا، دون أن يبالوا بأنهم – بعملهم هذا – ينشرون الفوضى، ويشيعون الخراب في أرجاء الديار، فلا صلاح ولا عمران بغير انضباط ونظام، فإذا فقد الانضباط وضاع النظام فماذا تنتظر لأناس هذا حالهم؟

ولعل من أسباب ذلك ضعف التربية الدينية والوطنية، أما ضعف التربية الدينية فهو لا يخفى على أحد في الشرق أو في الغرب. ولا يشك صاحب عقل ولب في سلامة التربية الدينية من حيث وسائلها وأهدافها، وهي تربية يوشك الجميع أن يبتعدوا عنها، وهذا سبب كثير من البلاء في كثير من البلاد.

ضعف الإحساس بالمواطنة:

وأما ضعف التربية الوطنية فلا يخفي كذلك على أحد؛ لأنه سبب كثير من الدمار الذي يلحق مرافق وطنية عديدة، في سلامتها قوة للوطن، وفي اعتلالها واختلالها وبال على الوطن . . .

وضعف هذه التربية الوطنية أدى إلى فقدان الإحساس بالانتماء الوطني، سواء أكان انتماء معنويا أخلاقيا لبلده، أم انتماء ماديا.

إن الشخص الذي فقد الانتماء الوطني الحقيقي لا ينتمي إلا لمصلحته فقط، ولذا فهو يحافظ على ممتلكاته الخاصة؛ لأن بينه وبينها رابطة مادية ومعنوية، فهو حريص على سيارته – مثلا – ولا حرص عنده على سيارات الآخرين؛ لأنه لا يرى صلة تربطه بممتلكاتهم، ولذا فإنه غير حريص على ممتلكات الدولة؛ لأنه لا تربطه بها رابطة مادية ولا رابطة معنوية، فالوطن – في رأيه –

لا يزيد على مكان من الأمكنة غير مميز بميزة خاصة . . . إن تاريخ هذا الوطن مجهول لديه ، إن إحساسه بأن ازدهار هذا الوطن عائد عليه مفقود عنده . . . إن القيم التي يحرص عليها هذا الوطن لا تجد عنده قبولا ، ولذا لا يأنف أن يلبس قميصا عليه علم دولة أخرى .

قيم الإسلام تصون الإنسان:

أراد الغرب أن يقلد الطاووس فما استطاع ، فأراد أن يعود إلى طبيعته الأولى فما استطاع ، فلا هو صار طاووسا ولا بقي محتفظا بأصله وطبيعته . . ولسنا نرضى بهذا السلوك المشين الذي فيه غيرنا ، ونتخلى عن طباعنا الأصيلة ، لأن هذا – حتى لو أردناه – غير مستطاع ، فديننا وتربيتنا وأخلاقنا وبيئتنا . . كل ذلك يأبى علينا أن نكون شيئا آخر غير ما نحن عليه . فحيثما وجدنا وجدت معنا هذه العوامل ، التي تشكل الوجدان ، وتصون الإنسان ، فلا ينجرف في تيار العصيان ، ولا ينساق وراء الانحرافات العديدة والموبقات الشديدة ، التي تعج وتمتلئ البلاد غير الإسلامية بها ، وتيسرها لطالبيها ، بل وتغريهم وتشدهم إليها .

وقد كان من فضل الله على المسلمين أن صانهم بهذا الدين ، الذي أوجب عليهم العفة ، وحدد لهم مسالك الاستمتاع بالنساء عن طريق الزواج الصحيح وحده ، دون أن يكون هناك طريق آخر ، صانهم الله بهذا التشريع من أن تشيع فيهم أمراض العصر الفتاكة ، التي ما يكاد يذكر اسمها حتى يستعيذ الناس من شرها ، ويطلبون من الله الوقاية منها .

وما كان المسلمون الرحالون إلى البلاد الأخرى في العصور السابقة إلا دعاة إلى الله بسلوكهم وأعمالهم لا بألسنتهم وأقوالهم . . والمسلمون اليوم في جنوب شرق آسيا الذين يعدون بمئات الملايين هم غرس أولئك التجار المسلمين الذين

خرجوا من الجزيرة والخليج إلى تلك البلاد، فكانوا بهدي دينهم الذي استصحبوه في أسفارهم ولم يتخلوا عنه، خير دعاة يحملون نور الله الذي يبدد ظلام الوثنية. وأنت - أيها المسافر اليوم - تسير في بلاد عديدة لا تعرف من الدين إلا اسمه، فهل تكون بسلوكك كما كان أجدادك السابقون أم تذوب هناك وسط الجموع، فتفعل ما يفعلون وتضل كما يضلون؟ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[1].

واقرأ معي ما قاله الأستاذ طارق ذياب في مجلة المجتمع العدد (١٣٠٢) تحت عنوان (السفر غير البريء): «خلال عطلة الهجرة النبوية سافرت إلى إحدى الدول العربية المطلة على البحر المتوسط لإنجاز بعض الأعمال، وعند عودتي تأخرت الطائرة عن موعدها، فانتظرنا لمدة ساعتين في صالة الانتظار التي امتلأت بالمسافرين العائدين إلى الكويت، ولقد هالني الأمر، فقد كانت أغلبيتهم من الشباب الكويتي الذين تراوحت أعمارهم بين ١٥ و٢٥ سنة، إلا أن عددا منهم كانوا في حالة من السُّكْر الواضح، وقد احمرت أعينهم وهم يتضاحكون بصوت عال خال من الحياء والأدب، ويتبادلون النكات السمجة، ويتحدثون عن أخبار مغامراتهم مع بائعات الهوى الرخيصات جدا في تلك الدولة.

هذا الأمر يدفع للتساؤل: هل هذا هو الشباب الذي ستناط به مسؤولية حماية البلاد ورفعة شأنها؟

ثم أين الرقابة الأسرية على هؤلاء الفتية؟ وهل يعلم ذووهم غرض سفرهم؟ وهل يأبهون لاحتمال وقوعهم في الزنى والمحرمات؟

---

(١) محمد: ١٢.

وقد عمل الأعداء على إغراق الشباب في الفساد، حتى «لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات وإن تبوأ المراكز ففي سبيل الشهوات...» هكذا يقول القس زويمر كبير المبشرين عن ثمرة جهود إخوانه المبشرين في البلاد الإسلامية، حتى صارت جهود كثيرة تسعى في كل دولة إسلامية لإثارة الشهوات أمام الشباب، وقد عبر عن ذلك واحد من الشباب فقال: «إذا ذهبت في السيارة نظرت يميناً فإذا أنا بامرأة متبرجة متزينة.. وأدخل البيت وأجلس مع أهلي وإذا بفيلم فاضح يعرض صوراً عارية على شاشة التلفزيون... أجلس في داري وأقرأ الجرائد، وإذا ببصري يقع على ما يثير النفوس ويهيج الشهوات.. أقرأ المجلات وإذا بالقصص والأخبار المثيرة تثير كوامن النفس الأمارة..»(1). وكذلك عبرت إحداهن عن ذلك فقالت: «إني أفكر في الانتحار في كل دقيقة، بل في كل ثانية؛ لأنه لا تمضي ساعة واحدة دون أن أشعر بالعاطفة الجنسية الجامحة تخترق أحشائي كما يخترق الرصاص جسم الإنسان ويقتله، وكلما شاهدت فيلماً عاطفياً أو قرأت قصة غرامية تثور عاطفتي وغرائزي»(2).

نموذج واقعي:

أليست هذه الإثارة المتعمدة والمستمرة للشهوات، ثم ما يتبعها من إحباطات عند الشاب أو الفتاة، مع غياب التربية الصحيحة والرقابة الأسرية، وإعطاء الشباب كثيرا من الحرية والسهر وربما التغيب عن البيت من غير أن يسأل أحد عن الغائب لم غاب وأين غاب؟ ولا عن المتأخر خارج البيت أين

---

(1) العفة ومنهج الاستعفاف للعقيلي، ص11.

(2) المصدر السابق ص53.

كان ومع من؟ أليس هذا القصور التربوي والأسري وراء ما نطالعه في الصحف كل يوم من جرائم أخلاقية تتصل بهتك الأعراض، وإدمان المخدرات؟

أليس سيل الجرائم الذي لا يتوقف وراءه هذه المثيرات الدافعة للانحراف؟

وإلا ما الذي يجعل فتاة في سن الرابعة عشرة تقبل أن تنحرف وتمارس الفاحشة راضية مختارة؟

وهذا ما كتبته إحدى الصحف الكويتية في ٣١/ ٥/ ١٩٩٨م : «تلقت عمليات الفروانية بلاغاً بالعثور على فتاة كويتية الجنسية (١٤سنة) سجلت لها قضية بسجل المتغيبين، حيث أفادت أن أحد الأشخاص أخذها إلى منزل أحد أصدقائه وقام بمعاشرتها معاشرة الأزواج، كما قامت في اليوم التالي بالذهاب مع اثنين آخرين إلى شقتهما وقاما بهتك عرضها ومعاشرتها، ثم تركاها في الواجهة البحرية حتى عثر عليها من قبل رجال مخفر السالمية، وإدارة العلاقات العامة تهيب بالأسر ضرورة فرض رقابة صارمة على الأبناء وخاصة الفتيات القصر، وعدم تركهن يخرجن بمفردهن من المنزل لضمان عدم تعرضهن لمثل هذه المشاكل».

وإدارة العلاقات العامة بوزارة الداخلية تستحق الشكر على مناشدتها الآباء والأمهات أن يراقبوا أبناءهم وبناتهم، وليتها عممت هذه المناشدة لتصل إلى أجهزة الإعلام التي تثير في الشباب كوامن الغريزة التي تجمح بهم فتخرجهم عن حدود الدين والأخلاق والقيم، وهذا يحقق ما هدف إليه اليهود في بروتوكولاتهم إذ قالوا: «يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان؛ فتسهل سيطرتنا، إن فرويد منا سيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكيلا

يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه»[١].

وهذا ما يحدث في كثير من الأفلام والمسلسلات وأفلام الفيديو، وبعض العروض المسرحية، وعروض الأزياء، ومسابقات الجمال التي صارت تقام في بعض البلاد الإسلامية، إلى جانب شيوع السفور والتبرج والخضوع في القول، والتكسر في المشية، والتخنث في الحركة، وكل هذا معروض أمام الشباب الذي تلهبه الشهوات بسياطها وتجذبه النزوات نحوها، ولا يحول بينه وبينها وازع من ضمير أو رقابة من أسرة، فغاب التوجيه والإرشاد، وحضرت إلى جانبه وزينت الشر له صحبة الأشرار.. فماذا تنتظر منه؟! وماذا تنتظر له؟!

لقد آلمني كثيراً أن أرى بعد صلاة فجر أحد الأيام عند أحد فروع بعض الجمعيات التي تقدم خدماتها أربعا وعشرين ساعة، ستة شبان وفتاتين فوق أربع دراجات نارية، لا تكاد تفرق بين الفتى والفتاة في ملبس ولا مظهر، إلا أن الفتاة ينسدل شعرها قليلا خلف ظهرها، ثم نزلوا لشراء بعض العصائر، وركبوا دراجاتهم وانطلقوا حتى غيبهم الشارع عن أعين الناظرين، وتساءلت من أين جاؤوا؟ وإلى أين يذهبون؟ وأين آباؤهم وأمهاتهم؟ وأي رقابة على هؤلاء؟

طريق الدمار:

وانهماك الشباب في الشهوات والمخدرات يجعله صيداً سهلاً لقناصة الفساد في الأرض الذين يقطعون خط الرجعة على هؤلاء الشباب فلا يتوبون إلى ربهم ولا يرجعون عن غيهم، وما أخبار طائفة عبدة الشيطان التي ظهر لها فرع في مصر في فبراير سنة ١٩٩٧م عنا ببعيد، فهم يقيمون الحفلات الجنسية الصاخبة

---

(١) منهج العفة نقلا عن: تربية الأولاد في الإسلام، د/ عبد الله ناصح علوان.

ويتم توزيع المخدرات لهم مجاناً ؛ وذلك لاستقطاب المراهقين ، وخلال هذه الحفلات يتم تصوير الأعضاء الجدد تصويراً سينمائيا وفي أوضاع جنسية شاذة ، بعد ذلك يُطْلب من كل عضو الدخول في غرفة خاصة لتوقيع عقد مع الشيطان ، فإذا رفض استخدمت تلك الصور كأداة تهديد ضده ، وقد اجتاح غضب وسخط المصريين بعد أن كشفت أجهزة الأمن المصرية النقاب عن جماعة كافرة أطلقت على نفسها اسم (عبدة الشيطان) وتم القبض على ٧٨ رجلاً من أنصار هذه الجماعة ، في شهر فبراير من عام ٩٧ .

وقد أوردت أجهزة الأمن عنهم إنكار وجود الله ، والدعوة إلى عبادة الشيطان ، والترويج لتدنيس المقدسات الإسلامية ، وتمزيق المصاحف ، وإلى الشذوذ الجنسي فيما بينهم ، وتعاطي المخدرات ، وتلطيخ أجسامهم العارية بدماء الضحايا من الأبرياء الذين يذبحون على أيديهم ليشربوا دماءهم ، وانتهاك حرمات المقابر واستخراج الجثث والتمثيل بها ، ومن أبشع ما ذكر بشأنهم قيام شخص بخطف أمه والاعتداء عليها ، وتقديمها قرباناً للشيطان بعد أن اغتصبها باقي أفراد جماعته (عبدة الشيطان) بالتناوب .


حتى لا تضيع هويتنا
الفصل
الخامس

حتى لا تضيع هويتنا

عندما عقدت ندوة في تل أبيب أعلن رئيس وزراء إحدى الدول العربية ، محاولا إظهار اعتداله قائلاً: «إننا في بلدنا نفرق بين الدين والقومية ، ولا نقبل أن تكون قيادتنا السياسية مرتكزة على معتقداتنا الدينية» رد عليه اليهودي ديفيد فيثال بكل فخر وعزة للأسف قائلاً: «إنكم أحرار في الفصل بين الدين والدولة ، ولكننا في إسرائيل نرفض أن نقول إن اليهودية مجرد دين فقط» . وهذا واضح وضوح الشمس . فهذه (اللقيطة) ليس لها دستور كدساتير الدول الأخرى أو شعار ؛ لأنها لم تقم إلا على أساس الدين اليهودي ، بل وتحمل اسم نبي الله يعقوب (إسرائيل) ودستورها التوراة ، ويتمسك السياسيون وعامة الشعب بتعاليمها في السياسة والاجتماع وحياة الأفراد ، وقد أحيوا اللغة العبرية التي انقرضت منذ زمن لتكون لغتهم الخاصة ، بينما اللغة العربية التي تفوق كل تلك اللغات الفقيرة لا تجد لها ناصرا ولا مدافعا ، مع أنها لغة القرآن أفضل منهج لحياة البشر بلا منازع وعلى الإطلاق .

جاء في صحيفة (يديعوت أحرونوت) بتاريخ ١٨/ ٣/ ١٩٨٧ : «إن على وسائل إعلامنا ألا تنسى حقيقة مهمة هي جزء من إستراتيجية إسرائيل من حربها على العرب طوال ثلاثين عاماً ، وهي وجوب أن يبقى الإسلام بعيداً عن المعركة إلى الأبد ، ولهذا يجب ألا نغفل لحظة واحدة عن تنفيذ خطتنا من منع استيقاظ الروح الإسلامية بأي أسلوب ، ولو اقتضى الأمر الاستعانة بأصدقائنا لاستعمال العنف والبطش لإخماد أية بادرة ليقظة الروح الإسلامية في المنطقة المحيطة بنا» .

العقيدة هي المقصودة:

من الواضح أن معركة التحدي المعاصر والتي ساحتها الرئيسية (الهوية) ترمى إلى محاولة استئصال العقيدة الإسلامية ، أو على الأقل محاولة تشويهها ؛

لأنه أصبح واضحاً للعيان أثر العقيدة الإسلامية في استقامة الهوية والحفاظ عليها .

وقد عمل أعداء الإسلام على ضرورة أن يتم التحول وفق مفهوم التطهير التدريجي للهوية الإسلامية/ لمحاولة إخراجها من إسلاميتها وإحلال المضمون الغربي محلها ، ومن العجيب أن الثقافة الإسلامية نفسها قد تكون عاملاً مهماً في عملية التحويل ، يقول أحد المنصرين: «المسلمون في حاجة لأن يتم اللقاء بهم داخل إطار الإسلام» ، ويقول أيضاً: «من البديهي أن الناس يكونون أكثر رغبة في تقبل الإنجيل عندما يقدم إليهم بطريقة ملائمة غير غريبة عن ثقافتهم»[١] . وبهذا – ووفق اعتقادهم – ينخلع المسلم من هويته بهويته ذاتها ، ويتنصل من عبادته بعبادته نفسها ، ويتجرع الثقافة الغربية بأوانٍ إسلامية ، وسيعظم التأثير طبعاً إذا جاء بألسنة عربية أو كتب بأقلام عربية ، ولذا كان دأب الغرب في أن يتربى جيل من المثقفين في أحضانه ، ثم ينشرون ما تعلموه وسط أبناء قومهم بلسان عربي مبين . . .!

ووفق مفهوم التطهير التدريجي فسُيَقَّدم ويُسَوَّق شهر رمضان المبارك مثلا على أنه شهر المغفرة والرحمة ، دون أن يشعر الصائم بتناقض ذلك مع طوفان المسلسلات الدرامية الفاسدة التي تحاصر الصائم ليل نهار ، ولا حالة الاستنفار الرهيبة لتخزين الطعام وتحويله إلى مكب النهافات في نهاية اليوم ، ولا يجد الصائم - وفق هذا المفهوم المشوه والمدعوم من جهات مشبوهة ومصالح تجارية تسعى للكسب ولو على حساب القيم والأخلاق لمعنى الصيام - أي حرج في ارتياد الخيم الرمضانية وحرق صحته وتقواه وصيامه بتدخين الشيشة واستنفاذ أعظم ليالي العام بركة ومكانة عند الله في مجالس اللغو والنميمة والغيبة والنظر

(١) المسلم المتنصر وثقافته لـ (هارفي – كون) .

إلى ما لم يحله الله في صوم أو فطر ، ثم ينهي هذا الشهر الفضيل بارتكاب المحرمات على مختلف أنواعها في أيام العيد باعتبارها أيام فرح ، بحيث لم يعد قلبه أو ضميره يؤنبه على هذه المتواليات الهندسية من الذنوب والآثام .

هذا مثال بسيط والعهد به قريب على فنون تحطيم الهوية الإسلامية التي تنضج على نار هادئة وناعمة ، بحيث لن تبقى من هذه الهوية سوى الأشكال دون المضامين والشعارات دون الممارسات .

وهكذا وبكل خبث وبدلاً من الهجوم الواضح والتحول المفاجئ في قيم ومبادئ المسلم الذي ربما يأتي بنتيجة عكسية ويحدث صدمة لديه تزيده تمسكاً بدينه ، يأتي التحويل التدريجي الخبيث الذي يدس السم بجرعات محسوبة ، حتى يتقبلها الجسم ، ولا يعود يشعر بمذاقها المر ولا تأثيرها المدمر على روحه المخنوقة وعلى نفسيته المأزومة .

ومن أول لقاء جمع بين الفكر الإسلامي والغرب ولن ينتهي أبداً وقد تختلف أشكاله وآلياته ولكنها في النهاية تهدف إلى نفس الهدف الخبيث .

يقول أحد الكتاب الأمريكيين[1] : «من أراد أن يكون رجلاً ينبغي أن ينشق على السائد المألوف ، ومن أراد أن يجمع ثمر النخيل الخالد ينبغي ألا يعوقه ما يسميه الناس خيراً ، بل يجب عليه أن يكتشف إن كان ذلك خيراً حقاً ، لا شيء في النهاية مقدس سوى نزاهة عقلك» ا.هـ .

وأمثال هذا الكلام كثير ، مع أن هذه الأفكار نفسها هي التي جعلت الغرب في دوامة من القضايا الاجتماعية لا تنتهي ، وكثرت من أجل ذلك معدلات الجريمة والعنف والأمراض النفسية كالاكتئاب وزادت أيضاً معدلات الانتحار والإحصائيات تزداد يوماً بعد يوم .

---

(١) انظر هذه الأقوال في كتاب: (الإسلام في مواجهة التحديات) .

وهنا تكمن خطورة مثل هذه الأفكار ومن خلالها نعرف النوايا السيئة والضمائر الملتوية والحقد الدفين ، مع أننا نقول: إن صدور هذه الأفكار ليس غريباً منهم ، أما أن تصدر من أفواه تتكلم بالعربية وبأقلام عربية فهذا هو الأمر الغريب العجيب .

سر الصمود:

إن الإشكالية بين حضارة الإسلام وحضارة الغرب لا تنبع فقط من مجرد معطيات سياسية وتراكمات تاريخية ، بل المسألة تكمن في أن الحضارة الإسلامية قائمة على رؤية للعالم مناقضة للرؤية التي تأسست عليها الحضارات الأخرى ، وهذه الرؤية في ذاتها متعددة الجوانب والأشكال ؛ فمنها الجانب المادي ، ومنها الجانب الاجتماعي ، ومنها الجانب السياسي ، ولكل جانب من هذه الجوانب مرجعية في الإسلام ورؤية لا تتعارض مع الفطرة السليمة ولا تخالف قوانين الله الحكيمة ، وهذا هو سر الصمود .

بينما في الطرف الثاني تقف الاشتراكية والرأسمالية باعتبارهما نمطين مختلفين نبعا من خلفية ، واحدة وقد حاولتا إجبار الجماهير المسلمة على تغيير تراثها الثقافي التاريخي ، مستخدمة بذلك وسائل متعددة .

ومع ذلك فإن الهوية القوية التي رسختها الأصول الإسلامية أثبتت قدرتها على البقاء وعلى تحدي تلكم الصيغ الجديدة المفروضة قسراً ، الأمر الذي يؤكد تفوق الروح والجوهر الداخلي للنموذج الإسلامي على الأنماط والهياكل الاجتماعية الخارجية .

وهذا هو بالذات سر الصمود الذي أثار الفكر الغربي وحار فيه ساسة الغرب ، على الرغم من مكر الليل والنهار لتفكيك الأسرة ، ومحاولة إعادة تعريف الأسرة بحيث لا تعود بالضرورة تتكون من الأم والأب ، بالإضافة إلى

التنفير من الزواج المبكر الذي يحفظ للإنسان كيانه الاجتماعي واستقراره النفسي، ناهيك عن إجراءات تحديد النسل وسلب قوامة الرجال على النساء، وسلب ولاية الآباء على الأبناء، وتسليع المرأة والولوج بها في أسواق المتعة من أجل جلب المزيد من المال وتحقيق الإشباع الغريزي الحيواني الذي يزيد البشرية شقاءً وانحرافا ودمارا وانهيارا.

يقول جرونباوم: «إن الأمم تتألف وتتفكك والحضارات تزدهر وتندثر، لكن الإسلام بقي صامداً وقادراً على احتواء أهل الحضر وأهل المدر، مستوعباً بناة الحضارات داخله وأولئك الذين يدمرونها، فما هي إذن العوامل التي جمعتهم كأمة واحدة؟ وما الذي جعلهم يتجهون بوعي أو بدون وعي صوب المحافظة على خصوصيات شخصيتهم المنفردة في الوقت الذي راحوا يوطدون فيه علاقتهم مع دين إسلامي عالمي ويعتبرونه أثمن ممتلكاتهم الروحية» ا. هـ.

فهل هذا الصمود يعبر عن نزعة جامحة لتبني قيم مغرقة في القدم والنقاء فحسب كما يزعم (فوكوياما) المفكر الأمريكي؟ أم هي تعبير عن حيوية موقوتة سطحية مرهونة بالأموال القادمة من دول النفط كما يقول (دانيال بابيس) المفكر اليهودي؟

الإسلام والآخر:

المسلم لا يعيش في عزلة عن عالمه، بل هو شخص متفاعل مع ذلك العالم وليس شخصاً عادياً، بل مؤثر وفاعل، تعلم من نبيه ﷺ أن «**الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها**»[1] فلم يقف المسلم عند حدود نفسه، بل تعداها إلى حيث توجد الحكمة والمنفعة السوية الراشدة، فطالب الحق على

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٨٩)، وضعفه الألباني.

يقين من أن الحق قد ينطق به غير المؤمنين ويؤخذ عنهم، بغض النظر عمن قاله، فالعبرة بما قيل، لا بمن قال.

وقد نقل القرآن عن امرأة العزيز قولها حين حقق معها الملك في قضية يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] حتى إن بعض المفسرين استكثروا ذلك عليها وقالوا: إنه من كلام يوسف، والسياق قاطع بأنه من كلام المرأة، كما قال ابن كثير في تفسيره[2].

وإن كان مطلوباً للمسلم أن يكون على هذا الوعي، فمطلوب منه كذلك أن يكون على وعي بما ينقل وبما يأخذ، والتاريخ يحدثنا عن بدايات التصادم الفكري بين الإسلام والحضارة الغربية في أيام العباسيين بالذات عندما استورد بعض خلفاء بني العباس كتب اليونان القديمة التي تتكلم عن الفلسفة والمملوءة بالأفكار المعقدة التي لا تتلاءم مع بساطة الفكرة الإسلامية ونقائها وفطرتها.

ويحكي التاريخ أن المأمون استأذن ملك الروم في البحث عن العلوم التي في خزانة بلاده، وعلى جانب آخر كان من شروط صلح الخليفة المأمون مع ميخائيل الثالث الإمبراطور البيزنطي أن يعطيه إحدى مكتبات الأستانة، وتم ذلك بالفعل. عند ذلك ظهر الفكر الفلسفي، وظهرت أفكار اليونان والرومان وأفكار الفرس على سطح الثقافة الإسلامية، وفتن بها الكثيرون، حتى وضع البعض كتباً تحاول التوفيق بين هذه الثقافة الغريبة عن الفكرة الإسلامية السوية وبين ما جاء به الإسلام، بصرف النظر عن نجاح تلك المحاولة أو فشلها.

وكانت النتيجة أن انشغل الناس بهذه الأفكار فترة من الزمان شوشت على عقول الكثيرين، وحار الناس فيها بين مؤيد لكل ما فيها، حتى صارت كل

---

(١) يوسف: ٥٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير عند تفسير الآية.

مفردات كلامه من هذه الأفكار واستمات في الدفاع عنها، بين معارض لها ولكل حرف منها، نابذاً إياها من ألفها إلى يائها، فكان من آثار ذلك أن تأخر الفكر الإسلامي بسبب انشغال العلماء بالردود على الملاحدة والزنادقة وأصحاب الأفكار المنحرفة، وتخليص القيم والمفاهيم الإسلامية مما علق بها من تشوهات نتيجة للخلط الذي صار بين القيم الإسلامية السمحة والفلسفة اليونانية بما فيها من أوهام وتخرصات.

فهل يمكن أن نعد ذلك حلقة من حلقات العرقلة التي مني بها الفكر الإسلامي؟ أم نحسب أن ذلك شيء طبيعي ومنطقي لحضارة علمية إسلامية وليدة؟ وثمة تساؤل آخر يفرض نفسه وهو: إلى أي مرجع كانت تستند هوية الأمة الإسلامية في هذه الفترة؟

الواضح أنها كانت ترجع إلى الإسلام، فالفتوحات الإسلامية كانت مستمرة وعلى نطاق واسع باسم الإسلام وولاء الأمة، ومرجعيتها العليا كانت للإسلام، وتوقيرها واحترامها ومساندتها كانت للعلماء العاملين الحاملين لواء الفكر الإسلامي الصحيح.

ولا أدل في ذلك من وقوف الأمة كلها خلف إمام أهل السنة الإمام أحمد ابن حنبل في فتنة خلق القرآن، وهذا يجعلنا متفائلين ولا يصدنا عن اتباع الحق، فنحن على يقين من أن أبواباً واسعة إعلامية وسياسية قد تفتح لفئة معينة في وقت لا تفتح فيه للعلماء العاملين المصلحين الذين يريدون للناس الصلاح لا الفساد، لكن هذا لا يعبر أبداً عن الأرضية العامة والقاعدة العريضة من جموع الأمة التي تشرئب أعناقها للفكر الإسلامي الصحيح وميزان الإسلام المعتدل.

وتحت عنوان: (التنوير وغياب الهوية) كتب فاروق جويدة في جريدة الأهرام بتاريخ ٣٠ يوليو سنة ٢٠٠٠م قال: «في قضية التنوير يجب أن نفرق بين ثلاثة مواقف على المستوى الفكري والثقافي، هناك فرق بين التفاعل الثقافي والنقل الثقافي والغزو الثقافي:

إن التفاعل الثقافي حوار بين ثقافتين على أرض واحدة، وأهم ما في هذا الحوار أن يكون متكافئاً من حيث التأثير والتأثر، بحيث لا يستبيح أحدهما الآخر أو يجور عليه.

أما النقل الثقافي فهو أن أجلس أمام الآخر لكي يلقني ما يريد، ابتداءً بالسياسة، وانتهاء بالفكر، مروراً على النقل الأعمى لكل مظاهر السلوك دون وعي أو اختيار أو تفكير.

أما الغزو الثقافي فهو أن يكون الهدف الوحيد للرسالة الثقافية هدفاً سياسياً صريحاً وواضحاً ولا خلاف عليه، حتى وإن تخفى في ثياب ثقافية مبهرة.

والمشكلة الأساسية الآن أن هذه المواقف الثلاثة تتداخل أحياناً في بعضها بحيث يصعب الفصل بينها، ولكن في ظل ارتفاع درجة الوعي الفكري والسياسي لا ينبغي أبداً أن تغيب عنا هذه الوجوه؛ لأن المسافة بينها بعيدة جداً وإن كانت أحياناً تبدو قريبة» ا.هـ.

وكان هذا الكلام تعليقاً على نشر وزارة الثقافة المصرية لرواية (وليمة لأعشاب البحر) التي أثارت ضجة وزوبعة لتعديها على ثوابت الإسلام.

مقومات الحفاظ على الهوية:

لقد كان من أهم عواصم الهوية الإسلامية من الانحراف – في القرون الأولى– أنها كانت على قواعد عقيدة ربانية موحاة من الله تعالى بكل أركانها وعناصرها ومقوماتها وخصائصها، يقول سيد قطب عن هذا المصدر الرباني:

«هو الذي ميز هذه العقيدة وما انبثق عنها من تصورات وأفكار ، هو الذي ميز هذه العقيدة السليمة من المعتقدات الوثنية التي تنشئها المشاعر والأخيلة والأوهام والتصورات البشرية المختلفة ومنحها خصائص لم تتوفر في عقيدة غيرها ، منها الإحاطة والشمول والتوازن . . . وتحديد العلاقة بين الله تعالى والكون والإنسان»(١) .

أما عقائد أهل الكتاب فقد تعرضت – لاعتمادها على مصادر أخرى غير الوحي – لكثير من الانحرافات والاضطرابات والتي غيرت طبيعتها الربانية ، وهذه المصادر البشرية نشأ بعضها عن تصورات فلسفية مصدرها الوحيد الفكر البشري بكل ما يتسم من محدودية وقصور ، وغير خفي عن المثقف العربي أن الإسلام حين بدأ يتعامل مع الفلسفة في هذا المجال انفتحت عليه أبواب من الشرور والانحرافات والخلط بين قضايا الغيب والشهادة بشكل لا تزال آثاره الضارة ظاهرة واضحة في الواقع الإسلامي وفي العقل المسلم إلى يومنا هذا .

هذه العقيدة الربانية كانت مصدراً رئيساً في بناء الهوية الإسلامية فنأت بها عن الانحراف والضلال ، ومنحتها قوة وصلابة بقدر قوة وصلابة العقيدة ، وهذه حقيقة يؤكدها القرآن في مواطن عدة ويقص ما جرى في حياة الأمم الماضية والقرون الغابرة من خير وشر أو سعادة أو شقاء نتيجة لموقف هذه الأمم من العقيدة ، مقرراً أن مصير هذه الأمم التي بعث فيها الأنبياء بعقيدة التوحيد كان متعلقاً بمدى الاستجابة لها ، والعمل بمقتضاها ، فقامت أمم وثبتت ، وولت أمم وما بقي منها سوى آثارها التي تقول: كانت هنا أمة ثم ذهبت مع من ذهب .

---

(١) انظر: خصائص التصور الإسلامي .

والهوية الإسلامية بارتكازها على العقيدة ليست من وضع بشر منساق بطبيعته البشرية إلى عوامل الضعف والنقص، بل إن انبثاقها عن المنهج الإلهي يعطيها مطلق الثقة الكاملة بها ويجعلها دائماً وأبداً موضع الإيمان والتسليم.

والحفاظ على الهوية يأخذ أبعاداً متنوعة:

أولها: تعزيز الهوية بأقوى عناصرها، وهو العودة إلى الإسلام، وتربية الأمة عليه بعقيدته القائمة على توحيد الله سبحانه، والتي تجعل المسلم في عزة معنوية عالية ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]، وبشريعته السمحة وأخلاقه وقيمه الروحية وتقوية الصلة بالله - سبحانه وتعالى - واليقين بنصره وتمكينه للمؤمنين إذا استجابوا لربهم وقاموا بأسباب النصر، فالهزيمة الحقيقية هي الهزيمة النفسية من الداخل، حيث يتشرب المنهزم كل ما يأتيه من المنتصر، أما إذا عززت الهوية ولم تستسلم من الداخل فإنها تستعصي ولا تقبل الذوبان.

ثانيها: العناية باللغة العربية في وسائل الإعلام، ومناهج التعليم، وتسهيل تدريسها وتحبيبها للطلاب، ومن العناية باللغة العربية: تفعيل التعريب، والترجمة، والتقليص من التعلق باللغات الأخرى إلا في حدود الحاجة اللازمة.

ثالثها: إبراز إيجابيات الإسلام وعالميته، وعدالته، وحضارته، وثقافته، وتاريخه للمسلمين قبل غيرهم، ليستلهموا أمجادهم، ويعتزوا بهويتهم.

«إن الرد الحقيقي على الطاغوت الحالي الذي يسمى العولمة، هو إبراز النموذج الصحيح الذي يجب أن يكون عليه الإنسان، لكي يصدق الناس - في عالم الواقع- أنه يمكن أن يتقدم الإنسان علمياً وتكنولوجياً واقتصادياً وحربياً وسياسياً وهو محافظ على إنسانيته، محافظ على نظافته، مترفع عن الدنايا،

---

(١) المنافقون: ٨.

متطهر من الرجس، قائم بالقسط، معتدل الميزان» ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[١].

إن العولمة يجب أن تكون - من أجل الإنسان - في العلوم والتقنيات والتعامل والتعاون الذي يحترم فيه البشر بعضهم، أما الديانات والثقافات والتقاليد فهي حضارات الشعوب ملك لهم، تشكل تنوعاً غير ممل بشرط ألا يتعدى أحد على الآخر.

رابعها: العمل على نهوض الأمة في شتى الميادين دينياً وثقافياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً وتقنياً، ومحاربة أسباب التخلف والفساد، وأن نغير ما بأنفسنا من تخلف وتقاعس، فإن من سنن الله - سبحانه وتعالى - التغيير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢]، وقد نبه القرآن الكريم على أهمية العمل ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٣].

خامسها: مواجهة مساوئ العولمة بالتعليم والتدريب والتثقيف والتحصين ورفع الكفاءة وزيادة الإنتاج ومحاربة الجهل وخفض معدلات الأمية المرتفعة عند المسلمين.

سادسها: تقليص الخلافات بين المسلمين من حكومات وشعوب وجماعات بالاعتصام بكتاب الله عز وجل: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[٤] ثم التعامل معها إن وجدت بثقافة إيجابية فاعلة ناصحة، حتى لا يجد الأعداء ثغرة ينفذون من خلالها.

---

(١) الحديد: ٢٥.
(٢) الرعد: ١١.
(٣) التوبة: ١٠٥.
(٤) آل عمران: ١٠٣.

سابعها: ضمان الحرية الثقافية وتدعيمها ، حيث إن حرية الثقافة وإن كانت تنبع من العدالة في توزيع الإمكانات والإبداعات الإنسانية على الأفراد ، فإنها في الوقت نفسه عامل أساسي في إغناء الحياة الثقافية وزيادة عطائها . ولكن لا يجوز فهم الحرية على أنها فتح للباب أمام كل تعبير ، وقبول كل فكر ، ولكن الحرية المقصودة هي الحرية المنضبطة بضوابط .

ثامنها: أن نتعرف على العولمة الثقافية ، والكشف على مواطن القوة والضعف فيها ، ودراسة سلبياتها وإيجابياتها برؤية إسلامية متفتحة ، غايتها البحث والدراسة العلمية ، وإدراك وفهم التناقضات التي تكتنف فكرة العولمة وكشف الزيف الذي تتستر قواها خلفه .

ولكن لابد أن يواكب عملية النقد الكلية للحضارة الغربية ، عملية أخرى هي التخلص من الإحساس بمركزية الغرب ، ونزع صفة العالمية والعلمية والمطلقية عن حضارته ، وتوضيح أن كثيراً من القوانين العلمية التي يدافع عنها دعاة التغريب باعتبارها تصلح لكل زمان ومكان هي في واقع الأمر نتيجة تطور تاريخي وحضاري محدد وثمرة تضافر ظروف فريدة في لحظة فريدة ، فإذا كان الغرب قد تحول إلى مطلق ، فإنه يجب أن يستعيد نسبيته ، وإذا كان يشغل المركز فإنه يجب أن يصبح مرة أخرى عنصراً واحداً ضمن عناصر أخرى تكوّن عالم الإنسان .

تاسعها: التنسيق والتعاون بصورة متكاملة في وزارات: التربية والتعليم ، والتعليم العالي ، والثقافة والإعلام ، والأوقاف والشئون الإسلامية ، والعدل ، للمحافظة على الهوية الإسلامية من أي مؤثرات سلبية عليها .

عاشرها: أن تقوم وسائل الإعلام بواجباتها في الحفاظ على الهوية ودعمها ، فضلاً عن استيراد البرامج التي تهدم الهوية دون نظر أو تمحيص ، كما أن على

الدول والعلماء وقادة الرأي ورجال الأعمال الضغط على وسائل الإعلام الخاصة - كل بما يستطيع - لمراعاة هوية الأمة وقيمها .

حادي عشر: أن يقوم التعليم بتعزيز الهوية وكشف العولمة ومضارها ، ويتحتم على الإعلام التربوي استخدام كافة الوسائل والأساليب والطرق المتاحة كي ينجح في تأصيل القيم والمهارات والمعارف والمعلومات في مؤسسات المجتمع ومنظماته ، وبما أن البث المباشر يهدد هويتنا بتنشئة صغارنا على قيم وعادات تخالف فكر أمتهم وثقافتها ، فإن التربويين والإعلاميين مطالبون بتحصين الأطفال ضد ثقافة الاستهلاك والتغريب ، ونحن نريد من الإعلام التربوي أن يتحدث عن المسائل التربوية المهمة واللصيقة بحياة المجتمع ، كما نريد منه تقديم مادة غنية ثرية تحدث أثراً إيجابياً ، وتترك صدى قوياً في نفس الصغير والتلميذ والطالب والشاب ، وتساعد على اكتشاف ما يملك من طاقات ومهارات .

ثاني عشر: تنشيط التفاعل والحوار الثقافي العربي مع ثقافات الأمم الأخرى . وأن نثري ثقافتنا العربية الإسلامية بما نراه ينفعنا ولا يضرنا من الثقافات الكونية الأخرى ، وفي الوقت نفسه نعرف تلك الثقافات العالمية بما عندنا من تراث وتقاليد وقيم اجتماعية عريقة .

وفي دراسة علمية عن العولمة في ضوء العقيدة الإسلامية كان من التوصيات:

- ضرورة الانفتاح على الآخرين والاستفادة من فرص العولمة والتقدم العلمي والتقني ، وتطوير ثقافتنا وتحسين أوضاعنا .

- أن من أهم التحصينات الثقافية لأمتنا قيم الانفتاح والتسامح والعدل والشورى .

- تطوير مشروع الإسلام الحضاري المتكامل .
- إعادة بناء الوحدة الإسلامية على أساس شرع الله تعالى .
- إنشاء السوق الإسلامية المشتركة .
- إعادة بناء وصياغة النظم التعليمية والتعاون في التعليم .
- الاهتمام بالإعلام .

فمشكورة تلك الجهود التي استنكرت بعض البرامج السفيهة وذات المحتوى التافه والتي تعرضها بعض الفضائيات العربية للأسف ، مثل البيان الذي صدر عن بعض الأفاضل من دكاترة كلية الشريعة بجامعة الكويت والفتوى التي أطلقها الشيخ الدكتور عجيل النشمي جزاه الله خيراً ، وهو واجب مطلوب من العلماء ، بحيث لا يخدع الناس بأمثال تلك البرامج التي تسوق الاختلاط والميوعة في أوساط شبابنا وفتياتنا ؛ وخصوصاً أن الفضائيات أصبحت الوسيلة المفضلة للتسلية لدى الجموع من الشعوب العربية وخاصة فئة المراهقين ، وهي من فئة شديدة التأثر بالرسالة الإعلامية ، وهي كقطعة الإسفنج الناشفة التي تتشرب بمعدلات عالية كل ما يعرض عليها ، دون أن تمتلك بالضرورة أدوات النقد والقبول والرفض ، وتمييز الغث من السمين في كل ما يعرض .

فنقول: نعم تلك الجهود لا شك أنها مشكورة ، لكنها للأسف ليست هي الجهود الوحيدة المطلوبة ، وليست كذلك هي التي ينبغي توجيه كل الاهتمام والجهود لها ، لأننا إن اكتفينا برفع سلاح الأقطار وإصدار فتاوى التحريم ، فستتكرر هذه المشكلة في كل مفكر جديد يصلنا عبر مختلف أدوات التوجيه المختلفة ، وبالتالي تتشتت جهود المخلصين والمصلحين في ملاحقة تلك المنكرات والانشغال بها ، عن النظر إلى أصل الموضوع ؛ لأن فرعيات الموضوع وآثاره ستستهلك الجهد الأكبر من الدعاة والعلماء ، وساعتها سيجدون أن

المبادئ والقيم الأخلاقية والسلوك القويم ستضيع وسط دوامات الإغراق في التفاصيل والتجزؤ، وستتحول إلى موجات من الأقطار تتجدد بشكل دوري مع كل مشروع علماني يستهدف الهوية الإسلامية، وساعتها سيكون برنامج الحركة الإسلامية منحصراً في دفع الشبهات ومنكرات المخطط بعد أن كان العكس هو الذي يحدث، حيث كان برنامج التيار العلماني الذي افتقد إلى الجماهيرية منحصراً فقط في نقد برنامج التيار الإسلامي.

ونحن هنا لا نقلل من أهمية توعية الناس بالمنكرات التي تحاول أن تصد طريقهم في الوصول إلى الله، بل إن مقارعة هذا الباطل بالحكمة والكلمة والنصيحة والموعظة الحسنة من أهم خصائص هذا الدين، ولكن يجب ألا ينشغل المصلحون بهذا الموضوع عن موضوع تربية الأمة على القيم والمبادئ الأخلاقية الرفيعة والحفاظ على الهوية الحضارية الإسلامية ومكونات المجتمع المسلم المحافظ. فكلما كان جدار القيم سميكاً وعالياً لدى الفرد المسلم ضعف لصوص الأخلاق عن التسلل إلى عقل وقلب المجتمع المسلم وبيع سلعهم المنحلة الساقطة، وكلما رفعت الفضائيات المشبوهة صوتها وقالت: ﴿أَلَمِ الرَّحْمَٰنِ﴾ رد عليها ضمير المجتمع المسلم وقال لها: ﴿الْعَظِيمِ﴾.

ثالث عشر: تشجيع المؤسسات الدعوية داخل البلاد الإسلامية وخارجها على ممارسة عملها ودعمها بكل طريق مادياً ومعنوياً وتوجيهياً، وعدم السقوط في فخ الأعداء بتصيد أخطائها وتشويه سمعتها عند حدوث خطأ ما، وإنما بالنصيحة الإيجابية الفاعلة.

وما نراه بفضل الله تعالى من مؤسسات إسلامية ودعوية مساعدة للمسلمين للحفاظ على هويتهم لاسيما خارج الدول الإسلامية، سواء كانت مراكز أو مدارس إسلامية أو وسائل إعلامية، كمواقع الإنترنت أو شركات الإنتاج أو

إذاعات القرآن الكريم ، أو مكاتب دعوة الجاليات التي تتميز بها المملكة العربية السعودية ، وأثمرت آلاف المسلمين الجدد كل عام ، أو مدارس تحفيظ القرآن الكريم ، إلى غير ذلك من هذه المؤسسات ، لتسهم ضد تأثيرات العولمة على الهوية .

لذا لا نعجب من أن تكون هذه المؤسسات الخيرية أحد استهدافات العولمة ، ومحاولة لرميها بالإرهاب بكل طريق بمحاربة أنشطتها وتشويه سمعتها وتجفيف مواردها .

هذه بعض الأفكار وغيرها كثير في سبيل مواجهة الحرب الضروس لطمس معالم هويتنا الإسلامية .

الخاتمة

الأمم لا تحيا بدون هوية ؛ إذ الهوية بالنسبة للأمة بمثابة التي تميزها عن غيرها ، ولا يمكن لأمة تريد لنفسها البقاء والتميز أن تتخلى عن هويتها .

وهوية أية أمة هي صفاتها التي تميزها عن باقي الأمم لتعبر عن شخصيتها الحضارية ، والهوية دائما جماع ثلاثة عناصر: العقيدة التي توفر رؤية الوجود ، واللسان الذي يجري التعبير به ، والتراث الثقافي الطويل .

وقد أدرك الأعداء أن استعادة المسلمين لهويتهم الإسلامية وانتمائهم القرآني هو أكبر الأخطار ، ومن ثم فإن كل قوى التغريب والغزو الثقافي ستطلق في هذا الاتجاه ، ويقوم الاستشراق والتنصير بدور كبير .

والغرب لا يسعى لنشر قيمه الاجتماعية فحسب ، رغم عدم الاقتناع الواسع بها كقيم ، بل إنه يفرضها عبر المؤتمرات الدولية والضغط على الدول التي لا تستجيب ، حيث توالت مؤتمرات المنظمات الدولية بهذا الخصوص ، مثل مؤتمر نيروبي عام ١٩٨٥م ، ومؤتمر القاهرة عام ١٩٩٤م ، ومؤتمر بكين عام ١٩٩٥م ، ومؤتمر اسطنبول عام ١٩٩٦م ، ثم مؤتمر نيويورك عام ١٩٩٩م ، ثم مؤتمر بكين ، ثم نيويورك أيضا عام ٢٠٠٠م .

ومحور هذه المؤتمرات يدور حول الأسرة والمرأة والطفل ، مركزا على الحقوق الجنسية ، والحق في الإنجاب والإجهاض ، والشذوذ ، وقضية المساواة بين الرجال والنساء ، والمساواة في الميراث . . .إلخ .

سعى الأعداء لطمس هويتنا الإسلامية واتخذوا مختلف الأساليب والخطط لبلوغ غايتهم ، وكان من نماذج كيدهم: الحركات الباطنية التي رأت خير وسيلة للقضاء على الإسلام هو تشويهه في نفوس أتباعه تحت ستار من المكر والخداع .

وبالرغم من خطورة هذه الحركات إلا أن يقظة المجتمع الإسلامي حكاما ومحكومين لم تمكنها من الوصول إلى هدفها الخبيث .

ثم تعرض العالم الإسلامي على مدى قرون متوالية لهجمة صليبية وثنية شرسة ، تدفقت إلى عالمنا الإسلامي متعاونة متعاضدة من الشمال عن طريق بيزنطة ، ومن الشرق بالغزو التتري المغولي الذي تآمر مع الصليبيين لمدة (١٩٠عاما) من سنة ٦١٦ – ٨٠٧هـ ، والتي كان أقواها حملة جنكيزخان ، وهولاكو ، وتيمورلنك ، ومن الغرب عن طريق الأندلس بغزو الفرنجة والإسبان .

وقد كان الغرض الأساسي لهذه الهجمة هو القضاء والمحو التام لمعالم الإسلام ، ولقد تكشفت الأحداث والوقائع على مدى ترصد ومراقبة القوى المعادية لأحوال العالم الإسلامي ، حتى إذا تأكدوا من حدوث أمرين بدؤوا في هجومهم:

الأول: ضعف الجبهة الداخلية وتفككها .

والثاني: وجود تناقض بين قيم الإسلام وأعمال المسلمين وأخلاقهم ؛ إذ إن التوافق بين قيم الإسلام وأخلاق المسلمين من أقوى الدلالات على القوة المنبعثة من قوة العقيدة والإيمان .

وأصبح هجوم التتار على بغداد أولا ، ثم إسلامهم وحملهم راية الإسلام ثانيا من أقوى الأمثلة على قدرة الهوية الإسلامية على إخضاع الهويات الأخرى وصهرها لها ، حتى وإن كان المسلمون في حالة ضعف وانهزام .

وكان لظهور المماليك والعثمانيين وحملهم راية الإسلام أعظم الأثر في كسر الغرور الصليبي .

وأدرك الأعداء أنهم لن يبقوا في بلادنا أبد الدهر مهما تغلبوا فعملوا على تسليم مقاليد الحكم في هذه البلاد الإسلامية لشخصيات موالية لهم من أبناء هذه البلاد .

وكانت خطة الغزو الفكري والتغريب أقوى أثرا على الهوية الإسلامية من الهجمات الشرسة المدججة بالسلاح ، فحين تم التمكين لهذه الشخصيات من قيادة البلاد الإسلامية قاموا بالنيابة عن أعدائهم في القضاء على الهوية الإسلامية تحت مسميات خادعة مثل: القضاء على الإرهاب ، والتخلص من الرجعية ، ومحاربة الجهود . . .إلخ .

وكان من الواضح في سر الصمود أن الإشكالية بين حضارة الإسلام وحضارة الغرب لا تنبع فقط من مجرد معطيات سياسية وتراكمات تاريخية ، بل المسألة تكمن في أن الحضارة الإسلامية قائمة على رؤية للعالم مناقضة للرؤية التي تأسست عليها الحضارات الأخرى ، وهذه الرؤية في ذاتها متعددة الجوانب والأشكال: فمنها الجانب المادي ، ومنها الجانب الاجتماعي ، ومنها الجانب السياسي ، ولكل جانب من هذه الجوانب مرجعية في الإسلام ، ورؤية لا تتعارض مع الفطرة السليمة ، ولا تخالف قوانين الله الحكيمة .

والمسلم مطالب بأن يكون على وعى بما يخططه العدو ، ومطالب بأن يكون له قدرة على الاستمساك بهويته فهي لغة الحياة .

وقد حاولنا في هذا الكتاب أن نستجلى الأمرين معاً ، ونرجو أن نكون قد وفقنا إلى هذا الهدف .

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات

ثبت بأهم المراجع

- التعريفات: الشريف الجرجاني ، دار عالم الكتب – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .

- مخاطر العولمة على الهوية الثقافية: د/ محمد عمارة ، دار نهضة مصر ، ط١ ، ١٩٩٩م .

- صدام الحضارات – إعادة صنع النظام العالمي: صمويل هنتنجتون ، ترجمة: طلعت الشايب ، ط٢ ، ١٩٩٩م .

- حتى لا تضيع الهوية الإسلامية والانتماء القرآني ، أنور الجندي ، دار الاعتصام ، سلسلة الرسائل الجامعة ، د.ت .

- وثيقة برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية المنعقد بالقاهرة ٥-١٥/ ٩/ ١٩٩٤م . الترجمة العربية الرسمية .

- تاريخ المذاهب الإسلامية ، الشيخ محمد أبو زهرة ، ص٣٥ ، ٣٦ ، طبعة دار الفكر العربي .

- أخطاء المنهج الغربي الوافد: أ/ أنور الجندي ، طبعة دار الكتاب اللبناني- بيروت .

- العواصم من القواصم: الإمام أبو بكر بن العربي المالكي ، تحقيق محب الدين الخطيب ، مكتبة السنة ، الطبعة السادسة ١٤١٢هـ .

- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، محمد الغزالي ، مطبعة وهبة ١٩٩٠م .

- الإسلام قوة الغد العالمية ، باول شمتز ، نقله إلى العربية د/ محمد شامة ، مكتبة وهبة .

- فجر الإسلام: أحمد أمين ، مكتبة الأسرة .

- ضحى الإسلام: أحمد أمين ، مكتبة الأسرة
- التهذيب: للأزهري .
- معجم الألفاظ الفارسية ، أدي شير .
- الاتجاهات النقدية عند شراح ديوان المتنبي القدماء: د/ عدنان عبيدات .
- التبادل الثقافي: رياض عبد الحميد مراد .
- الفن في النثر العربي: د/ شوقي ضيف .
- البيان والتبيين: الجاحظ .
- مجلة التراث العربي – مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب – دمشق .
- الأغاني: الأصفهاني .
- فقه اللغة: الثعالبي .
- دائرة المعارف البريطانية .
- الفصل في الملل والنحل: ابن حزم الأندلسي .
- مقدمة ابن خلدون .
- وفيات الأعيان .
- النجوم الزاهرة .
- الإسلام وإيران .
- لغتنا والحياة – بنت الشاطئ .
- العقد الفريد: ابن عبد ربه .
- زهر الآداب .
- مروج الذهب: المسعودي .
- إحياء علوم الدين – الغزالي .

- الحيوان: للجاحظ .
- الاستشراق: د/ محمود زقزوق ، دار المعارف سنة ١٩٩٧م .
- آثار الفكر الاستشراقي: د/ محمد خليفة حسن ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ط١ ، ١٩٩٩٧م .
- الحضارة في الميزان: أرنولد توينبي .
- تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي: د/ ناجي عبد الجبار ، دار الجاحظ – بغداد ١٩٨١م .
- الاستشراق بين الافتعالية والموضوعية: د/ قاسم السامرائي .
- نظرات في الثقافة الإسلامية: مجموعة مؤلفين – دار الفرقان ، ط٦ ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م .
- المستشرقون بين الإنصاف والعصبية ، محمد علوي مالكي ، مطابع سحر- جدة .
- مناهج المستشرقين: عبد القهار العاني ، وسعدون الساموك – وزارة التعليم العالي – بغداد .
- الاستشراق: إدوارد سعيد .
- الاستشراق وجه الاستعمار الفكري: د/ عبد المتعال الجبري ، مكتبة وهبة ، ط١ ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، مكتبة وهبة ، ط١٣ ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
- المستشرقون ، نجيب الحقيقي ، دار المعارف ، ط٤ .
- الغارة على العالم الإسلامي ، آل شاتليه ، ترجمة محب الدين الخطيب ، ومساعد اليافي ، المطبعة السلفية بالقاهرة ، ط٤ ، ١٣٩٨هـ .

- مجلة الإصلاح عدد ٣٤ ، صفر ١٤٠١هـ .

- العالم الإسلامي والمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر الهجري ، فتحي يكن ، مؤسسة الرسالة ، ط١١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

- مؤلفات في الميزان: أ/ أنور الجندي ، ملحق مجلة الإسلام عدد (٥) للسنة الحادية عشرة .

- تحت راية القرآن للرافعي ، الصحوة للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤١٢هـ / ٢٠٠٨م .

- التبشير والاستعمار: مصطفي الخالدي وعمر فروخ ، المكتبة العصرية – لبنان .

- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض ، ط٢ ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

- الاتجاهات الفكرية المعاصرة: د/ علي جريشة ، ط/ دار الوفاء ١٩٩٠م .

- حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر: أحمد عبد الوهاب ، مكتبة وهبة ، ط١ ، ١٩٨١م .

- معركة التبشير والإسلام ، د/ عبد الجليل شلبي ، مؤسسة الخليج العربي ، ط١ ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

- مواجهة التبشير للنصرانية بين صفوف الطلبة المسلمين ، د/ فاروق مساهل ، مجلة الأمة عدد (٤٦) ، السنة الرابعة ، شوال ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

- جذور البلاء: عبد الله التل ، ط٣ ، المكتب الإسلامي ١٤٠٨هـ .

- تطور الفكر السياسي في مصر خلال القرن التاسع عشر: عبد الجواد ياسين ، ط/ المختارة – حماه .

- الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، القسم الأول: إعداد د/ علي عبد الحليم محمود ، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

- الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها: د/ عبد العزيز الشناوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط١ ، ١٩٨٤م .

- تاريخ الإسلام: أ/ أنور الجندي ، دار الأنصار .

- فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام: أ/ صالح بن عبد الله العبود ، دار/ طيبة الرياض/ ط ، ١٩٨٢م .

- الأخطاء والشبهات: أ/ أنور الجندي .

- حاضر العالم الإسلامي: شكيب أرسلان .

- حقيقة القومية العربية: محمد الغزالي ، مكتبة دار العروبة .

- الصحافة الإسلامية في مصر بين عبد الناصر والسادات: محمد منصور هيبة ، دار الوفاء – ١٩٩٠ – ١٤١٠هـ .

- يقظة الفكر العربي: أ/ أنور الجندي .

- المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية ، طارق البشري ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٠م .

- الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين في مصر: عبد القادر عودة ، دار الكتب السلفية بالقاهرة – ١٩٨٦م .

- جريدة الشعب ٢٦/ ١٢/ ١٩٩٧م .

- الأوقاف السياسية في مصر: د/ إبراهيم غانم ، دار الشروق – القاهرة .

- موقع إسلام أون لاين .

- سلامة موسى وعصر القلق: فتحي خليل .

- الغزو الفكري: محمد جلال كشك .
- الفكر العربي في عصر النهضة .
- المسلم المنتصر وثقافته: هارفي – كون .
- الإسلام والعولمة .
- حتى لا يتناثر العقد: خالد عبد الرحمن الشايع .
- جريدة الشرق الأوسط .
- مدارج السالكين: ابن القيم .
- العبودية: لابن تيمية ، تحقيق: بشير العون .
- مفاهيم ينبغي أن تصحح: أ/ محمد قطب ، دار الشروق ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .
- العفة ومنهج الاستعفاف ، أ/ يحيى العقيلي ، مؤسسة شروق .
- خصائص التصور الإسلامي: أ/ سيد قطب .

فهرس الموضوعات

هذا الكتاب

يؤكد على أن الأمم لا تحيا بدون هوية ، وهوية أية أمة هي صفاتها التي تميزها عن باقي الأمم لتعبر عن شخصيتها الحضارية ، والأمم التي تريد أن تبقى هي التي تحافظ على هويتها ، فالهوية بمثابة العقل الجمعي الذي يعرف الأمة انتماءها .

وقصدنا في هذا الكتاب أن نتعرف على مظاهر التأثر بالثقافات الوافدة عليها من : الفارسية واليونانية والهندية وأثرها في الثقافة والفكر ، وفي السياسة والحكم ، وفي الأخلاق والآداب ، وفي التنظيم والإدارة ، واللغة والأدب.

كما تحدث عن الثلاثي النكد وأثره على الهوية الإسلامية: الاستشراق - التبشير - الاستعمار الفرنسي والإنجليزي ، وأثرهما في طمس الهوية الإسلامية.

وتحدث عن الحصاد المر لهذا الثلاثي في المجال السياسي من حيث سقوط الخلافة ، وإحياء القوميات ، وسيادة القوانين الوضعية ، وإقصاء الشريعة ، وتهميش دور الأزهر.

وذكر صورا حياتية لضياع الهوية الإسلامية في الإعلام ، وفي الحجاب ، وفي العبادة والأخلاق ، كما ذكر المقومات الأساسية للحفاظ على الهوية الإسلامية.

المؤلف

مؤسسة السماحة للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت - المنطقة التجارية رقم ٩بلوك ١مكتب ١٢
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com